FAWZI ABDO

فوزي عبده



جورجيت ذات الخمار

دار الجندي

جورجيت ذات الخمار

فوزي عبده

أنا إنسانة مثلك، ودمي من دمك، وجذوري من جذورك، وإن أردت أن تعرف حكايتي وحكايتك يجب أن تستحق ذلك، ومادام الخوف يسيطر عليك ستبقى تائها...

جورجيت ذات الخمار



ISBN 978-9950-329-46-1



جورجيت ذات الخمار

جورجيت ذات الخمار

فوزي عبده
القدس – فلسطين

الطبعة الأولى، 2018 دار الجندي للنشر والتوزيع

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية
تدقيق لغوي: د. محمد رجب
مراجعة وإخراج: Design Studio/ Ramallah
الترقيم الدولي: ISBN 978-9950-329-46-1

E-mail: Fawzi.h.abdo@hotmail.com



www.JarretDahab.com

جورجيت ذات الخمار

فوزي عبده

حِينَ تسْكنُ العتمةُ نفوسَ البشَر فلنْ
تُبددها شمسُ السماء.

جورجيت ذات الخمار تنشر للمرة الأولى كنسخة ورقية والكترونية 2018

تنويه:

تم نشر أجزاء من هذه الرواية على الانترنت بطريقة رديئة تحت مسميات عديدة دون إذن أو تصريح من الكاتب.

1904...الشام...داخل حظيرة الأبقار...

رمقها بنظراتٍ حاقدة تتقد بالشر، وبصوتٍ أجش قال لها:

– بحثوا عن خيالٍ في الخيال لوصف جمالك يا جورجيت! وسأجعلهم يتجاوزون كلّ خيال لوصف القبح الذي سأقدمه لهم، وصفوك بـ "حورية خرجت من الجنة"، وسأصنع منكِ مسخ جهنم...

قص شعرها، شوّه وجهها وجسدها، نظر إليها في سرور، وقال:

– اختبئي رحمةً بالعيون التي تاقت إلى رؤياكِ، وقولي خلقني الله آيةً في الجمال، وخلق مني سالم مثالاً للقباحة.

ضاعتْ ملامحُ وجهها ... رمقته بنظرةٍ غامضةٍ وابتسمتْ.

1976...الناصرة... ذات الخمار

قاد سيارته المرسيدس مساءً في شوارع المدينة متوجها إلى أحد المطاعم للقاء أشخاص في انتظاره...توقف عند الاشارة الضوئية... وفي طرفة عينٍ انفتح باب السيارة وصعدتْ إلى جواره امرأةٌ في رداءٍ أسود، وأغلقت الباب في هدوء... ينظر إليها مذهولاً لا يعي ما يحدث، جُل ما يراه شبح أسود!

جال ببصره من القدم حتى الرأس لعله يرى شيئا يدل على جنس الكائن المتواري خلف الظلام! رجلٌ هوَ أم امرأة ولكن عبثا؛ فهو لم ير عينًا ولا وجهًا ولا يدًا تبدو من خلف السواد. تحيَّر في كيفية سؤال ذلك المتطفل المجهول عن هويته، وقبل أن ينطق حرفًا بادر إلى مسامعه من خلف العباءة والخمار صوت أنثوي جميل هادىء وواثق:

- *خذني إلى (كفر كنا).*
- *ابتسم قائلا:*
- *عفوا... لستُ سائق سيارة اجرة*
- *أعلم ذلك، هيّا تحرك!*

تملَّكه الفضول، وخلب عقله الصوت الأنثوي الساحر فوَجد نفسه يقود قاصدًا (كفر كنا) ونسيَ أنه على موعدٍ مهم، فكل ما كان يشغل باله هو مَن تكون صاحبة هذا الصوت الملائكي الدافئ؟! أدار وجهه نحوها وقال في نعومة:

- *عفوا يا حجة.*

على الفور أدارت رأسها المستور نحوه، وبنبرةٍ لا تخلو من الغضب:

- *(أنا مش حجة)*
- *(عفوًا قصدت يا شيخة)*
- *(ولست شيخة أيضا)*

ارتبك، وتلعثم في قوله:

- *يبدو عليك التدين كثيرًا.*
- *بنبرةٍ لا تخلو من الاستهزاء:*
- *لا كثيرا ولا قليلا، لست متدينة*
- *عفوًا! هل أنتِ مسلمة؟*
- *(ممكن اه ممكن لا) وما شأنك في هذا؟*

زادته ارتباكًا، وأراد أن يبدو قويًا، فقال:

- *إن لم تكوني متدينة فلمَ ترتدين كُلَّ هذا السواد؟*
- *ارتديه لأنني أرتديه .*
- *مَنْ أنتِ؟*
- *أنا قدرك حبيبي.*

لقد سمع لفظة حبيبي عشرات المرات، ولكنها أخذته بعيدًا هذه المرة؛ فعذوبة صوتها أوحت إليه بأنه لم يسمعها من قبل. قاطعت تفكيره قائلةً:

- *انتبه للطريق يا فارس.*

أذهلته عند نطقها باسمه، ثم ضحك محاولاً إخفاء دهشته، وقال:

- *قدري.. يا قدري... من أرسلك ومن أخبركَ باسمي؟*
- *نعم أنا قدرك ... وليس من شأنك أن تعرف أكثر من ذلك.*

باستهزاء قال لها:

- *وما عملك أيها القدر؟*
- *عملي أن أكون قدرك، ألا تؤمن بالقدر؟*
- *أنا لا أؤمن بشيء.*

فردت عليه ذات الخمار:

- *إذًا تعلَّم من اليوم أن تؤمن بأشياءَ كثيرة.*

- *لا بأس سأؤمن، أخبرينـي ما هو اسمك؟أم سأناديك "آنسة" قدرك أم "مدام" قدرك؟؟*
- *قدرك انت!*

فقال ساخرا:

- *يا قدري أنا، أليس من حقي أن أرى وجه قدري ؟*

بمزيج من الدَّلع والغنج:

- *ولماذا تريد أن تراني؟*
- *أريد أن أطمئن على قدري؛ أجميلٌ هو أم يا ساتر ؟*
- *اطمئن، قدرك جميل وليس... يا ساتر.*

الغرور والثقة في خطابها يلهب نار فضوله، واستهزائها يستفزه، فقال لها:

- *مادمتِ قدري، فأنا أريد رؤيتك الان*

ذات الخمار:

- *أنا جميلة جدا، ألا تثق بي يا فارس؟*

رد بفتور:

- *صوتك جميل، ولكنـي أشك فـي جمال وجهك.*
- *توقف جانبًا إذا أردتَ التأكد ولست مسؤولة عما سيحدث لعقلك بعدها.*

لا يتردد ويركن السيارة بجانب الطريق، ويشير إليها بعينيه:

- *اكشفي عن وجهك .*
- *مد يدك واكشف عن وجهي، ولكن تذكر أننـي حذرتك.*

لم يجد الجرأة الكافية، وبقي حائرا مذهولا مترددا؛ أيمد يده ويزيح الخِمار ليرى ما يخفيه، أم ينصت إلى تحذيرها الواثق ويمتنع؟

وبينما هو في صراع بين رغبته ورهبته فتحتْ باب السيارة وخرجت تسير في شوارع المدينة لا يُرى منها شيئا... تركته خلفها غارقا في بحر من الحَيرة، والندم؛ اختفت ... وعاد أدراجه مسرعا لعله يدرك مَنْ ينتظره!

أسابيع طويلة برفقة شريكته الشقراء لنسج خيوط صفقة وهمية لاصطياد بعض رجال الأعمال والاحتيال عليهم، وكان اليوم هو المُنتَظر لجني الثمار، واستلام الدفعة الأولى من النقود.

استنفدت الشقراء كلَّ ما في جعبتها من وسائل في محاولتها كسب بعض الوقت لحين حضوره وإنهاء الصفقة، ومع كل غنجها ودلعها وفنون الإغراء والإغواء التي تحترفها لم تفلح في منع الشك من التسرب إليهم بسبب تأخر شريكها لساعات... ولعنتْ الشقراء فارس لتسببه في خسارة الصفقة، وغادرتْ بعد فشله في إقناعها بمرافقته، لعل بعضا من القبلات تخفف عنها ألم الخسارة.

قاد سيارته وهو يلوم نفسه ويلعن المقنعة:

– *يا لقدري السيئ! لقد خسرتُ الصفقة وخسرتُ ليلة ساخنة في أحضان الشقراء لإشباع فضولي في الكشف عن معتوهة خلف خِمار أسود.*

1894...الشام...الطفلة والمغارة...

تحمل وعاءً فَخَّاريًا مُهشمَ الأطراف، تتسلل إلى البئر، تلتفت خلفها لتتأكد أن أمها لم تنتبه إليها، تمد كَفَّها النَّاعم وتمسك الحبل المشدود إلى بكرةٍ خشبيةٍ أعلى البئر، وتحاول شده إليها لعل الدَّلو القابع في قاع البئر يأتيها بالماء!

شقَّ عليها الأمر، وبعد جَهد جهيد يصعد الدَّلو مُحمَّلاً بالماء فتربط طرف الحبل مقلدةً أمها حتى لا يسقط الدَّلو في قاع البئر...تقف على حافة البئر وتمد يدها لتجذب الدَّلو الذي يعادل نصف وزنها...قامتها الصغيرة لا تساعدها في الوصول، تحاول وتحاول، وبأناملها تمسك طرف الدَّلو وتجذبه إليها ويجذبها إليه فتكاد تفقد توازنها...تسقط بجانب البئر ومعها يسقط الدَّلو الذي لم يتبقَ فيه من الماء إلا القليل.

تملأ الوعاء الصغير بما تبقى من الماء، وترتسم على شفتيها الرقيقتين ابتسامة ملائكية، وتسير تجاه مغارة صغيرة مُظلمة تبعد عن البيت قليلا، تقترب منها في حذر حتى لا تراها أمها، تختفي داخل المغارة وتقف في إحدى زواياها حيثُ يرقد ذئبٌ رَماديُ اللون... تقترب منه وتضع الوعاء أمامه، وتجلس بجانبه لتداعب أصابعها الصغيرة رأسه وظهره وتقول له:

- *"يلا اشرب"*

الذئب الرَّمادي العجوز الذي أعياه المرض وخذلته السنون لا يقوَ على تحريك رأسه... تلاحظ الصغيرة عجزه فتدفع الصَّحن ببطء حتى لامس أنفه فيرفع الذئب رأسه بعد عناء ويمد لسانه إلى الماء... عيناها تبرق بالفرحة، وروحها ترقص في سعادة.

تخرجِ الصغيرة ابنة السبعة أعوام من المغارة لتعود إلى البيت بعدما أنجزتْ مهمتها دون أن يلاحظها أحد.

لطالما حذرتها أمهًّا الاقترابَ من البئر حتى لا تسقط فيه، ومن المغارة حتى لا تلدغها الثعابين السامة، أو يفترسها أحد الذئاب التي اعتادت الاختباء هناك... لقد انتبهت الأم لغيابها وأخذت تبحث عنها وتنادي بأعلى صوتها:

- ***جورجيت...!*** *جورجيت...! أين أنت يا جورجيت؟!*



1976... الناصرة... القدر اسمه ياسمين...

واصل فارس قيادة السيارة ولم ينفكُّ عن التفكير في المرأة الغامضة وفيما تخفيه من أسرار، وعندما نظر حيث كانت تجلس صادفت عيناه حجرًا منحوتًا على شكل جمجمة في حجم كف اليد، وقد زُرعتْ في تجويف العينين كرتان حمراوان تُشعَّان مع كل انعكاس للضوء.

أمسك المنحوتة ودقق النظر وعندما شعر أنها تبتسم له ضحك وتمتم قائلاً:

– *قدري... يا لِقَدري... جمجمة وتبتسم!؟*

تحيَّر في حاجة المرأة إلى جمجمةٍ كهذه، وتساءل:

– *هل تعمدتْ تركها؟ أم أنها سقطتْ سهوًا؟*

ثم قال لنفسه:

– *لابد أن هذا الخِمار يخفي قبحا وشرا لا مثيلَ له.*

انقضى اليوم ومازال يفكر في أمر هذه المقنعة، شعورٌ خفيٌّ يشده إليها لا يجد له تفسيرا... أتراه الفضول أم شيئا آخر لا يدركه؟! يقود سيارته بلا هدف، يسير تجاه (كفر كنا) حيث تركها باحثًا عنها، ولكن دونما جدوى.

وعندما عاد إلى الناصرة رأى ذات الخمار تجلس في مقدمة أحد مواقف الحافلات، فاقترب منها وأراد محادثتها لكنه خشي أن تكون امرأة أخرى فتوقف بسيارته في الجهة المقابلة لها وأخذ يترقبها من بعيد. وفي سرعة خاطفة اقتربتْ من نافذة السيارة... وقالت:

– *لماذا تأخرت؟ أنتظرك منذ ساعة.*

صمت ولم ينبس بحرف، وصعدتْ السيارة وأغلقت الباب، وأخذت تعاتبه على تأخره وكأنها كانت على موعد مسبق معه، أمَّا فارس فبقي صامتا وعلامات الاندهاش

والتعجب تلوح على وجهه، والحيرة تعصف به ولا يفهم شيئًا مما يحدث. ثم قالت بلهجة الأمر:

- *أوصلني حيفا.*

ضحك فارس وقال:

- *سأوصلك أينما تريدين، ولكن أخبريني يااااا...*

قاطعته:

- *اسمي ياسمين.*
- *ياسمين يا ياسمين، أكنتِ في انتظاري حقًا؟*
- *نعم كنتُ أنتظرك، أتعتقد أنني كنتُ في انتظار رجلٍ آخر؟ إذا لم ترغب في رؤيتي سأرحل حالا.*

فتحت الباب وهمَّت بالخروج من السيارة لولا أنه توسَّل والتمس عدم رحيلها قائلاً:

- *أرغب في رؤيتك كثيرًا ولكني لم أظفر إلا برؤية هذا الثوب الأسود الذي يحجبك عني.*

بنبرة صوت مرتفعة قالت:

- *ألا تصدقني؟ أقسم أنني جميلة، وأنك ستراني عندما يحين الأوان.*

يرنو إليها بنظرة ليشعرها بأنه أصبح طوع بنانها، وفي سره يقول:

- *سأعريك من الخمار وممَّا تحت الخمار...*

وبابتسامةٍ صفراء قال لها:

- *ياسمين هل أنت شخص أعرفه من قبل وتمازحيني باختفائك خلف هذا الخمار؟ أم هناك من أرسلك لتثيري جنوني؟*
- *أنا لا أعرفك، ولم يرسلني أحد، ولكن منذ رأيتك قررتُ أن أكون قدرك.*

– *ماذا تقصدين بـ...؟؟*

قاطعته قائلةً:

– *توقفْ، لقد غيرت رأيي، ولن أرافقك إلى حيفا.*

ترجلت الغامضة من السيارة وسارت بخطى متسارعة حتى اختفت بين الزحام، وعينا فارس لم تستطعْ ملاحقتها. يضحك ويتمتم:

– *محترفة لا ترغب في الكشف عن أوراقها، ولديها الكثير من الوقت لتلعب، أما أنا فلا وقت لدي لمطاردة عاهرة خلف خمار أسود!!*

شعر بالرضا لأنه قرَّر الخروجَ من اللُّعبة وأقسم ألا يفكِّر في هذه المرأة التي لا تسعى إلا لإثارة فضوله في لُعبة ذكية؛ لابد أن وراءها أحدًا يسخر منه ويتندر عليه، وعاد إلى عمله ليشغل نفسه مُدعيًا نسيانها. بضع ساعات كانت كافية ليتأكد من فشله في طردها من مخيلته وتساءل:

– *ما الذي يشدني إلى هذا القناع الأسود؟! هل هو فضول الكشف عمَّن يقف خلفه؟! أم أسلوبها المثير الذي أسرني؟*

ثم حاول نسيانها مُجددًا، وبدأ بإجراء اتصالاته لترتيب عدة مواعيد لعمله، ويحدث نفسه قائلا:

– *سأتوقف عن التفكير في سخافة هذه المرأة.*

1894...الشام...الذئب العجوز...

تمسك جورجيت بيد أمها وتحني رأسها في خجل بعدما عصت أوامرها التي منعتها الاقتراب من البئر والمغارة. فطلبت منها والدتها أن تعدها بألا تقترب من البئر والمغارة مرة أخرى ولكنها لم تعدها إلا بعدم الاقتراب من البئر، فأصرت الأم أن تعدَها أيضًا بعدم الاقتراب من المغارة، زمَّت جورجيت شفتيها وعلَّقت حاجبيها مُعلنةً تمردها في صمت... ولمَّا لم تُجدِ محاولات الأم في انتزاع وعدٍ يريحها هام خيالها عاجزًا عن هتك أستار ذلك السر المجهول الذي يغوي صغيرتها بالذهاب إلى المغارة، ودار في خلدها أن تذهب بنفسها لاكتشاف ذلك السر الذي يشد الصغيرة إلى هذا المكان المُخيف... تغلبت الأم على خوفها وخطت بضع خطوات قلقةً فرأت الذئب العجوز المحتضر بجانبه الماء والكثير من كسرات الخبز... دبَّ الرعب في قلبها وتقهقرت حاملةً صغيرتها على عجل، وركضت مسرعةً مبتعدةً عن مغارة الموت، وصرخت فَزِعة:

- *(أنت مجنونة...هذا ذيب ...ذيب ومش أرنب.)*

وفي طريق العودة إلى البيت أخبرت الأم صغيرتها أن الذئب حيوان مفترس ومن الخطر الاقتراب منه، فترقرقت الدموع بعيني جورجيت ولم يعجبها ما سمعته...فحاولت الأم إقناعها بأن الذئب يحتضر، وقد اختار هذا المكان ليموت فيه بهدوء ولا يحب أن يزعجه أحد.

ردت جورجيت في براءة ملائكية:

- *(أطعميه يا ماما).*

أدركت الأم أن ابنتها لابد أن تتسلل إلى المغارة من جديد، فانحنت على ابنتها، ونظرت في عينيها متحمسةً خدَّيها وهي تقول:

- *حبيبتي أعدك بأنني سأمُدُّ الذئب المريض بالماء والطعام حتى يتعافى شريطة أن تعديني بألا تقتربي من المغارة ثانية.*

لم تقتنع جورجيت بما قالته الأم وأصرَّت أن تعتني به بنفسها، رضخت الأم أمام عناد ابنتها الصغيرة، وسمحت لها بذلك إن رافقها والدها، وهي موقنةٌ بأن الذئب مريضٌ ولن يعيش طويلاً...

وقالت لها:

- *انظري يا جورجيت إلى السماء.*

رفعت الصغيرة رأسها إلى السماء فأشارت الأم بيدها قائلة:

- *هناك تجلس الملائكة وهي المسؤولة عن حماية الحيوانات وإطعامها، ولستِ أنتِ يا جورجيت.*
- *أنا لا أرى أية ملائكة.*
- *هي موجودة ولكن لن نستطيع رؤيتها.*

نظرت جورجيت إلى السماء ولوَّحت بيدها الصغيرة للملائكة المختبئة خلف الغيوم وعيناها تفيضان بالشكر والعرفان لمساعدتهم لها بالاعتناء بالحيوانات المريضة. وسخَّرت كل وقتها للاعتناء بالذئب المريض ولم تمر أيام حتى مات، وأراد والدها أن يحرق جثته لكنها أصرت على أن تقوم بدفنه في المغارة التي أراد أن يغادر الحياة منها، وبعد أيام لاحظت الأم أن جورجيت حرصت على وضع صحن خارج البيت تملؤه بالماء وتضع فيه كسرات من الخبز...فسألتها عمَّ تفعل، فأجابت الصغيرة:

- (بطعمي الملائكة يا ماما...).

1976...قبلةٌ من وراء الخمار...

مرت ثلاثة أيام على لقاء فارس بذات الخمار انشغل خلالها بنسج خيوط احتيال جديد، وكان ضحيته هذه المرة رجل أعمال التقى به في أحد المطاعم جنوب الناصرة، واحتسيا معا عدة كؤوس من الخمر احتفالا بالصفقة التي سيربح منها الكثير من النقود مقابل بيعه لرجل الأعمال هذا آلاف الأمتار من حجر البناء الذي لن يستلم منه شيئا، وبين الفينة والأخرى يتذكر ذات الخمار ويتساءل:

- *مَنْ تكون؟ ومَنْ يقف خلفها؟ وإلامَ تخطط؟ وأين هي الآن؟!*

*****

بعيدا عن أعين الناس في مكانٍ مرتفع يطل على أحد الشوارع الرئيسة تجلس ذات الخمار على صخرة بين الأشجار، وتقف بجانبها مقنعة أخرى وكأنها انعكاسا لها. تسأل إحداهما وقد رافق سؤالها ضحكة ساخرة:

- *هل حاول أن يكشف عن وجهك يا ياسمين؟*

ضحكتْ الثانية:

- *لا يا وردة، فكَّر ولم يفعل.*

فسألتها:

- *ومتى تعتقدين أنه سيجرؤ على ذلك؟*
- *أتمنى ألا يفعل.*
- *لا تتمني كثيرًا، لن يصبر.*
- *سأحذره ألا يراني وأطلب منه أن يكون صبورا.*
- *الفضول يهزم الصبر، لا تضيعي الوقت في أوهام.*
- *ما رأيك يا وردة أن نتراهن على أنه لن يراني.*

- *صوتك يبعث القلق في نفسي، وأخشى أنك تخططين لئلا يراكِ يا ياسمين.*
- *لا تقلقي أنا فقط أتمنى ألا يراني بإرادته.*

*****

قرَّر فارس أن يعرِّج على بيت شريكته الشقراء ليزف لها خبر الصفقة الجديدة لعله يصلح ما فسد من علاقتهما بعدما كان سببًا في إفساد الصفقة الماضية.
قاربَ النصف الأول من الليل على الانتهاء، وفي الطريق فوجئ بذات الخِمار الأسود تلوِّح بيدها ليتوقف... انتابه إحساس لم يعهده من قبل؛ يمتزج فيه الخوف والتحدي والسعادة... دقات قلبه تتسارع... تقترب ذات الرداء الأسود من السيارة وترتمي بجسدها جواره على المقعد، وتقول بصوت ناعس لا يخلو من الإرهاق:

- *فارس.. أوصلني إلى بئر السبع؟*

لم يجبها، وقاد في الطريق المؤدية إلى بئر السبع بلا مجادلة، ولم يأبه إن كان عليه العودة إلى البيت، أو إذا كان في انتظاره أحد.

امتنع الاثنان عن الكلام، وخيَّم الصمت... تميل برأسها وكأنها بحاجة إلى أن تغفو قليلا... طاقة غريبة تتدفق منها لجسده فور ملامسة رأسها كتفه، يشعر بسكينة ممزوجة بسعادة لم يختبرها من قبل، يبطئ من سرعته وكأنه يسعى ألا يصل إلى وجهته أبدًا.

غطَّت في نوم عميق، فيبذل جهده لئلاَّ يحرك جسده خشية أن تستيقظ، يمسك المقود بيده اليسرى ويتكئ باليمنى على المقعد ليستقر رأسها على صدره، وبغير إرادة منه تتسل يمينه خلف ظهرها لتلامس كتفها فيطوقها ويحتضنها في هدوء.

وبالرغم من أن سرعته لم تتجاوز الأربعين كيلو مترًا إلا أنه شعر بأن سيارته تتمرد عليه وتسابق الريح لتصل إلى وجهتها، وتسرق منه أجمل لحظات حياته.

يخفض المرآة الأمامية للسيارة ويوجهها نحو ذات الخِمار ليتمكن من مراقبتها ومراقبة الطريق في آن واحد، يشعر بدفء جسدها يسري في عروقه، وفي المرآة لا يرى إلا كومةً من القماش الأسود. يتساءل في قرارة نفسه:

- *ماذا يحدث لي! أي جنون هذا! من أين أتت هذه المشاعر الغريبة التي تجتاح كل ذرة في كياني؟! هل يُعقل أن أنجذب إلى امرأة مجهولة لم أرَ منها شيئا؟! هل يُعقل أني مسلوب الإرادة من أثر سحر؟! أم أن دفء صوتها سحرني؟! يجب أن أفيق، أي مفاجأة يخفيها هذا الخمار اللعين؟! لا يبدو أنها ستكون سارة...*

يضحك في صمت، ويحرص على التنفس ببطء حتى لا يزعجها، يتخيل الكثير من الصور لوجهها؛ عقله يوحي إليه بأنه سيرى قبحًا لا مثيل له، وقلبه يتمنى أن يكشف الخِمار عن حسناء.

تتراخى يد ياسمين وتسقط ليلامس كفها المغطى بقُفَّاز من القماش الفخذ الأيمن لفارس، فتربكه وتثير فيه رغبة قوية. يراقبها في المرآة ويحاول الإنصات إلى أنفاسها ويتساءل هل حدث هذا عفْويا؟! أم أنها تعمدت إيصال إشارة لتدعوه إليها؟!

الرغبة التي أثارتها الملامسة العفْوية أو المقصودة تجتاحه، فيترك أصابع يده اليمنى التي مازالت تطوقها تعبث قليلا بما تصل إليه من جسدها... يتمادى كثيرًا، ولا يصدر منها ردة فعل تدل على ضجر. الرغبة المشتعلة بداخله كانت أقوى من تمهله ليتأكد من صدق رغبتها، فأسرع بركن السيارة جانبا، وأرسل مقعدها إلى الخلف، ...ولامست يداه فخذيها.

أفقدته صوابَه تنهيدات ناعمة رقيقة تنبعث من تحت الخِمار، فأمطرها بسيل من القبلات يتحسس كلَّ ما تصل إليه شفتاه في فوضى عارمة، يجذب رأسها بعنف ويلصق شفتيه بشفتيها، ولم يستطع الخِمار الرقيق أن يمنعه من تذوق طعمًا أفقده السيطرة على نفسه فأراد بلا إرادةٍ أن يمزق الخِمار الذي يحجب عنه جسدًا يَتُوق إلى لقائه. هَمَّ بتمزيق الخِمار، وقبل أن يفعل فعلته سبقتْه يدها وضغطتْ بكفها على صدره في هدوء، وقالت:

- *لا تحاول.*

وما كانت دفعة خفيفة ناعمة وكلمة واحدة لتطفئ نار شهوته، فرفعت يدها مجددًا وصدته قائلةً:

- *أخبرتك ألا تحاول.*

1900...الشام...طريق الذئاب...

مرَّت السنوات ومازالت جورجيت تعتقد أنها المسؤولة عن رعاية ملائكة السماء، أخبرتها أمها أن الملائكة ترعى وتحرسُ الحيوانات الضعيفة ولذا غضبتْ من الملائكةِ عدة مرات لتقصيرهم في الاعتناء ببعض الطيور والحيوانات التي نفقت أمامها، ولكنها لمْ تقصِّر يومًا في إطعام الملائكة وسقيها؛ روحُ طفلة تسكن جسدًا نضج قبل أوانه لابنة ثلاثة عشر عاما.

لقد كان عيسى الشامي –والد جورجيت– فقيرًا بين عائلة فاحشة الثراء، وكان يعمل لدى قريبه سعادة الشامي سائسًا للخيل، ويعتني بمزرعته مقابل أجر زهيد والسماح له بالسكن في بيتٍ حقيرٍ يملكه بعيدًا عن المزرعة؛ بيت جدرانه من الحجارة والطين، ومسقوف بجذوع الشجر، وأكوام من القش، وبجانبه ثلاثة أشجار، وعلى مقربةٍ منه بئر ماء ومغارة، وعلى بُعد مئات الأمتار كنيسة قديمة مهدمة، هذا البيت البسيط كان يُمثِّل لجورجيت الجنة والنعيم.

وحيدة والديها لا تعرف من البشر إلا بعض رعاة الأغنام الذين يمرون بالمكان عابري سبيل كل بضعة أشهر، وأحيانا ينقطعون لأعوام بسبب القحط...عزلتها زادت من براءتها إلى حد عدم فهمها سبب تحذير أمها لها من الذئاب والأفاعي التي تجول تلك الرقعة القاحلة.

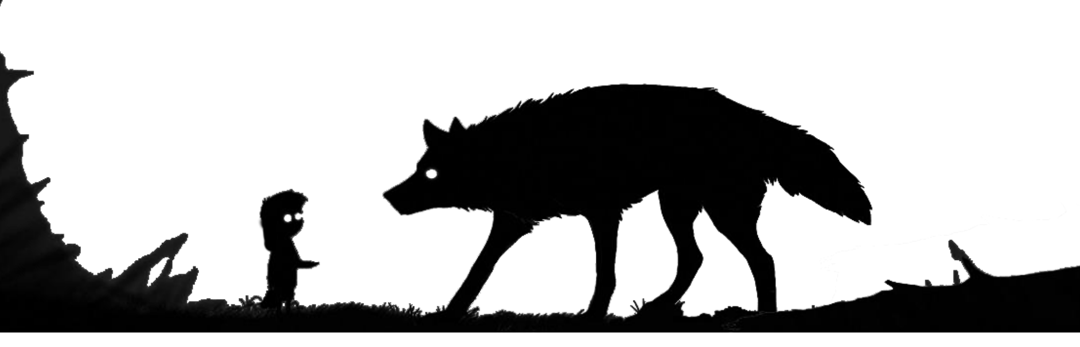
عالم جورجيت الصغير لم يسكنه سوى أمها، وأبوها، وحيوانات بريئة، وملائكة تسكن السماوات في حاجةٍ إليها لتطعمهم وتسقيهم، ولذا كثيرًا ما كانت تدَّعي الشِّبع حتى يتبقى شيء من طعامها لتطعم الملائكة.

ذات يومٍ يُحضر رمزي الشامي ابن سعادة إلى المزرعة فرسًا جامحًا لم يُروَّض بعد، ويطلب من عيسى رعايته، ولم يستطعْ عيسى السيطرة على الفرس فهرب منه، وبعد

أيام يزور المزرعة رمزي سعادة برفقة صديقه عثمان الدهري، وثار غضبهما بعدما علما أن الفرس هرب وغاب في الجبال.

جورجيت وأمها في انتظار عودة الأب والزوج لتلاوة الصلاة وتناول ما توفر من طعام العشاء، ولكن الأب تأخر في عودته على غير عادته، زاد قلق الزوجة وهي تراقب غروب الشمس والعتمة تلف الطريق التي اعتاد العودة منها كل يوم، ولمَّا دبَّ الخوف في قلبها عزمت على الذهاب إلى المزرعة التي تبعد عن البيت مسير ساعة أو أكثر على الأقدام، وترددت بين ترك ابنتها في البيت وحدَها وبين أن تصحبها في طريق لن تخلو من الذئاب، ثم أمسكت بيمينها فأسًا وبيسارها يد جورجيت ومشت تتلمس طريقها في الظلام قاصدةً مزرعة سعادة.

تمضي في طريقها تدعو وتصلي، ولم تتوقف عيناها عن الدمع، وعواء الذئاب يقطع سكون الليل، وفي منتصف الطريق لمحتْ من بعيد ذئبًا يسُدُّ طريقها، فتسمَّرت الأم مكانها وأحكمت قبضتها على الفأس وشدت على يد جورجيت، وأخذ الذئب يعوي وكأنه يدعو بقية الذئاب لوليمة وجاوبته الذئاب بالعواء، ولم تمر دقائق حتى طوقتهما، سحبت الأم ابنتها وضمتها إلى صدرها، ورفعت الفأس عاليا بيد مرتعشة، ولم تكف عن البكاء، ونقاء قلب جورجيت منعها من فهم سبب ارتجاف الأم وبكائها، وتمنت لو أنها حملت معها بعض كسرات الخبز لتطعم الذئاب الجائعة.



1976...الطريق إلى الجنون...

- *لا تحاول*

أمسك يدها ونظر تجاه عينيها المُخبَّأتين وكأنه يقول:

- *لن تمنعني هذه اليد الصغيرة عن بلوغ ما عزمتُ عليه.*

واقترب برأسه في هدوء ليقبلها فلم يدرِ كيف أفلتت يدها وأحكمتْ قبضتها على يده، وقالت:

- *أترغب في إصابتها بالشلل؟*

ثقُل جسده، وسكنتْ جوارحه، ولم يكد يشعر بأطرافه وكأنها قد شُلَّتْ، يتخطف أنفاسه ولم يعد قادرًا على النهوض ليعود مكانه، فدفعته برِقَّة حتى اعتدل في مقعده، واعتدلت في جلستها وانتظرت بضع دقائق حتى استطاع تحريك جسده من جديد، ثم قالت:

- *قُد السيارة.*

يقود والرعشة التي أصابته تحجبه عن الواقع؛ وكأنه يسبح في أعماق حلم يدركه ولا يدري كيف يفيق منه...السيارة تسير وتسير في طريق لا نهاية لها، أو أنها مازالت متوقفة، وشاحنة مسرعة تمر بجانبه وتهز الطريق فتتأرجح سيارته يَمنةً ويَسرة، فيضع يديه على المقود ليسطر عليها، ويغلق عينيه بعدما شعر بحرقة جرَّاء سطوع الشمس المفاجئ...لحظاتٌ تمر حتى أدرك أنه غفا بجانب الطريق، ولم يصل إلى مكان.

يفتش حوله لعله يجد أثرًا لذات الخمار! ثم يغمض عينيه ويعود برأسه في محاولة لاستعادة الأحداث منذ رؤيتها ليدرك أنه لم يكنْ حالمًا بالرغم من الوقت المفقود الذي نام خلاله... يفتح عينيه من جديد ويمد يده ليدير محرك السيارة ويعود إلى بيته... لقد

اختفى مِفتاح التشغيل! وبالرغم من شكه في اختفائه مع ذات الخِمار إلا أنه أخذ يبحث عنه راجيًا أن يعثر عليه تحت أحد المقاعد.

خرج من السيارة ووقف بجانبها واجمًا آملاً أن تعود الغامضة لتعيد المِفتاح، ومرت نصف ساعة ولم تعدْ فاستقل سيارة أجرة وعاد إلى بيته.

وفور وصوله توجه إلى المطبخ لإعداد كوبٍ من القهوة، وضع الماء فوق الموقد، وتوجه إلى الحمام، وفتح الصنبور وترك الماء البارد ينساب فوق رأسه، ليعيد إليه القليل من النشاط، ثم عاد إلى المطبخ فوجد المِفتاح على الطاولة... ابتسم وتمتم:

- *العاهرة المقنعة في بيتنا! مرحبا بها.*

يفتِّش عنها أرجاء المنزل حتى دخل غرفة أخيه علاء وسأله:

- *هل دخلت بيتنا امرأة مخبأة الوجه غريبة المظهر؟*
- *ماذا تعني بـ غريبة المظهر؟!*
- *ترتدي نقابًا أسودًا ويسربلها رداء حالك السواد من رأسها حتى قدميها.*

رد عليه علاء مستهزئًا:

- *لم أرَ أسودا ولا أبيض!*
- *أين أمك؟*
- *ذهبت إلى دار عمي؟*
- *ارتد ملابسك واذهب لإحضار سيارتي ولا تتأخر.*

علاء لا يفوت فرصة ليقود سيارة أخيه، قفز مسرعا وتناول المِفتاح ولم يسأله عن سبب تركها بعدما أخبره فارس بمكانها، وخرج من باب المنزل، ليجد السيارة في مكانها

المعتاد، فابتسم وشك في أن أخاه قد ثمل بعد سهرةٍ ما، ثم قاد السيارة ليتجول بها في سرور... شرب فارس قهوته، واستبدل ملابسه وترك البيت متوجهًا إلى مكتب عمله واستوقفته والدته وسألته عن المكان الذي أرسل إليه أخاه علاء فأجابها:

- *أرسلته ليحضر سيارتي.*
- *استقل سيارتك ليحضرها!؟*

حوار قصير بينهما ليكتشف أن السيارة كانت أمام البيت في مكانها المُعتاد، فاصطنع الابتسامة ليوحي إلي أمه بأنه يمازحها، وغرق في دوامة من التساؤلات والشكوك:

- *هل يعقل أنني فقدتُ رشدي؟! أم أن الشياطين تتلاعب بي؟! ماذا تخطط؟ ولماذا تخفي وجهها؟!*

وردة وياسمين...

بين أحضان الجبل تطارد وردة إحدى الفراشات الرائعُ لونُها ولكنها تهرب منها فتعود حيث تجلس ياسمين متوارية خلف الأشجار وتسألها:

- *ما بك يا ياسمين، لماذا أنت منزعجة؟*
- *ينتابنـي إحساس غريب تجاه هذا الشاب.*

فتسألها بقلق:

- *هل رأى وجهك؟*
- *لا.*
- *هل تريدين أن آخذ مكانك؟*
- *فات الأوان...لقد قبلنـي.*
- *قلتِ أنه لم ير وجهك! كيف حدث ذلك؟!*
- *قبَّلنـي فوق الخِمار.*

تضحك وردة قائلةً:

- *قبَّلك ولم يرَ ما الذي يقبِّله؟! أي أحمق هذا!*
- *يبدو أنه تأثر من تكراري المستمر "أنا حلوة، أنا جميلة".*

تدوي ضحكات وردة مع قولها:

- *يبدو لي أنه لن يصمد لشهر واحد، ولكن لماذا سمحت له بتقبيلك بهذه السهولة؟*

ياسمين بنبرة غلَبَ عليها الحزن:

- *ربما.. أردتُ ذلك يا وردة... وتركته يفعلها... ربما... ربما...!*
- *لا تعلقي الآمال؛ فجميعهم سواء، وهذا الشاب أكثرهم قدرة على الكذب والتمثيل وأتمنى ألاَّ تحاولي منعه من رؤية وجهك.*
- *أعلم أنه كاذب، وسأتركه لأوهامه وقدره.*

تلمح وردة جرَّارًا زراعيًا يتوجه نحوهما، فتضغط بكفها على كتف ياسمين لتلفت انتباهها، ويتواريا عن الأنظار.



1900...الشام..لقاء مع الشر...

لم تحمل جورجيت الخبز لتطعم الذئاب الجائعة، ولم تبدأ الذئاب هجومها بعد... وساعِد الأم يخذلها في مواصلة رفع الفأس تحذيرا للذئاب فيسقط من يدها، وتسقط على الأرض بعدما خذلتها ركبتاها أيضًا، وتضم جورجيت إليها بقوة وكأنها تودعها.

يقترب أحد الذئاب عدة خطوات، وتحرر جورجيت رأسها ليفلت من قبضة أمها التي كادت تخنقها، وتنظر إلى الذئب التواق لافتراسها فتلتقي عيناه بعينيها الآسفة لعجزها عن تقديم الطعام له... خارتْ قوى الأم وعجز لسانها عن توديع ابنتها؛ فهي تدعو الله بقلبها أن يمنحها بعض اللحظات بجوار صغيرتها قبل فراقها، وعندما طال الصَّمت تشعر الأم بأن حديثا ما لا تفقه لغته يدور بين ابنتها والذئب.

يعوي الذئب رافعًا رأسه إلى السماء، ويتبعه عواء بقية الذئاب، ثم تركض جميعها ويختفي عِواؤها، فترفع الأم رأسها إلى السماء وتشكر الله على النجاة، وترفع جورجيت رأسها وترمق السماء بنظرةٍ عتاب على تركها الذئاب جائعة.

وصلا مزرعة سعادة فإذا بوالد جورجيت مُلقى على الأرض فانكبت عليه جورجيت وأمها في لهفة، وأجلساه وسألاه عمَّا حدث وقد عاينا في رأسه وصدره آثار كدمات وجروح بالغة، فينظر إليهما عيسى ولم يقوَ على الحديث أو الحراك، وبشق الأنفس يحملاه إلى كوخ صغير، وتبذل الأم جهدها لإسعافه وتضميد جراحه، ولم يكن أمامها سوى انتظار الصباح لعلها تجد من يغيثها ويساعدها.

أشرقت الشمس ومر راعٍ بجوار المزرعة وساعدها على حمل عيسى على عربة يجرها حمار، مخصصة لنقل الأعلاف واعتذر لعدم مرافقتها خشية ترك أغنامه وحدها.

جرت العربة والتقت في طريقها بـ "سعادة" صاحب المزرعة الذي حاول أن يصطنع المفاجأة مما حدث لعيسى، ولم يصطنع مفاجأته بجمال زوجته، وقال بأسى: لقد حذرته

كثيرًا من رَفْس الخيل، وطلب منها أن تأخذه إلى البيت وأخبرها بأنه سيحضر طبيبًا ليعالجه فشكرته ومضت.

جورجيت تحني رأسها بين ركبتيها وتضم جسدها وتتكمش مثل قنفذ يتوارى عن الخطر... تسترق النظر إلى سعادة وتلتقي الشر في عينيه.

مكث عيسى مريضًا، ومر اليوم الأول والثاني ولم يحضر الطبيب كما وعد، وفي اليوم الثالث تركته زوجته في رعاية الصغيرة جورجيت وذهبت إلى المزرعة لأنها لا تملك خيارًا آخر.

التقت سعادة وما كانت في حاجة لوقت طويل لتدرك أنها لابد أن تدفع جسدها ثمنًا لعلاج زوجها... بصقت في وجهه وعادت إلى البيت لتواجه قدرها.

ورقد عيسى في البيت مشلولاً من جراء الضربات المجهولة التي تلقاها؛ كانت إصاباته بالغة ولم يفحصه طبيب، ولم يتلق دواء، وعاشت أسرة جورجيت مأساةً حتى أنهم لم يجدوا ما يطرد عنهم جوعهم.

ولم يكترث أقارب عيسى لسوء حال عائلته، وهم من أثرياء الشام، وما ينفقوه على خيولهم وكلابهم في يوم واحد يكفي ليسد حاجة عائلة عيسى لعام كامل... وبالرغم من هذه المأساة مازالت جورجيت تملؤ الوعاء بالماء وفي كل مرة تنظر نحو السماء وعيناها تعتذران لأنها لا تجد ما تطعمه للملائكة.

1976...كتاب السحر...

"لن أسمح لهذه الشيطانة أن تتلاعب بي"؛ كلمات يرددها مرارا وتكرارا في طريقه إلى مكتبه سيرا على الأقدام، وعيناه تبحث بين المارة لعله يصادفها في الطريق! وفجأة عرَّج على بيت صديقه جوني وطلب منه أن يعيره كتاب الجان والسحر الأسود الذي اشتراه من مصر. بدايةً اعتقد جوني أن فارس جاء ليهزأ به كما فعل مُسبقًا، ولكن إصرار فارس وإلحاحه على طلب الكتاب أثار الريبة في نفس صديقه فاستوضح الأمر وأخبره فارس بأنه يشك في أن سحرا ما قد أصابه من امرأة مجهولة تطارده في كل مكان.

- *وهل أصبحتَ تؤمن بالسحر يا فارس؟*
- *لا أؤمن بشيء، ولكني لم أجد تفسيرًا منطقيًا لما يحدث!*

جوني المهووس بقصص الجان والسحر تحمس كثيرا وأصر على سماع القصة مُفصلةً، ولم يمانع فارس لحاجته في التنفيس عن نفسه قليلا، فروى عن انجذابه الغريب لهذه المجهولة وانقياده لكل ما تطلبه، وعدم قدرته على التركيز في أموره بعد لقائها، وبالرغم من غرابة القصة أثارت ضحك جوني، ثم قال:

- *لا تسرف في الشراب، وهذه المجهولة لابد أنها تتلاعب بك .*
- *أعلم ذلك، ولكني خاضع لسيطرتها كخادم منقاد لأوامر سيده.*
- *هي تعرف عنك الكثير، ولا تتفاجأ حين تكتشف أنها قبيحة.*
- *لابد أنها سحرتني، لا يوجد تفسير آخر لما يحدث لي.*
- *إذًا أغرقها في الحب كغيرها واصحبها إلى أقرب فندق واحتفل معها.*
- *لا يبدو لي أنها ستتأثر بهذا النوع من التمثيل.*
- *أتقِن دورك وستجدها دُميةً بين يديك.*

خرج فارس ولم يجد داعيًا لإضاعة الوقت بالنظر في كتاب السحر ومجاراة ياسمين ذات الخمار في لعبتها الغامضة، وتوجه إلى منزل صديقته الشقراء لاسترضائها والتمتع قليلاً، ولم يكن في حاجة لأكثر من بعض الكلمات الرقيقة، والقبلات السريعة التي أوصلتهما إلى حيث أراد وأرادت.

ومرت أيام ولم تعاود ياسمين الظهور، ولم يتوقف فارس عن التفكير فيها؛ من تكون؟ كم عمرها؟ جميلة أم قبيحة؟ من أرسلها؟ من أخبرها؟ ولماذا أوقفت اللُّعبة واختفت؟ لن أفكر فيها بعد اليوم، نعم لن أفكر بعد اليوم. ويمضي في طريقه ويشعر بالراحة والهدوء بعدما شعر أنه اتخذ قرارًا صائبًا، وأخذ يردد، "لن أفكر فيها، لن ولن..."

يتجول في شوارع المدينة باحثًا عنها، ويردد: لن أفكر فيها، وعندما شعر بأنه في حاجةٍ ليدخن يوقف سيارته أمام إحدى البقالات ويترجل لشراء السجائر، ثم يقود السيارة ليتجول ويكرر:

- *لن أفكر فيهااااا بعد اليوم.*

ومن المقعد الخلفي يخاطبه صوتها الملائكي:

- *لا تفكر فيَّ بعد اليوم، والآن خذني إلى بئر السبع.*

أصابته قشعريرة ممزوجة بالخوف والفرح، ونظر في المرآة فإذا بها جالسة خلفه في ردائها الأسود، فشخص بصره وتعلَّق بالمرآة، فبادرته قائلةُ:

- *أسرع ولا تتلكَّأ حتى لا نتأخر.*

لا يهمه كيف ظهرت فجأة ولا إلى أي مكان ستصحبه، فامتنع عن الكلام، وانقاد لأمرها...الشوارع المزدحمة بالسيارات والمارة...يتوه عقله بين الضجيج...يقود ليتجاوز الزحام، ويعاود النظر في المرآة، ويقول:

- *ياسمين.*

تجيبه:

- *نعم حبيبي.*

يرتبك وتتزاحم الكلمات في سباق لتخرج من فمه، فينطلق صراخه فجأة:

- *ماذا يحدث؟! ماذا يحدث؟! ماذا يحدث لي؟!*

ترد بهدوء:

- *ماذا بك حبيبي؟*
- *لا أفهم شيئًا مما يحدث لي.*
- *انتبه للطريق حبيبي.*
- *من أنتِ؟ وما قصتك؟*
- *أنا ياسمين، أنسيتني بهذه السرعة!*

يضحك قائلا:

- *وكيف لي أن أنسى؟*
- *لن تستطيع نسياني حبيبي.*
- *أحبك، ولست أدري كيف حدث ذلك.*

ياسمين باستهزاء:

- *لابد أن تحبني.*
- *ألم تصدّقي أنني أحببتكِ بهذه السرعة؟*
- *المهم أن تصدّق أنت يا حبيبي.*
- *لم يجد الحب طريقًا إلى قلبي طيلة حياتي، وها أنا غارق في حب امرأة لم تقع عيني عليها بعد، ولم أعرف من تكون!*

ضحكات ناعمة مستهزئة:

- *ألم يساعدك الشيخ جوني وكتاب السحر؟*

ضحك بصوت عالٍ ولم يتفاجأ من علمها بأمر زيارته لجوني، وكأنه يرغب أن تكون ساحرة أو جنية، ولا يهمه حتى لو كانت شيطانة وقال:

- *أحبك، ولا عجب إن كنتِ ساحرة؛ أشعر أنكِ ألقيتِ عليَّ تعويذة حب سحرية كي لا أرى من نساء العالم سواك، وعلى الرغم من أنني لم ألتقِ بعينيك بعد، أحبك ولن أنفك عن حبك إلى الأبد.*
- *أكُلُّ هذا الحب ولم ترني، فماذا ستفعل بعد رؤيتي؟*
- *سأعشقك حتى يقتلني عشقي، وسأموت سعيدًا؛ لأنك ستكونين سبب هلاكي.*
- *أتعلم بأنني أفكر في حبك أيضًا؟*
- *هل تصدقين مشاعري؟*
- *أصدقك، فأنا قدرك، ومن لا يحب قدره!*

وفي سرها قالت:

- *سأعلِّمك الحب على طريقتي الخاصة!*

فرد عليها سائلا:

- *ياسمين مَن أنتِ؟*
- *ستعرف من أنا عندما تكون قادرًا على احتمال ذلك.*

يمر الوقت سريعا وتصل السيارة إلى حاجز للشرطة تم نصبه على الطريق السريع المؤدي إلى بئر السبع، وهناك أشار الشرطي إليه بالتوقف لتجاوزه السرعة، استجاب فارس للنداء وتوقف بجانب الطريق، فاقترب من النافذة شرطي وطلب منه أن يترجل ويحضر أوراقه الخاصة "الرخصة والتأمين ورخصة السيارة" وهّم فارس بالترجل إلا أن ياسمين لكزته بطرف يدها وطلبت منه أن يتجاهل الشرطي ويقود سريعًا.

انطلق فارس لا يأبه بعاقبة ما فعل، وأخذت ياسمين تضحك وما هي إلا لحظات حتى طاردته دورية الشرطة، وأمرته بالتوقف على يمين الطريق، توقف، ولم تتوقف ياسمين

عن الضحك، وألحَّت عليه في استمرار القيادة، استفزه ضحكها واستهتارها بما أوقعته فيه. ونعتها بالجنون قائلاً:

- جنونٌ أنتِ، وجنونٌ ما تدفعينني *إليه.*

أدركته سيارة الشرطة وتوقفت أمام سيارته، واقترب الضابط من نافذة السيارة وعلى وجهه علامات الغضب، وما إن اقترب حتى بادرته ياسمين قائلة:

- *ماذا تريد؟*

بدت علامات الذهول على وجه الشرطي وقال:

- *لا شيء! لا شيء!*
- *إذًا ابتعد من هنا.*

عاود فارس القيادة مشدوهًا، ولم يخْفَ عليها ما بدا على وجهه من خوف وذهول، وأخذتْ تراقب حركات يديه المرتعشتين، ولم يتوقفْ عن إشعال السيجارة تلو الأخرى بنهم شديد.

- *ماذا بك يا فارس؟ هل لدغتك أفعى!*
- *لا شيء غير أني لا أجد منطقًا لما حدث!*
- *وما الغريب في الأمر؟ أن تسأل الشرطي ماذا يريد فيقول لك لا شيء، هذا يحدث مئة مرة في اليوم ولكنك مرهق، وأنا السبب في ذلك،آسفة حبيبي ما كان ينبغي أن أجعلك تقود هذه المسافة الطويلة.*
- *وماذا ستفعلين؟ هل ستلقين عليَّ سحرا لأنام كما فعلتِ مُسبقًا؟*
- *عمَّ تتحدث؟*
- *ما حدث قبل أيام عندما طلبتِ مني أن أوصلك إلى بئر السبع، وقبلتك وتركتيني أغفو بجانب الطريق، واختفاء المِفتاح والسيارة.*
- *استمتع بأحلامك قدر المستطاع، فهذا لن يحدث إلا خلالها يا حبيبي.*

1900... الشام...العودة إلى المغارة

كرامة أم جورجيت لم تسمحْ لها بقبول صدقة أو إحسان بالرغم مِن تدهور حال زوجها، وعدم قدرتها على توفير الدواء والقوت، ولم يكن بوسعها إلا أن تعمل خادمة في بيوت أقارب زوجها، وتحملت شتى الإهانات من أجل لقمة العيش وبعض دواء الزوج، وكان جمالها الفاتن سببًا في طمع الكثيرين، ولأنها تأبى الخطيئة تعرضت لما يمس كرامتها، ولم تقف المصائب عند هذا الحد؛ فقد طلب منها سعادة أن تُخلي بيت الطين الذي ما كان سيلتفت إليه أو يتذكره يومًا... راودها عن نفسها؛ طلب منها أن تزوره في المزرعة إن أرادت الإقامة في البيت.

ولم تمر بضعة أيام حتى حضر سعادة وابنه رمزي برفقة بعض الأخسَّاء من عائلة الشامي وألقوا بعيسى العاجز وزوجته خارج البيت بينما لاذت جورجيت بالاختباء في جُحر داخل البيت، ثم خرجت بعدما انصرفوا والشر معهم.

عاجزةٌ هي الأم عن فعل شيء، لم تجد مكانا يأويها إلا مغارة الذئب التي دأبت على تحذير ابنتها من اقترابها؛ نقلت إليها ما استطاعت من الأغراض الملقاة خارج البيت، وبمساعدة جورجيت قامت بسحب عيسى المشلول داخل المغارة، ثم جلست وألقت برأسها بين كفيها وأرسلت بصرها إلى السماء وهي تبكي وتقول:

- *لماذا لم تقومي بافتراسي أيتها الذئاب الرحيمة؟*

دعت الله أن يرسل الثعابين لتلدغها مع ابنتها وزوجها ليموتوا ويموت إذلالهم على يد وحوش البشر.

دبَّ الخوف في قلب جورجيت عند نقل أبيها المصاب؛ فقد رأت الشر في رؤيتها لقريبه سعادة، وتملَّكها الرعب عند اقتحام القاسيةِ قلوبُهم البيت وتحطيمهم إناء الفخار الذي كان يشرب منه الذئب الرمادي الوديع والملائكة من بعده، وتحطيمهم الصَّحْن الذي كانت تطعم فيه الذئب والملائكة قبل شُح الطعام... لقد حطموا قلب جورجيت بتحطيمهم

كُل ما يرمز إلى الحب والعطف على الغير... لم تكن تعرف جورجيت أن الشر موجود في عالمها قبل حادثة أبيها حتى التقت به في عيون البشر، ولم تره مُطلقًا في عيون الذئاب.

جلست جورجيت أمام أمها الباكية، وتضرَّعتْ كي تحضر لها صحنًا وإناءً فُخَّاريًا لتسقي الملائكة وتطعمها عند توفر الطعام فتحسستْ الأم خدي ابنتها، ونظرتْ في عينيها، وهي تقول:

- *أما تدركين ما نحن فيه يا حبيبتي؟*
- *لماذا يفعلون هذا بنا يا أمي.*
- *لأن الوحوش التي تسكن دواخلهم نظرتْ إلينا.*
- *وما ذنبنا في هذا! وما ذنب الملائكة!*
- *حبيبتي جورجيت، لا تحزني، سأحضر لك صحنا وإناء، فأنا أيضًا لا أحب أن تجوع الملائكة.*

أشرق وجه جورجيت، ومدتْ كفها الصغير ومسحت دموع أمها، فابتسمت الأم واحتضنتها، ولم تتوقف عيناها عن الدمع.

ضيَّق ذلك الوحش –سعادة– الخناق على الزوجة المسكينة، حتى صار علاج زوجها ضربًا من الخيال، وأصبح همها الأوحد توفير لقمة خبز لتسد رَمَق الأسرة الجائعة.

الأعشاب وبعض ما تجده في طريقها لم يعد كافيا لسد جوعهم، واشتد الجوع بجورجيت وأخفت آلامها عن أمها كي لا تثقل من همومها، ولكنها بين الحين والآخر كانت ترفع رأسها إلى السماء وتخاطب الملائكة قائلةً:

- *أعلم أنكم تتضورون جوعًا مثلي... فسامحوني لأنني لا أملكُ الطعام.*

1976...الحب والخوف...

وصلت السيارة مدينة بئر السبع، وهناك طلبت منه السير في طريق جانبية فسار بها أكثر من ساعة، وبدأ الخوف يتسلل إلى قلبه، ويتعاظم كلما توغل في الطريق المعزولة، فلا شيء سوى ليل ساكن وصحراء لا نهاية لها، وعواء ذئاب يضفي على رهبةِ المكان رهبة.

تنهدت ذات الخمار:

- *وصلنا توًا.*

ركنَ السيارة، وقال والقلق بادٍ على وجهه:

- *إلى أين سنذهب؟ لا أرى سوى الصحراء المظلمة!*
- *سنسير على الأقدام وسنصل بعد دقائق.*
- *على الأقدام! هل أنت مجنونة!*
- *هل أنت خائف؟*
- *نعم أنا خائف، ومن لا يخاف في مكان كهذا!*
- *لا مكان للحب والخوف معًا فإن أردت أن أزيل الخمار لتراني فاتبعني، وأعدك بأنك سترى ما يسعدك.*

رهبة المكان توقظ غريزة البقاء وتدفع الحب جانبًا، وبالرغم من شوقه ولهفته لما يخفيه الخمار تتوارد على خاطره مشاهد مرعبة، وفجأةً ينبثق من مزيج الحب والخوف سؤال يلح على عقله:

- *وما أدراني بما سيكون تحت الخمار؟*

لم يتلفظ بسؤاله ولكنها أجابته قائلةً:

- *تعال واكتشف بنفسك.*

تركته وسارت تشق طريقها في الظلام لتمتزج بعتمة الصحراء، وكلما خطت خطوة شعر بأن روحه تبتعد عن جسده، وما عادت عيناه قادرة على رؤيتها، وبين صراع الحب والخوف يتأرجح فارس بين رغبته في اللحاق بها وبين تركها هربًا من وحشةِ المكان... يتبادر إلى مسامعه عواء ذئاب ويعلو شيئًا فشيئًا حتى تعاظم واقترب فقفز في سيارته خائفًا غير مكترث بمن يترك خلفه ولكن السيارة أبت أن تتحرك، يحاول مرارًا دون جدوى فأغلق نوافذ السيارة وأحكم إغلاق الأبواب وجلس خائفًا يترقب وصول الذئاب، ويتساءل:

- *هل تستطيع الذئاب كسر الزجاج؟ هل سأكون لها وجبة عشاء لذيذة؟! ماذا سأفعل؟ كم يبلغ عددها؟ عشرات؟ مئات؟، ولكن لماذا لم تقترب الذئاب من السيارة حتى الآن؟! هل تدرك الذئاب أنه من الصعب اقتحام السيارة فتنتظر خروجي لأصبح هدفًا سهلاً؟! يا لغبائها! أتتوقع أن أخرج وأقدم نفسي لها بهذه السهولة؟!*

يلتفت تارةً إلى الخلف وتارةً إلى الأمام، يسارًا ويمينًا، وبين طيَّات هذا الخوف الرَّهيب والقلق القاتل تذكر ياسمين وتساءل:

- *هل تستطيع الذئاب افتراسها؟ أم أن ذئبا يختفي تحت الخمار فلا تجرؤ الذئاب على مهاجمة بني جنسها؟!*

وتمتم قائلا:

- *إلى أين ستقودني هذه الملعونة؟! أين اختفت الآن؟*

*****

تسير ذات الخمار مئات الامتار تاركة فارس خلفها ليقرر إن كان يجرؤ على اللحاق بها، ومن جانب صخرة تنزل عدة درجات، وتفتح بابا يفضي بها إلى حجرة مضاءة

بالشموع، وتفوح منها رائحة العطر، فيها عدة أرائك تجلس على إحداها فتاة متشحة بثوب حريري أحمر، ينام في حضنها قطٌ أبيض، وبأناملها تداعب رأسه.

تقترب منها ياسمين تخلع الخمار تجلس بجانبها وتمد جسدها وتلقي برأسها في حضنها، بعدما دفعت القط بيدها لتحتل مكانه.

تداعب الأخرى شعرها بحنان، وتسألها:

- *أين تركتِه؟*

ترد ضاحكة:

- *في الخارج يصارع خوفه.*

وردة:

- *لا تعجبني فكرة إحضارك له إلى هذا المكان بهذه السرعة قبل رؤيته وجهك.*
- *ربما تجرأ واقترب، وعندها سيراني.*
- *أشعر أنكِ متهورة هذه المرة.*

ياسمين تقلد صوت فارس:

- *"أحبك، ولست أدري كيف حدث ذلك" !*

ثم تعلّق:

- *أردتُ أن أمزج الحب بالقليل من الخوف ليقرر ماذا يفعل.*
- *وماذا تعتقدين أن يفعل؟*

تنهدتْ ياسمين ثم قالت:

- *أتمنى أن يجرؤ ويخطو في الظلام من أجلي.*
- *لا يستطيع أحد أن يفعلها، وأنتِ تعرفين هذا جيدًا.*
- *ينتابني شعور مختلف هذه المرة.*
- *جميعهم سواء، سيهرب ويتركك خلفه.*

- *يبدو لي مُختلفًا عن البقية.*
- *أنت تتلاعبين بالوقت، كي لا يرى وجهك، وستكتشف أمي ذلك عاجلا أم آجلا، والآن هل سيتركك في الصحراء وحيدة؟ وكلتانا تعرف الجواب؛ لا شيء سيتغير؛ جميعهم سواء.*
- *لا تخافي، لن تكتشفَ أمُّكِ شيئًا.*

فرك فارس عينيه وأخذ يحملق في الأفق لتعود الطمأنينة إلى قلبه بعد أن رأى خيوط النور تشق طريقها وسط الظلام بشروق الشمس والفرج القريب لخلاصه، ومع انتشار النور تلاشى صوت الذئاب التي لم يرها، ونظر حوله ليجد نفسه وسط صحراء جرداء قاحلة.

وعلى مرمى البصر لا يرى أي أثر يدل على وجود حياة أو بشر، وازداد فضوله حول المكان الذي قصدته فترجل ومشى في أثرها محدثًا نفسه:

- *لابد أنها قريبة من هنا، فقد قالت "إن المكان الذي نقصده يبتعد عدة دقائق سيرًا".*

ودار ببصره في صحراء لا نهاية لها حتى أيقن أنه لو سار عدة ساعات لن يصل إلى مكان. آثار خطواته على الرمال ولا أثر لخطوات الغامضة فعزم على العودة إلى السيارة ليصلحها ويعود أدراجه إلى الناصرة بعدما يأس من وجود أي أمل يدله على المكان الذي قصدته، وفي طريقه لمح ما أثار انتباهه وسط الرمال، فسار نحوه وما إن اقترب حتى دبَّت القشعريرة في جسمه، فقد رأى قبرًا قديمًا ينبئ منظره على وجوده منذ مئات السنين، يخالط الغبار لونَ حجارته الأسود الممزوج بحمرةٍ قاتمة.

تعجب متسائلاً:

- *تُرى ما حكاية هذا القبر؟ ومَن يرقد فيه؟ ولماذا كان في هذا المكان تحديدًا؟ لابد أن بانيه احتاج وقتًا طويلاً ليكون بهذه البراعة؟ ولكن لماذا؟*

وبالرغم من الخوف الذي راوده ليلا قد عادت الشجاعة إليه نهارا فتحسس شاهدَ القبر المُغبَّر بيمينه لينبئه بنقش مكتوب فنفض الغبار لعله يستطيع قراءة الكلمات المكتوبة! وارتعب قلبه حينما قرأ:

...افتح القبر، لا مكان للحب والخوف معا...

...إما أن يقضي الحب على الخوف...

...وإما أن يقضي الخوف على الحب...

...افتح القبر وسترى ما يسعدك...

تذكر أن بعض الكلمات المنقوشة على شاهد القبر هي آخر ما نطقت به ذات الخِمار قبل تركها له ليلاً فهرول مسرعا إلى سيارته وهو يتمتم:

- *يا إلهي! ماذا يوجد داخل القبر؟ ومن الشخص الذي دُفن فيه؟ وما علاقتي به؟*

وَلَج السيارة التي دبَّت فيها الحياة بعدما كانت معطلة بالأمس، وأدار المحرك وسار مسرعًا ومازال يتمتم:

- *يا إلهي! ما هذه اللُّعبة؟!*

السيارة تشق طريقها بسرعة مجنونة إلى الناصرة، وبعدما ذهب الخوف عنه أبطأ سرعتها، وبدأ يناجي نفسه بصوت مسموع:

- *لن أدع هذه المرأة تعبث بحياتي ثانيةً! لا أعرف سوى صوتها؛ فأنا لم أرها، ولا أدري من تكون! لماذا أوهمت نفسي بأني أحبها؟! أقسم بأني لن أقترب منها ولن أفكر فيها ولو توسلتْ إليَّ في ذل، ولتكن من تكون، فهي لا شيء...لا شيء...لن أطلق العنان لخيالي يهيم في غموضها، أي أحمق أنا لأسمح لها أن تجرني للعبة الذئاب والقبور! شيطانة تظهر وتختفي، لا هدف لها سوى العبث بعقلي، أي حب هذا الذي أوهم نفسي به! وأي جنون أطارد!*

1900...الشام... ثمن الطعام...

الأم لم تحتمل ما تعانيه ابنتها، ولم تجد أمامها إلا أن تقطع من لحمها لتطعمها، فَدَاستْ على كرامتها وقدمت جسدها لصاحب المزرعة مقابل الخبز، وألا يسد الطريق أمامها في الحصول على عمل.

لم يكتفِ سعادة بافتراس جسدها متى شاء بل كان يشبع ساديته في تلذذه بضربها وتعذيبها، فكانت تعود مع كل لقاءٍ بآثار العديد من الكدمات على جسدها، ولم يقف سعادة عند هذا الحد بل جعل منها سلعة رخيصة يقدمها لأصدقائه.

عودةُ الأسرة إلى بيت الطين الذي أحبته جورجيت كثيرًا لم يشعرها بالراحة والأمان، لقد فقدت طعم القوت الذي تحضره أمها، ورغبت لو أنها تستطيع ترك الملائكة بلا طعام ولا تقدمه لها؛ فقد شعر قلبها الطاهر بأن أمَّها تدفع ثمنَه غاليًا، وأن الكدمات والجروح التي تعود بها بعد كل غياب هي بعضُ ذلك الثمن. حرصتْ أم جورجيت أن تخفي جمال ابنتها عن الأنظار خوفًا عليها من ذئاب البشر، وساعدها في ذلك انزواء بيتُ الطين.

لم تعِ جورجيت أن جمالها نادر فريد لا مثيل له، فكانت تداوم على سؤال جرو الذئب الصغير الذي اعتنت به قبل عام؛ لماذا تطلب مني أمي دومًا الاختباء عن أعين الناس؟! لماذا تخفي شعري، وتلطخ وجهي بالطين؟ لماذا تغطي ملابسي بالقاذورات كلما رافقتها إلى مكان؟! رحل جرو الذئب وتركها مع أسئلتها التي مازالت تدور في خلدها حتى الثالثة عشر من عمرها.

1976...لُعبة الخوف...

ليلةٌ كاملةٌ في غياهب ظلمات صحراء مجهولة مات خلالها ألف مرة كانت سببا كافيا ليبني حاجزا يصد انجذابه إلى ذات الخمار الغامضة، ويخلصه من أوهامه ويستعيد ثقتة وحياته، وبالرغم من نجاحه في طرد طيفها من عقله وأفكاره إلا أنه أدرك عدم قدرته على الخلاص من شعور الأسى والحزن لفقدانه شيئًا من حَيَاتِه... يسير ويهمهم قائلاً:

يا رب...! ما الذي يربطني بهذه المرأة الغريبة لأنغمس في لُعبتها الشيطانية! إن كان هذا ما يسمونه الحب، فأنا لا أؤمن به، ولن أؤمن به... عشرات الفتيات الجميلات، أوقعتهن بلُعبة الحب ولم أتورط، ما الذي يشدني إليها طالما أني لم أطَّلع على وجهها؟! سمراءٌ! بيضاءٌ أم شقراءٌ؟ صبيةٌ هي أم عجوز؟ أي سحر هذا الذي أصابني؟! لابد أنه الفضول، وحاجتي لمغامرةٍ تخرجني من أجواء الرتابة والملل، كلا لن أدعها تجرني إلى لُعبةٍ غبيةٍ كهذه، لن أفكر فيها، كفاني جنونًا وغباءً وضَعفًا، لن...لن...لن!

يهرب من شارعٍ إلى شارع... منها وإليها... يشد من عزيمته ويقنع نفسه بأنه سينساها، يشعر بالفرحة لخلاصه، ثم يغزوه الحزن لفقدانها... تنتابه لحظات فرح، ويعود الحزن ليعتصره من جديد، وبينما هو غارق في مشاعره المتناقضة يلوح من بعيد طيف امرأة برداء أسود تسير بخطىً متزنة لتبتعد رويدًا رويدًا... خفق قلبه بقوة وأسرع ليلحق بها بغير إرادة... اقترب ولم تعد تفصله عنها سوى عشرة أمتار أو أقل من ذلك... يزداد قلبه خفقانًا، هل يناديها أم يسبقها ليمكنها من رؤيته؟ خطوتان فقط ولكنها انتحتْ عنه ودخلتْ أحد المحلات التجارية فوقف ينتظر خروجها متسائلاً:

- *أتكون هي؟*

فإذا بيدٍ ترَبِّت على كتفه وصوت يهمس له:

- *اهدأ أيها مجنون.*

يلتفت مندهشًا فإذا بذات الخمار الأسود واقفة تضحك، فتعود إليه الحياة من جديد، ويسائلها في لهفة:

- *ياسمين! أين كنت؟ أين اختفيت؟ أين ذهبت؟ لا أستطيع الحياة بدون سماع صوتك.*

تبتسم وتسرُّ في نفسها "تركتني لتأكلني الذئاب أيها العاشق ثم تسأل في وقاحةٍ أين كنت؟" وتجاهر بنبرةٍ متظاهرةً شعورها بغَيرة العاشق:

- *فارس، لماذا تسير خلف هذه المرأة؟ كيف عرفتها؟ وماذا تريد منها؟ أنت كاذب أنت لا تحبني، لماذا تتبع امرأة أخرى؟ ألا تكفيك مغامراتك مع العاهرة الشقراء؟!*

غيرتها تغمره بالسعادة، فيقول مُعتذرًا:

- *حسبتكِ هي، لأنها تشبهك كثيرًا في ردائها.*

تهزُّ رأسَها وتسرُّ قولها:

- *طابت لك غيرتي عليك يا عاشق النهار!*

وترد في عنف:

- *وكيف تسمح لنفسك أن تقارنني بها، وأنت تعرف أنني أفوقها جمالاً.*
- *وكيف لي أن أعرف ولم أر منكما سوى خِمارًا وعباءةً! فإن كنتِ على ثقةٍ من جمالك فاكشفي وجهكِ لتبرهني عليه.*

تقول سرًا: سأخلع خوفك أولا قبل الخمار، ثم تضحك قائلة:

- *سأخلع الخمار الآن وسترى أنّى أكثر جمالاً وحلاوةً من تلك التي تلاحقها، ولكن أولا يجب أن تطلب منها أن تخلع خمارها، هيا افعلها إن كنت ترغب في رؤيتي.*
- *هل أصابني الجنون لأطلب من هذه المتدينة أن تخلع خمارها لأراها! وماذا ستكون ردة فعلها؟!*
- *وهل هي في نظرك أفضل مني لأفعل ما لا ترضى أن تفعله هي؟!*
- *لقد أحببتك ومن حقي أن أراك أمَّا هي فلا يهمني أمرها.*

ثم أضافت في غنج ودلع وغرور:

- *تخيَّل ما شئت، فأنا أفوق خيالك جمالاً.*

قاطعها:

- *هل توجد امرأة لا تعتقد أنها جميلة!*
- *أنا فاتنة، وقد اخترت نفسي لأكون زوجة لك إلا إن كنت لا تثق في ذوقي.*

قهقه بصوت عال:

- *اخترتِ نفسك زوجة لي! رائع، هيا بنا إذًا لنتزوج، ولكن ألا يجب أن أرى زوجتي؟*
- *أخاف أن تفقد عقلك إن رأيت جمالي، لهذا لن تراني إلا بعد الزواج، كما أنني أحتاج إلى بعض الوقت لأتأكد من صدق حبك.*

يسرُّ فارس بقوله "أخشى أن أفقد عقلي من شدة قباحتك أيتها المغرورة! كم أرغب أن أكشف عن الغرور الذي يخفيه هذا الخمار"، وجاهر ساخرًا:

- *والآن ماذا سنلعب؟ أقصد إلى أين سأقلك هذه المرة؟ إلى صحراء سيناء أم إلى جنوب لبنان؟*

في سرِّها قالت "لم ترَ شيئا بعد أيها العاشق!" وبنبرة حزينة قالت:

- *آسفةٌ... آسفةٌ لأني طلبتُ أن توصلني.*

وسارت مسرعة واختفت وسط الزحام فيسرع خلفها يناديها ولكنه لم يستطع اللحاق.
عاد إلى سيارته حزينًا خائفًا ألاَّ تعود من جديد، وندم على ما قال.
تفاجئه ياسمين بعودتها لتقول له:

- *أسفًا على اقتحامي حياتك، وأعدك بأنك لن تراني ثانيةً.*

وهمَّت بالذهاب لولا أنه اعترض طريقها وأصر على أن ترافقه، وقال حبيبتي أنا أمازحكِ، واللهِ لو طلبت مني أن أصحبكِ إلى آخر بقعةٍ في العالم لفعلت بلا تردد.
جلست بجانبه وهزت رأسها معلنةً رضاها، ثم أمرته:

- *هيَّا إلى طبريا.*

يسألها في الطريق:

- *أي علاقة تربطك بالأماكن الغريبة التي تذهبين إليها؟ ما السر من وراء الجماجم والقبور؟*

ردت غاضبة:

- *أيةُ قبور! وعن أيةِ جماجم تتحدث؟*

فدفع لها الجمجمة الصغيرة:

- *أنا أتحدث عن هذه الجمجمة وأقصد بالقبور، القبر الذي ذهبت إليه في الصحراء، أم نسيت؟*
- *أنت مجنون، أي قبر في الصحراء؟! أنا لم أذهب إلى قبور، ماذا تظنني؟! ألم أطلب منك أن تتبعني لترى أين أسكن ومنعك خوفك فتركتني أسير وحيدة، وهذه ليست جمجمة، إنها مجرد منحوتة وإن كنت مصرًا على أنها جمجمة فليكن ذلك. انظر إليها أليست جميلة؟ أتخاف من منحوتة حجرية؟ احتفظ بها وستجلب لك الحظ السعيد.*

- *جمجمةٌ وحظٌّ سعيد؟!*

قالت ساخرة:

- *ولِمَ لا، ألم تجلبني إليك؟*
- *ما السر الذي تخفينه خلف هذا الخمار؟ من أين أنت؟ ومنْ أنت؟*

تتعجبُ في صمت:

- *ألا يملُّ هذا الشاب تكرارَ الأسئلة نفسها!*

ثم قالت:

- *أنا جميلة فاتنة أنا ياسمين وأنت تحبني وأنا سأحبك، وإن كنت في عجلةٍ تغلَّب على خوفك لتستحق أن تراني، أوقف السيارة هنا وسأنتظرك، لا تتأخر.*

أسرعتْ ياسمين وغيَّبتها الأبنية في شوارع طبريا، وفارس يراقب اختفاءها وقد أثار عجبه أنها تسير بين الناس ولا يكترث بها أحد، فنادرًا ما يُرى في شوارع طبريا هذا اللباس الغريب ومعظم سكانها من اليهود.

*****

سارت ياسمين بطرق فرعية وبين الأزقة حتى وصلت بيتًا مهجورًا وهناك كانت منتقبة أخرى في انتظارها. قالت لها ياسمين:

- *ألن تكفي عن مراقبتي يا وردة؟*

فأجابتها بنبرةٍ حزينةٍ:

- *أخافُ عليك كثيرًا، لن تجني خيرًا من تلاعبك بمصيره.*
- *لم أصنعْ مصيره لأتلاعب به وسأثبت لك أنَّ فارس يختلف عنهم جميعا.*
- *أنت تريدين أن يكون مختلفًا، وإن كنت واثقة فلا تساعديه.*
- *لن أخل بأي شرط وسأترك الأمور تسير كما ينبغي.*
- *الليل لا يشبه النهار.*

- *سيحل الظلام بعد ساعات ولن يختلف شيء.*
- *أخشى أن تكتشف أمي تهاونك معه.*
- *لن تكتشف شيئا.*
- *ستعلم أنك منعته من رؤيتك لتمنحيه الفرصة.*
- *حان الوقت لنتوقف عن اتباع طرقها يا وردة.*
- *أمي تريد مصلحتنا فقط.*
- *إلى متى ستخفينا تحت عباءتها؟ إلى متى!*
- *هذا قدرنا يا ياسمين.*
- *هذا قدر أمك فقط.*

*****

طال انتظار فارس ولم تعد ياسمين، فوقف حائرا لا يدري قصدها بقولها "وسأنتظرك لا تتأخر!" فماذا يفعل الآن أيبقى في مكانه مُنتظرًا، أم يبحث عنها؟ وخرج من السيارة باحثًا عنها حتى ساقته قدماه إلى مقبرة بجانب شارع منزوٍ، فتمتم:

- *لا أستبعد أن تكون هذه المجنونة قد دخلت المقبرة!*

ثم وقف صامتًا وقد أرسل بصره ليتسلل بين شواهد القبور، وهتف به هاتف:

- *تغلب على خوفك حتى تراني!*

فبدأ يسير بين القبور حتى رأى قبرًا قديمًا وكأن القبر الذي رآه في الصحراء قد انتقل إلى هذه المقبرة. دفعه الفضول للاقتراب وبدأ يزيل الغبار الذي تراكم على شاهد القبر منذ زمن فظهرت كلمات منقوشة على الحجر:

...يا زائري لا تخف أنت تنتظر قبري...

...يا زائري أنا قدرك وأنت قدري....

...يا زائري أنا منك وأنت مني...

...يا زائري لا تتركنـي لوحدي....

...يا زائري افتح القبر أنت مخلصي...

الكثير من الأحرف بلا نقط... يعيد القراءة، تنتابه مشاعر غريبة، يمسح الغبار... يعيد القراءة... الكلمات تستبدل أماكنها... تتغير وتتناقص:

...يا زائري انظر قبري...

...قدرك...قدري...

...أنا منك وأنت منـي...

...احفر التراب ولا تتركنـي...

...افتح القبر...أنت مخلصي...

يمسك بطرف قميصه ليزيل عن عينيه ذرات الغبار التي لامستها... ويعيد القراءة:

...انظر قدري...قبرك قبري...

...أنت منـي...

...افتح أنت مخلصي ....

يشك بأن خياله يعبث بإضافة الكلمات وحذفها... يدير وجهه بعيدًا ثم يعاود النظر...يعيد القراءة من جديد:

...انظر...قدري...منـي...مخلصي...

تيقن أن الكلمات تختفي بقدرة عجيبة تفوق قدرته على التفسير وأنه إن لم يفتح القبر سيختفي كل شيء... شجاعة غير معهودة تدفعه ليمد يديه في محاولة لرفع بلاطة القبر، ولم يكد يلامسها حتى أصابه هياج شديد، ومال بنصف جسده المرتعش لتعرية القبر... تنتفض يداه، ولا تستقر قدماه في مكانها... يحاول ويحاول ولكن دونما جدوى... خارت قواه ودب اليأس في قلبه وأخذ يدور حول القبر، لعله يجد طريقة ما لفتحه! ثم عاد إلى سيارته للبحث عن شيء يساعده وقد سربله التراب.

امتلكه إحساسٌ قويٌّ بأن داخل القبر أمر يعرفه، أو قصة غريبة تربطه بها علاقةٌ ما، ولمَّا لم يجدْ شيئًا ولم يكن يفكر في شيء سوى اكتشاف سرِّ ذلك القبر عبثًا تحرك للبحث عن مكان ليشتري منه فأسًا فلم يجد، وبدأ صبره ينفد حتى لمعت في رأسه فكرةٌ أدخلتْ السرور إلى قلبه، فأدار مُحرك السيارة وتوجه إلى الورشة القريبة من الشارع، ونادى الحارس القائم على حراستها، وطلب منه فأسا ومجرفة فارتاب الحارس في أمر فارس الذي لم يدرك حلول الليل بعد، وسأله الحارس:

- *وماذا تريد أن تفعل بفأس ومجرفة بعدما حل الليل؟*
- *وما الغريب في الأمر؟*

فرد الحارس:

- *غريب عن المكان بسيارة فاخرة مغبر بالتراب، يطلب فأسًا ومجرفةً مع حلول الليل ، ألا يبدو هذا غريبًا!*

فارس وهو يضحك:

- *لقد قتلتُ رجلاً، وأحمل جثته في صندوق سيارتي وأرغب في دفنها بالمقبرة المجاورة، سأدفع لك المال وأعطني ما طلبت حتى أتركك.*

فضحك الحارس أيضا وقال:

- *يبدو أنك قتلت عشرة رجال وليس رجلاً واحدًا.*
- *أخي العزيز، إن أردتَ أن تبيعني فأسًا ومجرفةً فلا بأس، وإن لم ترغب سأتركك في سلام، الأمر لا يستحقُ المجادلة.*
- *أنا لا أجادل ولكن المعدات ملكًا لصاحب الورشة، فاذهب لطلبها منه واتركني وشأني.*

نظر إلى الحارس نظرة حانقة وسار عدة أمتار ناحية السيارة، ثم عاد إلى الحارس، وقال له:

- *ما اسمك؟*
- *وماذا تريد من اسمي؟*
- *أتخاف أن تخبرني باسمك؟*
- *اسمي محمد*
- *استمع لي جيدًا يا محمد، سأكون صادقًا معك، أنا ذاهب لاستخراج كنز مدفون على مقربةٍ من هذا المكان، وإذا صحبتني سيكون نصيبك ربع الكنز.*

فرد عليه الحارس:

- *أتستخف بي؟*
- *رجل مثلي يقود سيارة فاخرة ما حاجته في فأس ومجرفة إلا لاستخراج الكنوز المدفونة، لقد اشتريت هذه السيارة بما استخرجته من قبل، ويبدو أنك أيضًا قد فُتحتْ لك أبوابُ الخير، فهل ستأتي معي أم أذهب بمفردي؟*

وأدار ظهره للحارس ومضى إلا أن الحارس لحق به، وقال له:

- *سأصحبك شريطةَ أن يكون نصيبي نصف الكنز.*

فقال له مُبتسمًا:

- *الربع فقط يا عزيزي، وإذا لم توافق سأبحث عن غيرك.*

وافق الحارس حتى لا تضيع فرصة العمر، وعاد إلى الورشة وأحضر معدات كثيرة وضعها في السيارة وأخذ عهدا من فارس ألا يغدر به بعد إخراج الكنز.



1900...الشام...الراعي والجنية...

خرجت من البيت الطيني متوجهةً إلى البئر لتجلب الماء، وقامتها لم تعد صغيرة لتخاف عليها أمها من السقوط في قاع البئر، بالرغم من صغر سنِّها أصبحت المسؤولة عن كل شيء في غياب أمها وبخاصة الاعتناء بأبيها الكسيح.
شدَّت الحبل وسحبت الدلو الساكن في أعماق البئر، وملأت الدلو الآخر وقبل أن تطلق سراحه سكبت ما تبقى من مائه على رأسها لتخفف من وطأة حرارة الشمس، ثم تركت الدلو ليسقط في البئر...
الصيف الحار وماء البئر البارد والمكان المنعزل أغراها لترش على جسدها القليل من الماء، فسحبت الدَّلو مرة أخرى، وعاد إليها ملآنًا ففتحت كفيها وغرفت غُرْفةً وارتشفتها، ثم تجردتْ من ملابسها وأسدلتْ شعرها وسكبت علي رأسها الماء الحبيس في قاع البئر، لينزلق في حرية على جسدها الناعم الفتي، وعين الشمس تراقب جمالها وترسل خيوطها الذهبية لتجفف قطرات الماء التي أبت أن تنزلق عن مفاتنها، وتعاود جورجيت الكرّة من جديد، ما كانت لتشك أن أحد الرعاة قد يمر في تلك اللحظة ليشاهد ما دفعه ليغرس ظُفره في كفه؛ ليتأكد أنه ليس حالمًا؛ رؤيته لها عارية هامت بخياله في قصص الحوريات والجنيات خارقات الجمال التي اعتاد الرعاة على روايتها في ساعات الليل حول ألسنة النار... ارتدت ملابسها البالية، وحملت الدلو معها، ولم تنتبه أن هناك من يراقبها. الراعي تصنم مكانه، وترك عينيه تتابع جورجيت حتى حجبتها تلة صغيرة في طريق عودتها. تفرقت الأغنام ومازال الراعي شاردا، ثم اقترب من البئر وشرب من مائه وتلمس حافته؛ حيث جلست الحورية، لعله يلامس طيفها، ثم عاد إلى أغنامه يحمل معه حلمًا وقصة سيرويها على مر السنين.
وعادت جورجيت إلى البيت تحمل معها الدَّلو ولم تدرِ أن هذا اليوم سيقلب عالمها رأسًا على عقب. ولم تنسَ أن تضع القليل من الماء خارج البيت لتشرب الملائكة...

1976...في انتظار المخلِّص...

وصل فارس برفقة الحارس إلى أسوار المقبرة وأخذ يتحين الفرصة المناسبة للتسلل حتى لا يراهما أحد، ثم قفزا داخل المقبرة، رهبةُ المكان مهدتْ طريق الرعب إلى قلب الحارس، ولكن حلمه بالكنز المنتظر كان يمده بالقوة... يسير فارس باحثًا عن القبر الغريب وخلفه يسير الحارس بين القبور، ولم يكن من السهل إيجاد القبر في عتمةِ الليل، وبعدما انتبه فارس إلى القبر بين عشرات القبور المحيطة قصده لكن الحارس لم يتحرك، فالتفت إليه فارس، وقال:

– *هيَّا يا محمد أسرع لنفتح القبر ونستخرج الكنز، لقد فتح الله عليك أبوب رزقه.*

الحارس لم ينبس بحرف ولم يتحرك، واستمر فارس في حديثه وقد وجدها فرصة لشفاء غليله؛ فقال:

– *لماذا أنت مرتعب؟ لا تستعجل الأمر فأنت لم تر شيئًا حتى الآن!*

رمق الحارس فارس بنظرة مرعوبة وألقى بالعُدة التي يحملها على الأرض، وقال:

– *لن أبقى في هذا المكان، بارك الله لك في الفأس والمجرفة، والكنز.*

الحارس يركض هاربًا مرعوبًا، وخرجتْ ضحكةٌ من أعماق فارس وما إن تلاشى صَدَاهَا في سكونِ الليل بين شواهد القبور حتى عاد الخوف والذعر إلى قلبه، بعدما ألفى نفسه وحيدًا في عتمةِ اللَّيل الموحشة ورهبة المكان ومع حفيفِ ورق الشجر أو صوت آتٍ من بعيدٍ أو قريب يخيَّل إليه أن القبور ستنفتح وسيخرج الأموات منها.

استجمع شجاعته وحمل ما ألقاه الحارس واقترب من القبر، وأشعل ولاعة السجائر ليطَّلع على النقش الذي قرأه قبل ساعات فوجده قد تغير، وقرأ الكلمات التي حلَّتْ مكانه:

...مخلصي...عاد ولم يعد...

...حكم عليّ أن أبقى وحدي لأيام جدد...

...حلمي في مخلصي...كان على غير ما أعتقد...

...افتح القبر يا مخلصي أو لا تعد...

لم تعد أقدامه تقوَ على حمله، فجلس وأسند ظهره على حافة قبر آخر لينظر مشدوهًا إلى شاهد القبر العجيب، ولا يدري ماذا يفعل أو ما سبب وجوده في هذا المكان، وشعور قوي ينتابه بأنه تأخر، وقد فات الأوان على فتح القبر، وبينما هو في وجومه شعر بأيدي الأموات تمسك به من الخلف، فيسارع قلبه بالخفقان معتقدًا أنها قيامته وأن ملك الموت سيقبض روحه وتجمَّد خوفًا ولم يستطع الصراخ بل أغلق عينيه مستسلمًا للموت والأموات، وشعر بأن أحدهم سكب الماء على وجهه، ففتح عينيه ليرى بريق ضوء موجه نحوه، ويسمع صوتا يسأله باللغة العبرية:

- *ماذا تفعل هنا؟*

لم يستطع النطق من هول الصدمة، وبدأ يستعيد وعيه شيئا فشيئا ليجد نفسه جالسًا على كرسي في مركز شرطة طبريا وأن الأموات الذين تخيلهم ما هم إلا أفراد الشرطة... يقترب منه أحد ضباط الشرطة مُمسكًا فنجان قهوة ويناولها له ويجلس بجانبه ويقول:

- *اشرب القهوة...استيقظ يا...*

يحتسي القهوة، ويستمر التحقيق معه لساعات، وبعدها يسأل فارس الضابط:

- *هل القانون يمنع الجلوس في المقابر؟*

فقال الضابط:

- *حينما قبضتْ عليك الشُّرطة، وأغمي عليك اعتقدوا أنك أحد مدمني المخدرات، وبعد رؤيتهم لملابسك المُغبَّرة، والمعدات التي بحوزتك، أصبح الأمر أخطر من ذلك، فأنت الآن تواجه مشكلة كبيرة، سيتم فحص المقبرة في الصباح وإن وجدوا أي تخريب ستكون المتهم الوحيد، وإن لم يجدوا ستوجه إليك تهمة تدنيس مقبرة يهودية ومحاولة تخريبها، وعقوبتها ليست هيِّنة.*

أذهله كلام الضابط، وأقلقته الورطة التي وقع فيها.

مرت (48) ساعة ووجهت له تهمة محاولة تدنيس مقبرة يهودية وتخريبها، وأطلق سراحه بكفالة مالية لحين المحاكمة، وعاد إلى البيت وهو يفكر في هذا القدر الغريب الذي تقوده إليه هذه المرأة الغامضة ساكنة القبور حاملة الجماجم؛ تظهر من المجهول وتختفي إليه.

في حضن الجبل فوق إحدى الصخور التي لا تظللها الأشجار ولا يحجبها حاجب، تقف شابة عارية تدور حول نفسها وتراقص أشعة الشمس، ومن بين الأشجار تطل منتقبة تسارع في خطوها لاهثةً لتبلغ الصخرة، وتحمل بيدها قطعة قماش سوداء وتصرخ في العارية:

- *ماذا تفعلين يا ياسمين!؟*

تدوِّي ضحكات ياسمين في سخريةٍ ولا تتوقف عن الدوران حول نفسها وتقول:

- *أعرض جسدي على الشمس لعلها تخبرني إن كنتُ جميلة، وأستمتع قليلا بأشعتها الحارقة.*
- *هل جننتِ! ألا تخشين أن يراك أحد؟*
- *ربما أردت أن يراني أحد، لا تخافي لا يوجد أحد قريب منا، وإن حدث ما يرعبك ورآني شخص ما، سيفرك عينيه ليستيقظ من حلم.*
- *ارتدي العباءة بسرعة وعودي معي إلى الداخل.*
- *ولما لا تتعرين وتشاركينني هذه التجربة؟ صدقيني مع الشمس ستختبرين شعورًا جديدًا، ولا تخافي أمك بعيدة، ولن تعود قريبا.*
- *حبيبتي ياسمين أرجوكِ ارتدي العباءة من أجلي.*

ومع إلحاح وردة رضخت ياسمين وارتدت العباءة والخمار وجلست بجانبها واحتضنتها وأخذت تبكي بصوت مُتهدِّج:

- *لا أريد له الأذى يا وردة أتمنى لو أن هناك طريقة لأخرجه من هذه اللُّعبة.*
- *هذه ليست لُعبة، اتركي القدر يحدد مصيره.*
- *لا أستطيع يا وردة! هناك ما يشدني إليه بقوة!*
- *لقد وعدتني أنك لن تسمحي لمشاعرك بالتورط معه، وألا تجلبي لنفسك الأذى، لِمَ حنثت بوعدك؟! وبدأت في البكاء.*

ياسمين تحتضن وردة وتقول بلهجةٍ حازمة:

- *لن أتورط أكثر من ذلك، سأذهب إليه اليوم وإن أصر على رؤيتي لن أعارض وسأترك القدر يحدد مصيره.*

حلَّ المساء ومازال فارس شارد الذهن يفكر فيما حدث، ولم يوقظه إلا الرنين المتقطع لجرس الباب الخارجي الذي توجه إليه أخوه علاء.

لحظات ووقف علاء أمام فارس وقال في سخرية:

- *امرأة غريبة في ملابس عجيبة ترغب في رؤيتك.*

رمقه بنظرة تعجب:

- *ماذا تقصد؟*

فرد علاء:

- *مقنعةٌ تسأل عنك.*

قفز فارس وقفز قلبه معه نحو الباب وهاتف في أعماقه يجزم بأنها ياسمين، وحينما رآها وأراد أن يمطرها بعشراتِ الأسئلة لولا إدراكه أن أخاه الأصغر على مقربةٍ منه، فحاول أن يخفي ارتباكه، وقال:

- *تفضلي.*

دخلتْ ياسمين البيت وعلاء يتابع كل خطوة تخطوها بفضول واستغراب، وجلستْ على أريكة في صالة البيت، وأشار فارس لأخيه كي يتركهما طالبًا منه اعداد القهوة، وأخذ يتفحصها، وبصوت هادئ قال:

- *كيف حالك يا ياسمين؟*
- *أنا بخير، كيف حالك يا فارس؟ أين اختفيت منذ يومين؟*

رمقها بنظرة حادة:

- *كنت في رحلة إلى جزر القمر.*
- *وأين جزر القمر هذه؟ ولماذا لم تصحبني معك؟*
- *في حجز شرطة طبريا يا ياسمين.*
- *وماذا كنت تفعل في الحجز؟*
- *اسألي نفسك ماذا كنت أفعل؟*
- *وما علاقتي بذلك!*
- *مسكينةٌ أنتِ! لا علاقة لك بأي شيء! لا القبور ولا الجماجم وحتى المنقوش على شاهد القبر لا علاقة لك به!*
- *هل سنعود إلى الكلام عن القبورِ ثانيةً! ألا تملُّ هذا الهُراء!*
- *بسببك كدتُ أدخل السجن لسنوات طويلة والله وحده أعلم بما سيحدث لي.*
- *وما ذنبي! أكلُّ هذا لأني تأخرتُ عليك، اعلم أن الأمر لم يكن بيدي وإلا لما تأخرت.*
- *وفقًا للمنقوش على شاهد القبر، أنا الذي تأخر ولستِ أنت.*
- *فارس لماذا تصرٌّ على أن تحدثني عن القبور؟*

- *ألا تسكنين هذا المكان؟ ألم تذهبي إلى هناك وتتركيني أنتظرك ساعات حتى جننتُ ودخلتُ المقبرة، ولو أسعفني الوقت لفتحتُ القبر ودخلت السجن سنوات.*
- *ماذا تقصد؟ وما لي وهذا الجنون الذي تتحدث عنه! حينما تركتُك ذهبت لمقابلة أختي، وتأخرت عنك رغمًا عني، وإن واصلت حديثك بهذه الطريقة أنصحك أن تذهب إلى طبيب نفسي؛ لأنك تحلم كثيرًا وترى أشياء لا وجود لها إلا في خيالك.*
- *حقًا، في خيالي أطاردك بين القبور.*
- *إن كان ارتدائي الخمار قد أصابك بالجنون سأخلعه.*

فقال لها متحديا:

- *هيا افعلي ذلك.*
- *سأخلع الخمار يا فارس إن كان سيخرجك من جنونك.*
- *ها أنا انتظر.*

قالت باستياء:

- *إذًا أنت مُصِر على...*
- *مُصِرٌ وأنتظر...*
- *ولكن إن فعلت هذا فلن تراني إلى الأبد.*
- *ألاَّ أراكِ خيرٌ من أن أراكِ ولا أراكِ.*

قاطعته قائلة:

- *جمالي ليس من هذا الزمان، وإن رأيتني الآن ستندم طيلة حياتك، أنصحك للمرة الأخيرة أن تصبر حتى يحين وقته.*
- *لا يهمني، هيا اكشفي عن وجهك الآن.*

- *آهٍ لو علمت عدد السنوات التي قضيتها في انتظار قدومك لاخترتَ ألا تراني، وربما إلى الأبد.*
- *لا أريد أن أعلم شيئًا، فقط أريد أن أراكِ وأنهي هذه اللُّعبة.*

فقالت بصوتٍ شجي:

- *آهٍ يا مُخلِّصي، لو كنت تعلم ما تخفيه لك الأيام لما عجَّلت بنهايتك ونهايتي.*
- *اسمعي يا شاعرة القبور والجماجم، لن تؤثري عليّ بكلامك هذا، إما أن تخلعي هذا الخمار وإما...*
- *وإما ماذا؟*
- *سأمزقه بيدي، وأخرجك منه بالقوة.*

قهقهت بأعلى صوتها، وقالت:

- *لو كنت قادرًا لفعلتَها من قبل، هيَّا افعلها الآن ووفر الوقت عليَّ وعلى نفسك...هيا، هل أنت خائف؟ تحرك، كن رجلاً وافعلها.*

ثارتْ ثورته، واقترب منها، ودويُّ ضحكاتها لا يتوقف وكأنها تدفعه ليفعل.

- *هيَّا.*

خطوة واحدة تفصله عنها ويقف مُتسمرًا لا يتحرك. فتستفزه أكثر:

- *لا تكن جبانًا هل أنت خائف مما قد تراه خلف الخمار؟*

يعود إلى الوراء عدة خطوات وعيناه متسمرتان على ياسمين ومازالت تضحك، يجلس مسترخيًا على الأريكة شارد الذهن مسلوب الإرادة، ومازال مُحدقًا، ويدخل علاء حاملاً القهوة وإذا بفارس يحدق في الفراغ، فيقول: فارس، ماذا أصابك؟! أين المرأة الغامضة؟ فيمَ تحدق؟

فرك عينيه وجال في أنحاء الغرفة وسأل أخاه:

- *أين اختفت؟ وأين ذهبت؟ وكيف خرجت؟*

- *تسألني كيف خرجتْ! لابد أنها خرجتْ من الباب.*

انتفض فارس مسرعا ولم يأبه بأخيه الذي مازال يحدثه، واستقل السيارة وانطلق يشتم ويلعن ياسمين بكل ألفاظ الشتم واللعن التي تواردت على خاطره، دار في الشوارع حتى هدأت ثورته، وانزوى بسيارته وبدأ يستعيد الأحداث منذ دخولها حتى لحظة وقوفه، ولكنه لم يستطيع أن يتذكر ماذا رأى، أو لماذا تراجع!

يشعر بمرارة الهزيمة والعجز ويتمنى أن يقابلها لحظة واحدة لينفث فيها غضبه، وتخيلها أمامه فقال:

- *اذهبي إلى الجحيم وإياكِ أن تحاولي رؤيتي أو تسمعيني صوتكِ، لا أريد أن أعرفك ولا يهمني مَنْ تكونين، لستِ أكثر من عاهرة مريضة مجنونة تعشق القبور والجماجم، تختبئين خلف قناع أسود لتخفي خلفه قباحة تثير الاشمئزاز، وربما تكونين ممسوخة في صورة خنزير بري نتن الرائحة! وأطلق لخياله العنان.*

لم تظهر ياسمين، ولم يفرغ فارس غضبه ومرت عشرة أيام أيقن بعدها أنها اختفت ولن تعود، ولكنه تمنى عودتها، وقطع وعدًا على نفسه أن يسيطر على غضبه حتى يتمكن من الكشف عن أسرار هذه اللعبة، وأن يجاريها في لُعبتها حتى النهاية.

في اليوم السابع عشر رنَّ جرس الهاتف وقفز من مكانه لشعوره القوي بأنها هيَ، ورفع السماعة فإذا بها تقول:

- *فارس، إن كنت تريد معرفة المزيد أنتظرك غدًا في حيفا بعد مغيب الشمس، لا تتأخر.*
- *ولكن أين في حيفا؟*
- *تعرف المكان جيدًا.*

وأغلقت خط الهاتف.

<u>1900...الشام...حورية الذهب...</u>

- *"كنت أسير بقطيع الغنم قاصدًا مرعى الوادي حيث اتفقت مع ابن عمي أن ألتقيه هناك، وفي الطريق لمحتُ من بعيد مجموعة من الدرك عسكرت بالقرب من النبعة، فسلكتُ طريقا أخرى لألتف حولهم حتى لا أخسر إحدى النعاج كما يحدث كلَّما نصادفهم، وكانت طريقي تمر بالقرب من بئر العسقلة الذي اعتدنا أن نرعى بجانبه حينما كنا صغارا، قبل أن تجدب الأرض حوله.*

أخرجت قربة الماء لأروي ظمئي فوجدتها يابسة، وتذكرت أن البئر لابد أن تكون قريبة، فبحثتُ عنها حتى رأيتها، وقبل اقترابي شاهدت حورية عارية تخرج من أعماقها، وقد انسدل شعرها الطويل وأخفى القليل من جسدها، للوهلة الأولى خُيِّل إليَّ أني نائم في فراشي، فأمسكت بيدي وغرست ظفري في لحمي حتى أدميته؛ لعلني أستيقظ، ومازالت الحورية واقفة على حافة البئر التي خرجت منها، وأيقنتُ وقتها أنني لستُ حالمًا.

تنحنحت عدة مرات لتستر جسدها، وبعدما انتبهت لي ارتدت ثوبا من الحرير موشح بخيوط ذهبية، وبدأتُ أقترب منها بخطوات بطيئة كي لا أخيفها وما إن شعرت باقترابي حتى حملت بيدها جرةً ملآنةً بماء ذهبي براق، وغادرت البئر، اقتربت من البئر ونشلت الدلو وشربت ماء لم أذق مثيلاً له في حياتي."

واستمر الراعي يقص على أقاربه ومَنْ اجتمع حوله من الرعيان حكاية الحورية الحسناء، وعندما حاول البعض التشكيك في روايته، أقسم الأيمان على صحتها، ودافع الكثيرون عنه، وشهدوا بأنه لم يكذب يوما، وأخذ الآخرون يروون ما سمعوا من قصص عن الحورية الحسناء التي تسكن بئر العسقلة.

ولم تمر عدة أشهر حتى اشتُهرتْ قصة الراعي، وطافت بلاد الشام؛ تناقلتها الألسن:

- *(يحكى أن راعيا فقيرا طاهر القلب دعا الله بجانب بئر العسقلة فخرجت له حورية وملأت له الدلو ذهبًا)*

وحوَّل الرعاة طريقهم لتمر بالقرب من بئر العسقلة؛ لعل الحظ يبتسم لهم بمقابلة حورية البئر! ولم يتوقف الأمر عند الرعاة بل شمل الباحثين عن الذهب والهاربين من التجنيد في صفوف الجيش.

عالم جورجيت الهادئ الذي لم يعتد أن يعايشه إلا الذئاب والملائكة قد غزاه الفضوليون من كل مكان، وعسكروا بجانب البئر في انتظار ظهور الحورية، وجورجيت التي التزمتْ باختبائها عن العيون كما أمرتْها أمُّها أخذتْ تتسلل ليلاً لتجلب الماء خِلسةً حتى لا يراها أحد، وما كانتْ لتنام العيون التي تراقب البئر في لهفةٍ للقاء الحورية، وشوهدتْ أكثر من مرة بجوار البئر، وبالرغم من أنها لم تكن عارية ولم يظهر من حسنها شيئًا روى الكثيرون عن طيفها، ورسخت قصة الحورية في أذهان ناقليها ومستمعيها.

سمعتْ عائلةُ الشَّامي قصةَ الحورية، وعلى الرغم من أن بعضهم كذَّبها فقد أجمعوا على أنهم أحق الناس بالذهب وبئر العسقلة، فمزارعهم على مقربةٍ منه، وبيت سعادة الشامي الذي يسكنه عيسى يقتربُ منه كثيرًا لذا يتوجب أن يطردوا جميع الدخلاء، كما أن عائلة الدهري ترى أن لها نصيبًا أيضًا؛ فقد اعتادوا على دفن موتاهم بالقرب من المكان، وطرقهم متشعبةٌ في أرض العسقلة، وحدود أراضيهم متداخلةٌ فيها.

ما كان ليلتفت أحدٌ إلى الأرض القاحلة الجرداء، ولكنها أصبحتْ محطَّ الأنظارِ ومطمعًا للجميع، ولم تدرك جورجيت الصغيرة أنها قد تحولت إلى حورية العسقلة حارسة الكنوز المدفونة، ولم تمنعها العيون المترصدةُ المكانَ من أن تخرج لتضع الخبز والماء تحت السماء، لتطعم **الملائكة** وتسقيها.

1976...ملامسة الجسد...

وبعد غروب شمس اليوم التالي توجه فارس إلى حيفا؛ للقاء ذات الخمار، ولم يكن ليخمن مكان انتظارها، ليقينه بأنها ستكون في أقرب مقبرة، ولم تكن لهفته لمعرفة ما يساعده على حل اللغز، أكبر من لهفته واشتياقه لرؤيتها.

وصل ليجدها جالسة في شموخ على أحد القبور تضع ساقا فوق الأخرى وللمرة الأولى يظهر ساقها حتى ما فوق ركبتها بقليل.

اقترب منها فبادرته قائلة:

- *أيوجد في الدنيا أجمل من هذا المكان؟ تعال واجلس بجانبي.*

انصاع لطلبها وجلس كطفل صغير يتلقى الأوامر، وترك مسافة فاصلة بينهما، فاقتربت والتصقت به، ومالتْ برأسها على كتفه، وسألته:

- *أتدري منْ يرقد في القبر الذي تجلس فوقه؟*

فزَّ عن القبر سريعًا، فقالتْ:

- *لا تخف يا حبيبي، الأموات لا يخيفون أحدا.*

فقال فارس:

- *أجنية أنتِ أم شبح!*

ضحكت بأعلى صوتها وكشفت القفَّاز عن يدها اليمنى، وأمسكت يده بحنان وأدخلتها تحت العباءة حتى استقرت فوق فخذها، وقالت:

- *هل تشعر بحرارة جسدي؟ اترك الطاقة تتدفق إلى جسدك، لستُ جنية ولا شبحا، أنا إنسانة مثلك، ودمي من دمك، وجذوري من جذورك، وإن أردت أن تعرف حكايتي وحكايتك يجب أن تستحق ذلك، ومادام الخوف يسيطر عليك ستبقى تائها، القبور حجارة مرصوفة لم تقتل أحدا ولا تنطوي على ما يخيف،*

الشر والموت لا يسكن إلا نفوس البشر، والمعرفة تحتاج إلى شجاعة، وكلما واتتك الشجاعة لتفتح قبرًا ستجد فيه جوابًا لحكايةٍ أراد القدر أن نختمها.

وقفت ومالت على أذنه، وهمست وكأنها لا تريد أن يسمعها أحد:

- *ساعدني يا حبيبي، أعلم أنك تحبني، وأعلم أنني أحببتك، لا تخف، وافتح القبر لِتعرف الحقيقة.*

وسارت ياسمين بين القبور تاركةً فارس خلفها ثم التفتت إليه وقالت بصوت عالٍ حتى خُيِّل له أن الأموات ستستيقظ من قبورها:

- *إن أشرقت الشمس فاعلم أن الوقت قد فات!*

عيناه تلاحقها وهي تختفي في الظلام، تركته لترافقه كلماتها الدافئة وتمنحه شجاعة تساعده على طرد خوفه، فنظر إلى القبر وكلَّما فكَّر في فتحه عاد خوفه ليراوده، وبعدما تعاظم فضوله اقترب من القبر وحرك بلاطته حتى أزاحها، ونظر داخله فرأى غير ما كان يتوقعه؛ صندوقًا نُحاسيًا قديمًا ينبئ بأنه صُنع منذ سنوات طويلة... قفز داخل القبر وأخرج الصندوق.

1901...الشام...اكتشاف سر الحورية...

أسابيع وستبلغ الصغيرة جورجيت الرابعة عشرة من عمرها، ولم يترك جمالها الأسطوري المخفي عن الأعين أثرًا في روحها الطفولية البريئة، ولم تستطع أمها أن تدخل الخوف على قلبها بتكرارها رواية الحلم الذي تفترسها فيه الذئاب؛ لتمنعها من التسلل إلى المغاور والحفر المنتشرة للبحث عن جراء الذئاب لتطعمها وتسقيها.

لقد وصلت مسامع الأم القصص التي دارت حول بئر العسقلة، وما كانت لتشك أن طفلتها الصغيرة هي صاحبة عشرات الألقاب؛ حارسة الكنوز، حورية العسقلة، الجنية الحسناء...

هوس عائلة الشامي بالكنوز دفعهم لمراقبة الأرض كي لا يغافلهم أحد ويسلب حقوقهم، وشاء القدر أن بعض فتيانهم أثناء مطاردتهم لذئب مروا أمام بيت الطين الذي يسكنه عيسى الشامي ولمحوا الحورية تسير نحوه.

انتبهت لوجودهم وحاولت أن تسرع الخطى لتدخل البيت ولكن أحدهم اعترض طريقها بحصانه وسألها:

- *من أنت؟*

فقالت:

- *أنا جورجيت.*

فسألها:

- *ابنة من أنت أيتها الفتاة؟*

فردت:

- *ابنة عيسى الشامي.*

يتبادلون النظرات في دهشة، ويتساءلون:

- *أكل هذا الجمال في عائلة الشامي ولا يعرفه أحد!*

وقال أحدهم وهو يعلو ظهر حصانه:

- *لا ينبغي لسائس الخيل أن ينجب مثل هذه!*

لم تفهم جورجيت قصده، تركوها وغادروا على عجل لإكمال رحله الصيد، لم يتحدثوا ولم يكترثوا، وكأن الجميع قد اتفق على تجاهل ما رأى، وكل منهما تمنى في قرارة نفسه أن ينسى البقية رؤية الفاتنة.

تركوها خلفهم ورحلوا في صمت، وعيناها تراقب رحيلهم وقلبها يدق ليتناغم مع أصوات حوافر الخيل، تشعر بخوف يعيد لها ذكرى حادثةِ الاعتداء على والدتها بجانب البيت، تركض وتوصد الباب بقوة، وتلقي رأسها فوق صدر والدها العاجز عن ضمها، وتبكي لدقائق، ثم تتذكر أنها لم تترك الماء لتشرب الملائكة.



1976...أسرار من الماضي...

حمل فارس الصندوق وسار متعرجًا بين القبور، يتلفت يمينا ويسارا خوفًا من أن يراه أحد، أو تقبض عليه أفراد من الشرطة، فمازال يواجه تهمة تدنيس المقابر في طبريا.

ضلَّ طريقه بين القبور ولم يعثر على مخرج، وبحث طويلا دونما جدوى، توقف ونظر حوله في كل اتجاه ولمَّا لم يتبين طريقه عزم على السير مُحافظًا على استقامته حتى يبلغ سور المقبرة ثم يقفز إلى الخارج، اصطحب خوفه وكلَّمَا اعتقد أنه قطع مئات الأمتار عاد إلى حيث بدأ وكأنه يدور في دائرة، توقف بعض الوقت يحدث نفسه:

- *يجب أن تكون هناك بداية ونهاية يبدو أن الخوف والقلق أفقداني تركيزي.*

كرر المحاولة مرة أخرى، ولم يلتفْ حول أي قبرٍ بل كان يقفز فوق ما يعترض طريقه من القبور، ولكنه عاد ثانيةً إلى حيث بدأ.

أيقن أنه وقع في مصيدة، وتذكر كلام ياسمين عندما أخبرته أنها ستفتح له قبرًا، فدبَّ الذعر في قلبه وراح يشتم نفسه:

- *ما أغباني! لقد فتحت قبري بيدي! هل يعقل أنني ميت ولن أخرج من هذه المقبرة؟!*

استمر في هذيانه، يسأل ويجيب:

- *لا أنا لن أموت! إنني لستُ ميتًا! لقد فقدتُ طريقي! والأموات لا يخرجون من المقابر، وربما أنا مجرد روح ميت! جسدي مدفون وروحي طليقة، ولكنها لن تجد طريق الخروج من المقبرة؛ لأنه غير مسموح للأرواح أن تغادر عالم الأموات! يا إلهي! سأصاب بالجنون يا إلهي ارحمني؛ إن كنتُ ميتا أعلمني وإن كنتُ حيًا أخرجني من محنتي! وسار ناحيةَ القبر الذي فتحه وفي داخله خوف قاتل من أن يجد جسده ملحودًا في القبر، وحينها سيتأكد من كونه روحًا تطوف حول القبر الذي يحتضن جثتها.*

اقترب من القبر، ونظر داخله في حذر، تفحصه بعناية ولم يجد شيئا، هز رأسه ساخرًا من نفسه متمتمًا:

- *الحمد لله أنا لستُ مدفونًا ممَّا يعني أنني لستُ ميتًا! لستُ ميتًا، لكنني جننتُ وطار عقلي على أية حال! نعم لقد جننت! مجنونٌ أنا... مجنووووون!! مجنونٌ حي خيرٌ من عاقلٍ ميت.*

نظر إلى شاهد القبر لعله يجد نقشًا يرشده!

نفض الغبار وأزاح بعض الطين الذي يواري جزءا منه، وقرأ:

...في كل قبر سر ولكل سر قبر...

...إذا خرج السر من القبر سار...

...وإن كشف القبر عن السر انهار...

...فتعال في العتمة لتكون سري...

...أو اهرب من خيط نور قادم وأغلقني...

تذكر آخر ما قالته ياسمين قبل مغادرتها المقبرة: (إنْ أشرقت الشمس فاعلم أن الوقت قد فات.)

أغلق القبر بسرعة وحمل الصندوق وركض مسرعا وما هي إلا عدة أمتار حتى وجد نفسه خارج المقبرة وكان قرص الشمس بازغًا... تنفس الصعداء وأيقن أنه قضى ساعات طويلة داخل المقبرة، ولمَّا بلغ سيارته ألقى بجسده على المقعد وأدار المحرك، وانطلق ليبتعد عن المكان.

اطمأن بعدما ترك مسافاتٍ شاسعةٍ تفصله عن المقبرة... تتثاقل جفناه ويجاهد ليفتح عينيه وتلوح في المرآة كتلةٌ من السواد تجثم على المقعد الخلفي، فينتفض جسده ويلتفت ليجد ياسمين تقول وهي تتثاءب:

- *صباح الخير حبيبي.*

وبسرعة البرق انتقلت من المقعد الخلفي إلى جواره لتكمل حديثها في كسل:

- *لماذا تأخرت يا فارس؟ لقد انتظرتك حتى غلبني النعاس.*

توقف بجانب الطريق، وقال لها:

- *تعرفين سبب تأخري جيدًا.*
- *وما أدراني! لربما أعجبك المكان فبقيتَ جالسا.*
- *أنت الشيطان نفسه؛ الشيطان الذي نراه في الأفلام! وما حدث لي في المقبرة لا يستطيع أن يصنعه سوى الشياطين.*
- *الأفضل لك ألا تشاهد الكثير من الأفلام حفاظًا على صحتك وسلامة عقلك، والآن أخبرني بما جرى؟ فأنا لم أفهم شيئا!*
- *تعرفين أن أبواب المقبرة اختفت جميعها! أتريدين أن أفقد صوابي؟ أغويتيني بفتح قبر في حيفا، ومازلتُ أعاني مشكلة قبر طبريا! تطوفين بي بين القبور وأتبعك مسلوب الإرادة، لابد من أنك ساحرة من الجن، لن تدخل إنسيةٌ المقابر ليلا وتفعل ما تفعلينه! أنتِ شيطانة وجميع ما رأيته منك منذ التقيتك يُذهب العقل، ماذا تريدين مني؟ أخبريني، إن كنت تسعين لفقدان عقلي، فقد فقدته، لقد جُننت.*

ما قاله استفزها وأثار حفيظتها، فقالت:

- *فيما يخص فقدان عقلك، فهو أمر حتمي لا شك فيه، ولكن لم يحن الأوان بَعد، وإن كنت تعتقد أنني شيطانة، فأنا أجمل وأروع شيطانة في حياتك، والشياطين التي تتحدث عنها تعلموا في مدرسة أجدادك، والشياطين لا تنجب ملائكةً يا حبيبي، وستتعرف أصلك الراقي عمَّا قريب، والآن علينا الرحيل؛ فقد تأخرتُ كثيرًا.*

سار يشق طريقه مسرعا إلى مدينة الناصرة، وعشرات الأسئلة تدور في رأسه، ولمَّا أدركت ياسمين التعب الشديد الذي ألمَّ به طلبت منه التوقف جانبًا والترجل من السيارة.

فسألها:

- *ولِمَ التوقف؟*

أوقف السيارة وترجلتْ ذات الخمار وفتحتْ الباب المجاور له، ثم قالت:

- *انزل ولا تخف يا حبيبي.*

ترجل من السيارة وجلس في مكانها كما طلبتْ، وجلستْ خلف المقود، وبالرغم من حيرته وذهوله، لم يتفوه بكلمة، إنما ابتسم معجبًا بالطريقة اللبقة التي تصرفت بها.

أدارت محرك السيارة وقادتها ببراعة فائقة، وسألها فارس:

- *كيف تتمكنين من الرؤية من خلف هذا الخمار الأسود؟!*

ردت:

- *مَنْ تعوَّدْ على العتمة يستطع أن يرى خلالها، مِن وراء الخمار أستطيع رؤية الناس على حقيقتها، عندما تصل البيت افتح الصندوق وانظر ما فيه.*

شعر بأنه مجرد أداة في هذه اللعبة يتلقى ويتحرك وفق خطط ترسمها ياسمين، وثار على نفسه لانقياده لها وقال:

- *من هذه اللحظة سأضع حدًا لهذه القصة، لن أفتح الصندوق، وسأقتل فضولي ولا أريد أن أعلم ما يحتويه.*

- *كيفما تشاء حبيبي، ولكن (اسأل أمك كيف حَبلِتْ بك)؟*

تزامن استغراب فارس من قول ياسمين مع توقف السيارة أمام بيته، فأمرته ياسمين بالذهاب ليستريح، وقالت:

- *إذا أردتَ أن تعرف المزيد فلتبحث بنفسك.*

ترجَّل من السيارة، ودخل البيت تائهًا ليتذكر سيارته التي نسيها وقادتها ياسمين إلى جهة مجهولة.

1901...الشام...مطاردة الحورية...

عادتْ أمُّ جورجيت إلى البيت قبيل الغروب بعد يوم شاق قضته في تنظيف حظائر البقر لأحد أقارب زوجها، وعندما قاربتْ الوصولَ شاهدتْ رمزي ابن سعادة الشامي جالسًا، وقد ربط حصانه في شُباك البيت.

ذكرياتٌ ممقوتةٌ أصابتْها بالتقزز؛ فهو مِمَّنْ استغلوا جسدها وآذوها في الماضي القريب، شكَّت للحظات بأنه قادم من أجلها وراحتْ تفكر في طريقة تمكنها من الهرب من مرافقته وهي تعلم أنها إن رفضت ستدفع وعائلتها ثمن هذا الرفض.

اقتربت منه وسألته عن حاجته، فأخبرها أنه كان في انتظارها، ولم يشأ دخول البيت إلا في وجودها، فعجز عقلها عن تفسير سر هذا التهذيب الذي يزين حديث هذا القذر.

دارتْ بها الأرض عندما أخبرها أنه جاء خاطبا ابنتها جورجيت، فأمسكت بحجر برز من الجدار ليعينها على الصمود وعدم السقوط على الأرض، وجفَّ حلقُها وانعقد لسانُها، ولم يسعها إلا أن تتخيل أنها تحمل فأسًا تهوي به على رأسه لتشطره نصفين.

لاحظ رمزي دوختها فأمسك بها وفور ملامسته لها تقيأت على الأرض بشدة، وجورجيت تراقب ما يحدث من خلال أحد الثقوب التي تتخلل الباب الخشبي البالي، وخرجت مسرعة:

- *ماما ماما ماما*

اتكأتْ الأم على كتف ابنتها، وأمسكتْ جورجيت بيدها وأدخلتها البيت وأحكمتْ غلق الباب، وبقي رمزي بالخارج في انتظار الجواب، لم يشعر بالوحدة، فقد انضمَّ إليه أحد رفقاء رحلة الصيد، ولم تمر دقائق على وصول الأول حتى وصل الثاني والثالث والرابع، واكتمل بالخامس.

سباق شبيه بمطاردة الذئب، من سيصل أولاً؟ الصمت الذي ساد في ظهيرة اليوم تحول إلى صخبٍ بعد الغروب؛ أجواء من الشعور بالخيانة والغدر سادت بينهم.

بادر رمزي وقال:

- *لقد سبقتكم وخطبتها.*

صرخ آخر:

- *ستكون لي ولو سأُقتلُ دونها.*

وآخر:

- *سأقتلها ولن تكون لغيري.*

وتعالت الأصوات ووقع شجار بين الأصدقاء، لتمتلأ صدورهم بالكراهية من أجل الفوز بالصغيرة.

تحتضن جورجيت أمها التي لم تتوقف عن البكاء، وتسألها:

- *ماما ، ماذا يحدثُ؟ وعلام تبكين؟*

وبدأت تبكي لبكاء أمها ولم تدرِ ما السبب.

هدأت ثورةُ الطامعين، وغادر الجميع بعد اتفاقهم على الاحتكام لأصحاب الرأي من كبار السن، ولم ينتظر المتنازعون حلول الصبح وأيقظوا مَنْ يحكم بينهم، وأقر المُحكَّمون بأن رمزي يستحقها لسبقه إلى خطبتها، ولمَّا لم يبدِ أحدهم الاستعداد للتنازل عن امتلاكها ضمر كلٌّ منهم الشر لرفاقه.

ولم تمضِ أيامٌ حتى انتشر الخبر، ودفع الفضولُ الكثيرين إلى رؤية ابنة سائس الخيل، وأصبح اسم جورجيت حكايةَ الشام بأسرها، وتوافد إلى بيتها العشرات لطلب يدها بالرغم من شيوع خبر خطبتها لأكثر من شخص، وعلى رأسهم رمزي سعادة.

وفُتحت أبواب الكرم، وأبدى البعضُ استعدادهم لتحمل نفقات علاج عيسى الشامي، ولكن أم جورجيت أصرتْ على الرفض؛ لأنها تعلم أن الثمن هو أغلى ما تمتلك؛ وما كان للأغنياء أن يصفحوا عن الفقراء إن رفضوا إحسانهم أو نسبهم، وعاد شبح الجوع ليطل برأسه من جديد .

ازداد عدد المُتكالبين على الفوز بجسد الصغيرة، واستفحل ليشمل عائلاتٍ ودياناتٍ مختلفة، وأمام رفض أم جورجيت بات الجميع يخطط لإذلالها وإخضاعها.

لم تعد تستطيع الأم مغادرة البيت للعمل خوفًا على جورجيت، وعجزتْ عن الرحيل بزوجها العاجز وصغيرتها التي يهدد البعض بقتلها لحسم ذلك الصراع.

وبالرغم من وجوه الشر التي تترصد رؤية جورجيت إلا أنها لم تنسَ أن تضع بعضَ كسراتِ الخبز والقليل من الماء للملائكة، وتعتذر لهم قائلةً:

– *إنها كسراتُ خبز جافة، فسامحوني؛ فلم يدخل بيتُنا طعامٌ منذ وقوفِ الغرباء ببابه.*



1976...اكتشاف جسد...

فارس ينظر إلى الصندوق وابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيه: "اسأل أمك كيف حَبِلتْ بك!"

- *ماذا تريد أن تزرع في رأسي هذه الشيطانة؟ وأي سر يحويه هذا الصندوق الصدئ؟ سأجاريها بهذه اللعبة حتى النهاية ولكن هذه المرة سأسن قوانين جديدة.*

وضحك قائلا:

- *هل ستعيد السيارة، أم...؟*

*****

وصلت ياسمين إلى بيت الجبل المخفي حيث تنتظرها وردة، وخلعت العباءة والخمار، ورمقت وردة بنظرة حادة، وأشاحت وردة بعينيها وقالت:

- *ما بك لِمَ ترمقينني بهذه النظرة الخبيثة؟*

ابتسمت ياسمين:

- *أنا الخبيثة أم أنت! ألم نتفق ألا تقومي بمراقبتي؟*

لم تستطعْ وردة أن تنكر فأحنت رأسها خجلاً، وقالت:

- *أردت أن أطمئن عليك وأحميك من كل خطر.*

ضحكت قائلة:

- *أي خطر يمكن أن يعترضني أيتها الغبية لتحميني منه؟*

تشير وردة بإصبعها إلى ياسمين:

- *أنت الخطر، وكان لابد أن أحميكِ من جنونك، واليوم قد كشفتي عن ساقك فماذا ستفعلين غدًا؟*

ضحكت بأعلى صوتها وقالت:

- *اليوم حينما شعرت بمراقبتك لي، خطر ببالي أن أتعرى وأرقص لأغيظك.*
- *أعلم أنك مجنونة ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بتصرفاتك الحمقاء.*

تواصلُ ياسمين الضحك:

- *وماذا كنتِ ستفعلين لو أنني تعريت هناك؟ هل كنت ستظهرين فجأة؟ ولو حدث ذلك، فماذا كان سيحدث للمسكين فارس؟*

ضحكت وردة قائلة:

- *لن تفعلينها؟*
- *لا أعلم إن كنت سأفعلها، ولكن اطمئني؛ فأنا لم أفكر في مضاجعته، إنما أردت أن أشعره بالاطمئنان، وأساعده على طرد خوفه، وأفكاره المجنونة تجاهي.*
- *هل رأى ما بداخل الصندوق؟*
- *فارس يحاول أن يتمرد كعادته، لم يفتح الصندوق ولا أعتقد أنه سيفعلها خلال الأيام القادمة، لهذا قلت له (اسأل امك كيف حبلت بك)*

لم تتمالك وردة نفسها من الضحك، ثم قالت:

- *والآن ما الخطوة القادمة؟*
- *سأتركه يرتاح اليوم، وغدًا سأنقله إلى الخطوة القادمة.*
- *نجاح فارس في إخراج الصندوق المقبور كان بمساعدتكِ وأنت تعرفين أنه خداع، وأخشى أن تكتشف أمي أنك تمنعين فارس كلَّ مرة من رفع الخمار لرؤيتك.*
- *لن تكتشف أمك شيئًا ما دمت تساعدينني، وأنا لا أخادع، إنما أريد أن أمنحه الوقت ليتغلب على خوفه.*

- *لا يهمني حبُّكِ له، ولكني أخشى ألا يستحق، وفي النهاية أنت مَنْ سيدفع الثمن.*

أمسكت ياسمين عن الكلام وأطرقت برأسها إلى صدرها، وأرختْ عينيها إلى الأرض، ثم قالت:

- *أعلم ذلك، إنه أحمق، ولا يريد أن يفهم كم أعاني من أجل حمايته من مصير مشؤوم! وكل ما أخشاه أن ينجح في إثارة غضبي.*

*****

أخبرها فارس في عناد بأنه سيقتل فضوله، ولن يفتح الصندوق ليغيظها، ولكنه لم يمتنع عن التفكير بما قد يحويه صندوق نُحاسي قديم مدفون في قبر، ولكن ما جاهده في يقظته لم يتركه في نومه؛ فقد غلبه النعاس وغطَّ في نومٍ عميق وحلم بأنه فتح الصندوق، وعندما دخلتْ أمه الغرفة أسرع بإخفائه عنها.

تنادي عليه والدته:

- *فارس...فارس...فارس.*

يستيقظ من حلمه ويجدها تقف فوق رأسه؛ لتخبره بأن هناك امرأة على الهاتف تصرُّ على محادثته لأمر هام جدا، قام فارس وأمسك سماعة الهاتف... سأحضر في منتصف الليل لاصطحابك، انتظرني عند باب المنزل، وأغلقت الخط دون استئذان أو وداع، ومرت ساعات ثقيلة يفكر فارس خلالها في المكان الذي ستصحبه إليه هذه المجنونة في منتصف الليل هذه المرة، وأية مقبرة سيزورانها؟ وأية مفاجئة تنتظره؟! صفير سيارة متقطع ومتواصل في صخب لم يعهده سكان الشارع من قبل، وفزع النائمون؛ منهم مَن أطلَّ برأسه مِن النافذة، ومنهم مَن خرج لاستطلاع الأمر، وحظُّ فارس التعِس منعه من الانتباه حتى دق أحد الجيران بابه ولمَّا خرج إليه رمقه الجار بنظرات مريبة، وقال:

- *(في وحدة مجنونة بدها اياك)*

احمَّر وجه فارس خجلاً، وهرع إلى السيارة، وعيون الناس تراقبه، ومازال الضجيج مُستمرًا.

فتح باب السيارة وصرخ في ياسمين:

- *أمجنونةٌ أنتِ؟!*

ردت ياسمين ضاحكة:

- *أنت مَنْ تسبب في هذا، لقد أخبرتك أن تنتظرني عند الباب، ولمَّا لم أجدك اضطررت لذلك حتى لا نتأخر.*

فقال لها:

- *يا لكِ من مجنونة! كيف لي أن أسمع صفير سيارة بعيدة عن البيت!*

قالت:

- *لقد مررت أمام بيتك ولم أجدك مُنتظرًا فابتعدت قليلاً وبدأت أطلق الصفير لربما أطل من يذهب لمناداتك، وبصراحة، لقد وجدتُ الشارع هادئًا ومملاً، فأردت أن أمنحه جرعة من الحيوية، ما حدث ليس بالشيء الكبير، قليلٌ من الإزعاج فقط.*

ابتسم وحثَّها على مغادرة المكان ليهرب من عيون المراقبين، ويتخلص من هذا الجو المشحون بالتساؤلات.

- *هل تحدث معك أحد ؟*
- *قل ومن لم يتحدث، اقترب الجميع من السيارة وسألوا: ماذا يحدث هنا؟ وانا فتحت النافذة وقلت لهم مساء النور، أنا ياسمين خطيبة فارس، وأنتظره كي نخرج ونسهر سويًا، ودعوتهم للمجيء معنا.*
- *سأغدو عِلْكةً في أفواه الناس، والآن، أية مقبرة تنوين أخذي إليها لنسهر سويا احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة؟*

- *لقد أعددتُ لك مفاجأة جميلة.*
- *مفاجأةٌ مجنونةٌ، لا شك.*
- *سآخذك لزيارة عمَّتك ربيحة.*
- *ليس لدي عمَّة تُدعى ربيحة!*
- *لديك عمَّة واسمها ربيحة.*

ضحك فارس:

- *أهي من اختراعك؟*
- *عندما نصل سترى.*
- *أخطأتِ يا حبيبتي، ليس لدي عمة اسمها ربيحة.*
- *اسمعني جيدًا، أخبرتُك بأنه لديك، وهذا يعني أنه لديك.*

ساخرا:

- *وأين تسكن عمتي هذه؟!*

في سخرية:

- *رافقني وستعرف أين تسكن عمتك، وإن واتتك الشجاعة ستحصل على الكثير من الأجوبة.*

علم فارس أنه إن طاوعها هذه المرة أيضا، فلابد أن تصحبه إلى أحد المقابر المهجورة لتمارس معه لعبة الخوف التي احترفتها، فقال:

- *لا رغبة لي اليوم في مجاراتك بهذه اللعبة الشاذة، تعالي لنختبر لعبة أخرى لعلها تطيب لك.*

ابتسمت ياسمين:

- *ولِمَ لا إن كانت لعبتك أكثر إثارة من معرفة حقيقتك؟*

فارس:

- *ما رأيك أن نثمل معا هذه الليلة؟ ودعي جسدك يختبر حقيقة أخرى أشد إثارة من غبار المقابر.*
- *سأتركك تكتشف جسدي كما تشاء ولكن بعدما تزيل الغبار عن حقيقة عائلتك القذرة.*
- *السر الوحيد الذي يثيرني هو الجسد الذي يخفيه هذا الخمار، وبعدها كل الأسرار ستكشف عن نفسها.*
- *جسدي يحتاج إلى مكتشف جريء لا يخاف عتمة الليل وبعض النقوش على حجارة، سأنتظرك حينما تكون أهلاً لاكتشافي، عد إلى أحضان أمك، ولا تنسى أن تسألها كيف حَبِلتْ فيك؟*

ترجلت ذات الخمار من السيارة وتلاشت في عتمة الليل.



1901...الشام...أصدقاء الشر...

تغمض جورجيت عينيها في محاولة لطرد ذكريات لقائها بالشر قبل سنوات حيث كانت تلعب خارج البيت، ولمحت من بعيد رجلاً يعتلي صهوة حصانه قاصدًا بيتهم ليقف ببابه ولحق به آخر، ودخل الأول وسحب أمها إلى الخارج وتناوبا الاعتداء عليها ثم رحلا وتركاها تنتحبُ وتتحسسُ بكفيها جسدها البادي من ثيابها الممزق.

لم تعِ جورجيت ما حدث لأمها، ولم تعتقد الأم أن صغيرتها شاهدت تلك البشاعة المُنكرة، وبقي الأمر مدفونًا في أعماقِها ليؤرقها ولا تستطيع البوح... الشامي والدهري وجهان لعملة واحدة؛ قِيل فيهما:

- *(الدهري قَتل، والشامي دَفن، ومَنْ يشهد مع الشامي إلا الدهري)*

العلاقة التي تربط العائلتين وثيقة، تشاركا معا سرقة القوافل وبيعها قبل أن يصبحا مسئولَين عن تسيير القوافل التجارية، ويجنيا منافع جمة من اتحاد العائلتين.

سالم الدهري وسعادة الشامي تربيا معا كأخوين، وحافظا على العلاقة التاريخية التي تجمع العائلتين بعد موت عم سعادة ووالد سالم ولم يرحما من تجرأ على اعتراضهما، حتى أن رجال الدين من العائلتين لم يسلموا من شرهما، خلافات كثيرة كانت تنشب أحيانا بين بعض أفراد العائلتين ويتم تطويقها على الرغم من اختلاف الديانتين.

عثمان شقيق سالم الأصغر، ورفيق رمزي بن سعادة، ولطالما انغمس الاثنان في الكثير من جرائم القتل والاغتصاب؛ فهما شريكان في كل رذيلة وجناية، وممَّا ذاع حولهما من الأقاويل ضربُهما عيسى الشامي وتسببهما في عجزه، وأن الخيل بريئة من هذا الجرم، وعندما سمع عثمان الدهري كغيره عن جمال جورجيت استاء من إخفاء رمزي أمرها عنه، وتوجه بنفسه ليراها وما كان في حاجة إلى عنوان، فقد زار هذا البيت مع صديقه قبل عشر سنوات...اقترب من البيت برفقة أحد أبناء عمومته وأخذ ينادي لتخرج

إليه الجميلة التي فتنت عقل صديقه رمزي، وخرجت أم جورجيت وسألته عن حاجته، فقال:

- *أريد رؤية ابنتك.*

فردت عليه:

- *لقد رحلت مع أقاربها فجرا.*

فقهقه عثمان قائلاً:

- *أي أقارب لكم!*

ترجَّل عن حصانه وتقدم نحو باب البيت فسدت الأم طريقه بجسدها؛ لتمنعه من الدخول فطرحها أرضًا، ولمَّا نهضت مسرعة وانكفأتْ عليه لتمسك به صفعها، وأشار إلى قريبه أن امسك بها ولا تتركها تبرح مكانها.

ولج البيت باحثًا عن الصغيرة فإذا بها تمسك بيد أبيها وترتعد خوفا...نظر إليها وأطال، ولمَّا ذُهب بعقله من جمالها أمسك بيدها وسحبها، وعينا أبيها العاجز تراقبانها، ولمَّا أبت الانقياد له حملها وخرج بها ورماها على ظهر حصانه، وهو يتمتم:

- *كيف عثر عليك الشامي الحقير! واللهِ لن تكوني لأحد غيري!*

وأمها تصرخ وتلتمس العطف من قلب قاس:

- *أتوسل إليك، اتركها وخذني بدلاً منها، وأنا طوع بنانك افعل بي ما تشاء.*

بصق في وجهها واعتلى صهوة حصانه، وضمَّ جورجيت إلى صدره القاسي، وحثَّ الحصان على السير، وإذا بصديقه العزيز رمزي يعترضه ويسد طريقه:

- *ماذا تفعل يا عثمان؟*

عثمان:

- *أفعل ما أردت أن تفعله.*

رمزي غاضبا:

- *أنزلِها يا عثمان.*

رد عليه:

- *إمَّا أن أظفر بها وحدي، وإمَّا أن نتشاركها كما تعودنا، أنسيت!*

بدا الشر في عيونهما، فانزوى قريب عثمان جانبًا، واقترب رمزي وجذب جورجيت بعنف فأفلتها من حضن عثمان وأسقطها على الأرض، فهرعتْ إلى أمها، وارتمت في حضنها باكية، وثارت ثورة عثمان، وقفز من فوق حصانه ودفع رمزي دفعةً طرحته أرضًا، وتعارك الاثنان حتى سربلهما تراب الأرض، وبعدما أُنهكت قواهما انتصبا واقفَين يتخطفان أنفاسهما، ويتبادلان نظرات الشر، وفجأةً يسحب رمزي مسدسه ويطلق عدة رصاصات أصابت إحداها رأس عثمان فسقط على الأرض مُضرَّجًا بدمائه، فهرع إليه قريبه وحمله على ظهر حصانه وأسرع إلى الدهريين، ولمَّا أفاق رمزي على مصيبةٍ كبرى هرب خائفًا يترقب.

تجلس أمُّ جورجيت على الأرض تعفِّر وجهها ورأسها بالتراب، وجورجيت تنظر إلى أمها، ثم تنظر إلى الإناء الفخاري، ولم يتبق فيه إلا القليل من الماء المُختلط ببعض قطرات الدم، فتدخل البيت وتعود حاملةً الدَّلو، ثم تنظر في إناء الفخار وتصب الماء ليمتزج بالدماء، ويصطبغ باللون الأحمر، ثم ترفع رأسها إلى السماء وكأنها أرادت أن تقول للملائكة:

- *لا بأس إن تذوقتم طعم الدماء.*

1976...أسرار الأم...

كلمات ياسمين لم تفارق ليل فارس، نام واستيقظ ومازال صداها يتردد: "اسأل أمك كيف حبلت لتنجبك" أخذ يحدث نفسه ويضحك:

- *هل تعتقد هذه الشيطانة أنني سأتوجه إلى أمي لأسألها: مَنْ أبي؟*

يضحك ويضحك ويتمتم:

- *ما الهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا السؤال الغبي؟ لعبتها مثيرة، ولكن لن أسمح لها أن تزج بأمي فيها أبدا، لن أسأل ولن أزج بأمي في هذه اللعبة ولو في خيالي، ولكن لِمَ لا أحسم هذا الأمر وأسألها؟ كيف لي ذلك دون أن تشعر بأني أهدف لشيء ما؟ نعم يجب أن أحسم الأمر وأخرجه من رأسي.*

تحيَّن فارس الفرصة وبدأ حديثه مع والدته:

- *أمي الحبيبة، احكي لي كيف تزوجت أبي؟*

الأم ضاحكة:

- *ما الذي خطر ببالك لتطرح هذا السؤال؟*

فيمزج ما يقوله بالقليل من السخرية حتى لا تشعر أنه يسعى لشيء:

- *أحببتُ معرفة تاريخي العريق.*

لم تتردد والدته وكأنها كانت في انتظار سؤاله عن قصة حبها وبدأت تفيض شجنًا وحبًا وشوقًا للأيام الخوالي، فشعر بأنه قد تورط في ذكريات والدته وإن لم ينهِ حديثها فلن يغادر البيت فقاطعها قائلاً:

- *احكِ لي كيف مات؟*

امتعضت لسؤاله الذي أخرجها من مشاعر الحب إلى قسوة الفقد والفراق:

- *ولم سؤالك هذا يا فارس؟*
- *أحببتُ أن أعرف ملابسات وفاة أبي.*

- *كمن يموت مَنْ حانت ساعته.*
- *ألم يصاحب موته شيء غريب؟*

هزت رأسها يمينًا ويسارًا.

- *وكيف مات جدّي؟*
- *ماذا دهاك اليوم يا فارس؟*
- *أحب أن تروي لي كلَّ شيء عن عائلتي.*

كان فارس ملحاحًا في طلبه فجلست والدته تروي له حكاية العائلة من الجد إلى الأب، أعمام وعمات، يسأل وتجيب، ولكنه لم يجد شيئا يستطيع من خلاله الربط بين ما روته والدته وهراء ذات الخمار.

تنفس الصعداء بعدما أيقن أن سؤالها لم يكن له غرض سوى استفزازه.

توجه إلى مكتبه وأمر السكرتيرة أن تنكر وجوده عمن يسأل عنه، وألا تحول له أية مكالمة فأجابته بقولها:

- *سمعًا وطاعةً، ولكن هناك امرأة في الداخل تنتظرك.*

نظر إليها، وسأل:

- *من تكون؟*

فابتسمت السكرتيرة وأخذت ترسم بيديها في الهواء شكل خيمة، فأدرك من أسلوبها الساخر أنها تتحدث عن الخمار، ودخل هادئًا حتى لا يثير ريبة السكرتيرة، فرأى ياسمين تجلس على مكتبه، تقرأ أوراقه وكأنها صاحبة المكتب، وكأنه ضيف لا تأبه بوجوده، فجلس على الكنبة وأخذ ينظر إليها مبتسمًا حتى رفعت رأسها وقالت في هدوء:

- *كيف حالك يا فارس؟ لماذا تأخرت ؟*
- *أنت مجنونة لا محالة.*
- *نعم أنا مجنونة، لماذا تأخرت؟*

- *لو كنت أدري أنك هنا لما تأخرت.*
- *حسنا، لا تكررها مجددا.*

ابتسم وعادت تعبث بأوراقه من جديد، ثم سألته:

- *كم لديك من النقود؟*

ضحك:

- *لماذا تسألين؟*

فقالت:

- *أجبني أولا.*
- *الحمد لله، منذ لقائك والخير ينهال عليّ، عليكِ بسؤالي: كم تبلغ ديونك حتى أستطيع إجابتك.*
- *أعرف أنك مديون، ولكن كم من المال يمكنك توفيره؟*
- *أتمنى أن أستطيع توفير وقود السيارة التي أركض بها لاهثًا وراءك.*
- *تستطيع أن تدبر 231 ألف دولار بسهولة ".*

سخر وقال:

- *بسهولة!*

فقالت:

- *نعم بسهولة قم ببيع السيارة، والبيت، ولدى والدتك عشرون ألف، ومع أخوك علاء خمسة وثلاثون ألف، والإسوار الذهبية التي تخبئها في الخزانة قيمتها ثلاثة آلاف، والفتاة التي بالخارج تحبك كثيرا وتستطيع توفير سبعة آلاف إضافية، وسامي ابن عمك يدين لك بألف وخمسمائة، وأثاث المكتب بعد الخسارة يقدّر بثلاثة آلاف، وأنت نسيت في بنطالك القديم ثلاثمائة شيكل،*

وهكذا يكون المجموع "231 ألف " تماما. إن بدأت اليوم سيكون معك كل المبلغ خلال أسبوع.

اندهش فارس لمعرفتها كل هذه التفاصيل الدقيقة وهو لا يلمُّ بجميعها، قال:

- *كيف تعرفين كل هذا؟*
- *أعرف كل ما أريد معرفته، هيَّا ابدأ في جمع المال.*

فضحك وقال ساخرا:

- *سمعًا وطاعةً، ولكن هناك مشكلة واحدة، عندما أبيع السيارة كيف سأوصلك إلى المقابر!*

وفي هدوء ردت عليه مبتسمة:

- *أمر بسيط؛ تستأجر سيارة أيها الذكي.*

فقال ولم يكف عن الضحك:

- *حسنًا، وبعد جمع هذا المبلغ هل سنقف بجانبه من أجل صورة تذكارية؟*
- *لا يا حبيبي، أنت ستجمع المال وانا سأقول لك فيما بعد ماذا تفعل به.*

ضحك وقال:

- *وهل تحبين أن أعطيكِ المبلغ بعد جمعه؟!*

ياسمين باستهزاء:

- *بكل تأكيد.*

هز رأسه:

- *ولكن حبيبتي، هذه لُعبتي أنا.*

باستهزاء قالت:

- *أعرف عملك القذر جيدا أنت والعاهرة الشقراء، وقررت أن امنعك عن الاحتيال على الناس.*

وجد فارس حديثها ممتعا، وأيضا فرصة متاحة ليسخر منها قليلا، فقال:

- *ولِمَ لا، ولكن ألا يجب أن أرى وجهك الجميل لأفقد عقلي أولاً، ثم أبدأ بجمع المال من أجلك؟*

باستهزاء:

- *أيعقل أنك قد نسيت بهذه السرعة ما جرى في بيتكم؟! وكيف كنت شجاعا!*

ضحك وهز رأسه:

- *لا أذكر أن هذا حدث يوما.*
- *هل نسيت ؟! حينما فتح لي علاء الباب وتركنا سويا، وعندها تواقحت وأزلت الخمار عن وجهي.*
- *بل أذكر جيدًا ذلك اليوم الذي اختفيتِ فيه بعدما سحرتيني فلم أقوَ على فعل شيء.*
- *جمالي سحرك، لهذا احترس وكن حريصًا على عقلك.*
- *حفظت كل الكلام الذي تريدين قوله، وأؤكد لكِ أنني ما عدتُ في حاجةٍ لرؤية جمالك.*
- *أنت تتلهف شوقًا لرؤيتي.*
- *لا، لا أريد رؤيتك.*
- *لا تخادع نفسك يا حبيبي، فلن تستطيع النوم ولن تذوق طعم الراحة إلا بعد رؤيتي.*
- *لقد انتهى هذا الزمن، أمَّا اليوم فأنت في عيني مجرد فتاة ترتدي السواد، ولا يهمني إن كنتِ جميلة؛ فليس لدي الوقت لأتسلى مع فتاة مثلك، شكرًا حبيبتي، لقد انتهى وقتك، والآنَ عليك بالبحث عن شخص آخر أكثر مني فضولاً لكي يبيع بيته ويلهثُ خلفك.*

- *كثيرًا ما قلتَ هذا، ثم تغير رأيك.*
- *هذه المرة مختلفة عن سابقاتها، وأساليبك المتقلبة والمزاجية لن تفلح معي.*
- *إذًا لنخرج عن الرتابة قليلا، سأزيل الخمار لترى وجهي، وبعدها تتوقف عن تكرار كلماتك المملة، هل اتفقنا؟*

ومدت يدها على الخمار.

فقال في لهفة:

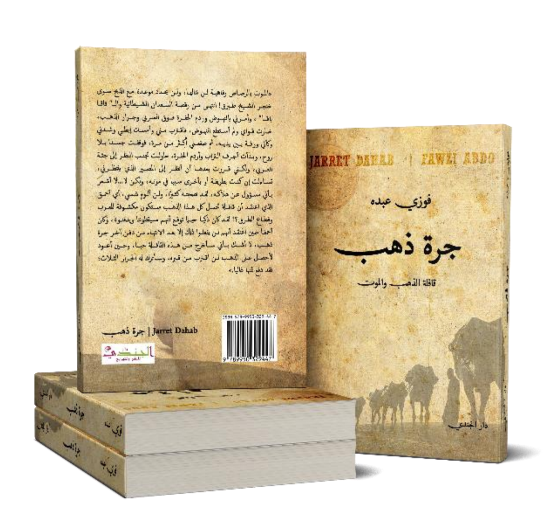
- *أوافق.*

ضحكت بأعلى صوتها:

- *عند عمتك ربيحة سأكون في انتظارك لتراني.*

وغادرت مسرعة كعادتها.





الرواية متوفرة pdf على الانترنت وبالإمكان تحميلها فورا

1901...الشام...العاهرة والثأر...

<<<اجتمعوا في منزل سالم الدهري>>>

- *عاهرة الشامي الصغيرة قتلت أخي عثمان، أقسم ليطؤها رجال الدهري صغيرا وكبيرا أمام أعين الشامي ليتذوقوا طعم المهانة والإذلال قبل أن أقتل خيرتهم.*

تهلل الحضور، وتحمسوا لما نطق به قائدهم الذي إن قال فعل.

<<<اجتمعوا في منزل سعادة الشامي>>>

اجتمعوا للتباحث في المصيبة التي جلبها لهم رمزي فقال سعادة:

- *من أي جحيم خرجت هذه العاهرة؟ وأية فتنة أشعلت؟ أقسم لأقدمنَّ جسدها الشيطاني لكل المجذومين كي يَطَؤُونَها.*

انشغل الناس بمقتل عثمان الدهري والمصائب التي سيجرها خلفه، وتدخل الوجهاء لمنع اشتعال حرب توشك أن تحصد أرواح الكثيرين من الدهري والشامي، وعرضت عائلة الشامي أموالاً طائلة وأراضي وأملاكًا، ديةً لمقتل ابن الدهري؛ فرفضت عائلة الدهري في بادئ الأمر، وحدثت صدامات تسببت في بعض إصابات من الطرفين، وأدرك الجميع أن هذه الحرب ستدمر كل ما بناه العائلتان، وستستنزف جُل ممتلكاتهم. فنفى سعادة الشامي ابنه رمزي إلى أبعد بقاع العالم، ومن ثَمَّ وافق على إهدار دمه، وسالم في قرارة نفسه لا يرغب في مثل هذه الحرب التي سيكون فيها أكثر الخاسرين، وما كان لشقيقه عثمان أن يستحق كل هذا فاشترط على الشامي أن يقدموا له ابنتهم جورجيت، وبرر ذلك لعائلته بأنه يهدف لإذلال الشامي وإهانتهم، وليكون صاحب الكلمة العليا.

فطن سعادة إلى ما يسعى إليه سالم، ولو طلب سالم جورجيت وأمها وأبوها سرًا لقدمهم لصديقه وشريكه، ولكن أن يطالب بفتاة تحمل اسم الشامي علنًا فيه إهانة لمكانة

العائلة، إضافةً إلى أن تسليمها يمس عقيدتهم؛ لأنه يعني موافقتهم أن تتحول الفتاة من ديانة الشامي إلى ديانة الدهري.

سالم لا يريد حربًا، ولو أن أخاه الأصغر عثمان سقط عن حصانه ومات لثمل تلك الليلة ولم يذرف عليه دمعة واحدة، ولكن مكانته بين قومه توجب عليه أن يخرج سعيا للثأر، وخسارته لصديقه سعادة والتحالف التجاري مع عائلة الشامي يحزناه إلى حد البكاء، وإهدار دم رمزي يكاد يكون كافيا وسيرسل مَنْ يسعى خلفه ليقتله، وقد علم الجميع أنه سيفعل، ولكنه لم يرد سوى جورجيت، حلم كل شامي.

سعادة الشامي لديه من الأبناء الكثير ورمزي كان أحقرهم، وكم تمنى لو أن الأرض بلعته وغيَّبته! أمَّا خسارته لصديقه وحليفه سالم تحزنه، وهو يعلم جيدًا أن صديقه قد عَلِق بموقفٍ حرجٍ بين قومه، وجورجيت هي أبخس ثمن يمكن تقديمه لولا إهانة اسم العائلة. وتداولوا فيما بينهم: لا مفر من تسليم قاتل ابن الدهري، أو أن يقتل الدهري أحد شباب الشامي ثأرًا لابنهم، ولن يضحي أحدهم بابنه، ونتيجة الأمر أن الحرب لن تنتهي إلا بمقتل الكثيرين من العائلتين.

أصرَّ سالم على طلبه الغير مألوف والمنافي للعادات والتقاليد عند كل أديان بلاد الشام قاطبة، وبدأ سعادة يبحث عن مخرجٍ له ولعائلته من هذا المأزق، فاجتمع مع الوجهاء من العائلته.

سعادة:

- *أرى أن نعطي هذه العاهرة للدهري وننهي هذه الحرب قبل أن تبدأ.*

وجيهٌ شامي:

- *إن فعلنا، ستعيبنا كل عائلات الشام.*

وجيهٌ آخر:

- *نرسل من يقتلها ونستريح.*

سعادة:

- *إنْ لم يحصل عليها سالم سيضطر إلى الثأر.*

أحد الوجهاء:

- *أتستحق هذه العاهرة أن يموت أحد شبابنا من أجلها!*

سعادة:

- *لو كان هذا الأحمق على ديانتنا لزوجناه منها واسترحنا.*

ولمعت فكرة في رأس الخبيث صاحب الشعر الأحمر؛ مِن وجهاء عائلة الشامي:

- *ومن قال أن هذه العاهرة من عائلة الشامي؟*

أحدهم:

- *الكل يعرف أنها ابنة عيسى الشامي، وحتى لو كانت من أطراف العائلة فهي تحمل اسم الشامي.*

سعادة بغضب:

- *لولا تهافتكم جميعا على خطبتها لما سمع بها أحد.*

الخبيث الأحمر:

- *أمها عاهرة واشتهرت بممارسة السحر منذ زمن، ولم تكن من عائلتنا، ومارست البغاء وتبرأنا منها قبل ميلاد ابنتها، وهي تسكن أرض العسقلة وهذه الأرض الجرداء للدهري وليست لنا، وربما كان والد ابنتها من الدهري.*

ارتسمت ابتسامة صفراء على شفتي سعادة وانفرجت أساريره لما قاله الخبيث، ووجد فيه الحل، وأكد على قوله:

- *نعم هي الحقيقة، والكل يشهد عليها، ويقر بها.*

واتفق الجميع على أن جورجيت ابنة سائس الخيل لا علاقة لها بالعائلة، وأنها كانت في حماية العائلة حتى مارست والدتها البغاء فتبرؤوا منها.

نقل الوجهاء من العائلات الأخرى لعائلة الدهري أن سالمًا يستطيع أن يتزوج جورجيت متى شاء، وأن هذا الأمر لا يعني عائلة الشامي في شيء، فردَّت عائلة الدهري:

- *ومَنْ قال أن سالمًا سيتزوجها! لم نطلبها زوجة، بل طلبناها جارية نفعل بها ما نشاء.*

فوجِيء الوجهاء والوسطاء بردِّ عائلة الدَّهري وفوجئوا حينما ردَّت عائلة الشامي بأن هذا الأمر لا يعنيهم؛ فجورجيت لا تعني عائلة الشامي في شيء.

الوسطاء والوجهاء من العائلات الأخرى وجدوا إهانة تمسهم في أمر جورجيت؛ لأن الزَّواج لتقوية الأواصر بين العائلات، أمَّا عن تسليم فتاة لعائلة أخرى بلا زواج لم يحدث في كبار العائلات ولا في أحقرها، واعتبر الوجهاء تسليم جورجيت لعائلة الدهري إهانة لهم إذا لم تكن زوجة.

استمرت المفاوضات أياما أخرى واستطاع أحد الوجهاء أن يقنع سالم الدهري بعمل عقد زواج شكلي حفاظًا لماء وجه الوجهاء من كبار العائلات؛ فوافق الدهري على ذلك وحُدد موعد مجلس الصلح بين عائلتي الشامي والدهري.

وصل الخبر إلى أم جورجيت التي كاد يطير عقلها، وفكرت في الهرب بابنتها بعيدا، وقفت بجانب فراش زوجها العاجز حائرة، فقد توجب عليها أخذ القرار سريعا؛ إما أن تبقى لتعتني به، وإما أن تنقذ ابنتها.

ما كان عيسى قادرا على النطق، ولكن عيناه قالتا:

- *أنقذي صغيرتنا.*

الأم تجمع القليل من الأغراض التي يمكن حملها، ووقفت جورجيت تنظر إلى الوعاء الفخاري الممتلئ نصفه بالماء، وترفع رأسها للسماء لتقول للملائكة:

- *لو لم يكن أبي عاجزا لطلبت منه الاعتناء بكم حتى أعود.*

وبدأت الأم تركض وخلفها ابنتها للخروج من أرض العسقلة.

1976...الأحلام السعيدة...

- *محتالة، مجنونة، شيطانة وقبيحة، تبًا لها!*

يتمتم فارس ويتذكر لقاءه الأول بياسمين، والصدف الغريبة التي حدثت ولم يأبه بها، وتذكر الكلمات المنقوشة على القبور، وكيف كانت تتغير، ودقائق أموره التي يجهلها وتعرفها هذه المرأة الغريبة، ليجد نفسه أمام لغزٍ يزداد تعقيدًا مع كل لقاء بها.

خرج من غرفة مكتبه إلى الردهة، حيث تجلس السكرتيرة ليجدها تغط في نوم عميق، وبين يديها جمجمة صغيرة كتلك التي يراها دائما مع ياسمين.

سحب فارس الجمجمة الصغيرة من يد السكرتيرة بهدوء، ووضعها في أحد أدراج مكتبه ثم عاد وأيقظها من نومها، لتفتح عينيها وتنظر إليه وتبدأ بالضحك.

ويسألها فارس:

- *علامَ تضحكين؟*

أجابت:

- *لا أدرى كيف غلبني النعاس وحلمت بك حلما مضحكًا!*

فقال:

- *وما هو هذا الحلم؟*
- *لقد حلمت أننا تزوجنا وأصبح لدينا ولد وبنت، وسمَّينا الولد قبرًا والبنت جمجمةً!*

اقشعر بدن فارس ولكنه تظاهر بأنه يبتسم، وبدأت السكرتيرة تلتفت حولها وتبحث على الرفوف. فسألها فارس:

- *عمَّ تبحثين؟*
- *أبحث عن الحجر.*
- *عن أي حجر تتحدثين؟!*

- *المنحوتة التي كانت معي أين اختفت؟*

ونظرت إلى فارس وبدأت بالصراخ:

- *لابد أنك أخذتها، أعدها إليّ، هيا أعِدها، إنها لي، لن تسرقها، أعِدها.*

أمسك فارس بيدها، وحاول تهدئة غضبها، ولكنه لم يفلح، فقد ازداد غضبها وعلا صراخها، فدخل مكتبه على عجلٍ، وأعاد إليها الجمجمة، أمسكتها وكأن روحها رُدَّتْ إليها، فهدأتْ وبدأتْ تضحك وتقبِّل الجمجمة، وفارس ينظر إليها وهو على يقين بأن ياسمين وراء ما يحدث وسألها:

- *من أين حصلت على هذه الجمجمة؟*

فقالت:

- *إنها من صديقتي، إنها تجلب الأحلام السعيدة، وتحقق الأماني، وكل ما عليَّ أن أمسكها وأنظر في عينيها وأتمنى أي شيء ليحدث فورا، ألا تصدقني انظر ماذا سأفعل الآن سأتمنى، ماذا أتمنى؟ سأتمنى أن تتصل أمي بي، الآن انظر.*

رن جرس الهاتف، فقالت:

- *ارفع السماعة يا فارس لتتأكد أنها أمي، أنا تمنيت ذلك، ارفع السماعة لتتأكد أنها هي فما أتمناه يحدث فورا.*

رفع فارس السماعة ووضعها على أذنه لترد عليه ياسمين قائلة:

- *صدّقها يا حبيبي، كلُّ ما تتمناه يتحقق.*
- *أقسم بالله أنك شيطانة.*
- *اسأل أمك كيف حبلت فيك؟...وافتح الصندوق.*

السكرتيرة تنظر إلى فارس وتهز رأسها:

- *أصدقت الآن إنها أمي أليس كذلك؟ إنها أمي، لقد تمنيت ذلك، وها هو قد حدث، أتريد أن أتمنى لك شيئا، اطلب شيئا.*

اصطحبها فارس في سيارته وفي الطريق اختطف الجمجمة من يدها وألقاها من نافذة السيارة وقال لها:

- *كفاك أمنيات لهذا اليوم.*

السكرتيرة تبكي وترجوه أن يتوقف لتستعيد الجمجمة. ولكنه لم يأبه لرجائها، ولم تتوقف عن رجائه باكيةً حتى فقدت الأمل، وهدأت وكأن شيئًا لم يكن.

توقف فارس أمام منزلها فخرجت من السيارة وبعدما ابتعدت عدة خطوات عادت إلى نافذة السيارة ومالت بوجهها قائلة:

- *فارس، أعتذر عمَّا حدث، ولستُ منزعجة من رميك المنحوتة، أتعرف لماذا؟*

فابتسم فارس وقال:

- *لماذا؟*

فقالت:

- *لدي واحدة أخرى.*

وأخرجت من جيبها جمجمة صغيرة أخرى، وقالت:

- *إلى اللقاء!*

ابتسم وتمتم قائلا:

- *أي سحرٍ هذا الذي تملكه ياسمين لتسيطر على الناس بهذه الطريقة!*

المكان...

رغم ضحكاتها إلا أنها تشعر بحزن عميق، وما كانت لتنجح في إخفائه عن وردة.

- *ما بك يا حبيبتي؟*
- *لا شيء يا وردة.*
- *ألا تسير الأمور معه كما خططت لها؟*
- *ما عدت قادرة على إقناعه، يرفض مرافقتي لزيارة ربيحة، وحتى الآن لم يفتح الصندوق، ومازال مصرا على رؤية وجهي و بدأت أشك في حبه لي.*
- *ربما أوهمت نفسك بأنه يحبك، وحان الوقت لمواجهة الواقع، والتوقف عن الانجراف خلف أوهام قلبك، وأنت أكثر العارفين بأن معظم كلمات الحب التي نطق بها كانت كاذبة.*
- *لا يهمني ما ينطق به من أكاذيب، لقد أحسست بحب دافئ ينبعث من أعماقه.*
- *حبيبتي لم يعد أمامك وقت، ستعود أمي قريبا وستكتشف خداعك، اتركي القدر يحدد مصيره ودعيه يكشف عما يخفيه الخمار.*
- *لا...لا لن أسمح له بأن يواجه مصير الآخرين، فارس مختلف، أقسم على أنه لا يشبههم في شيء.*
- *ماذا ستفعلين؟ ستعود والدتنا خلال أيام من زيارة قبر جدتي، ليس لديك وقت يا ياسمين.*
- *سأحاول مرة أخرى، سأستغل كُلَّ دقيقة لأقنعه بأن يرافقني إلى الجبل دونما يراني، ربما ينجح يا وردة.*

أدرك فارس أن تجاهل ياسمين هو الحل الوحيد الذي يحرره من لُعبتها، وأن التَّخطيط لعدة عمليات احتيال ستشغل وقته، والشقراء تملك من الألعاب المثيرة ما يغنيه عن

مغامرات ياسمين الغامضة، صفقته الأخيرة مع المقاول نضجت ولم يتبقَ سوى قطف الثمار والمبلغ الذي سيربحه هذه المرة أضعاف ما كان يربحه في عمليات الاحتيال الصغيرة.

لم يتفاجأ عند رؤيته ذات الخمار تقف على قارعة الطريق وتشير ليتوقف كعادتها، ولكنها تفاجأت هذه المرة بأنه مرَّ بجوارها وأبطأ سرعته ولوَّح بيده مُبتسمًا، وسار يغمره الشعور بالنصر والتفوق وأخذ يتغنى بنفسه:

- *أنا فارس يا عاهرة القبور، حان الوقت كي تعرفيني جيدًا، وتركضي خلفي مثل غيرك؛ لقد تحررتُ من سحرك.*

ما كانت ياسمين لتتخيل أن يهينها فارس هكذا، ولمَّا استشاطت غضبا لم تتوقف عن شتمه وشتم نفسها:

- *إنه لا يستحق، محتال... كاذب... جبان...!! أوهمت نفسي بأني أحبه، وصدَّقت وهمًا صنعته! عيناه تفيضان خداعا وكذبا! لماذا أشفق عليه! سأدع القدر يقرر مصيره، سأعود وأتركه لوردة، هي أذكى مني ولا تسمح لعواطفها أن تؤثر فيها، ولكن وردة قد تغضب وتؤذيه، لابد أن آخذه إلى الجبل ليزور ربيحة، وعندها قد تسير الأمور بطريقة أخرى ربما سيفهم ولن أضطر لإزالة الخمار.*

1901...الشام... المرتزقة...

اجتماع سرِّي في بيت سعادة الشامي لا يحضره من عائلة الشامي إلا الخبيث الأحمر.
يصل الاجتماع رجل في الأربعينيات يدعى ريناس، ويتهامس الثلاثة ساعة كاملة، ويودعهما ريناس بعدما قبض مبلغًا من المال، ثم خرج وقد بدتْ علامات عدم الرضا على محياه، ولم يكن بسبب المال، وإنما لطبيعة المهمة التي وكِّل بها.
ريناس يقود مجموعة من المرتزقة عربا وأتراكا، واعتاد سعادة منذ سنوات على استئجاره للتخلص من بعض الأشخاص، ما كان ليتردد ريناس يوما في القتل بإشارة من سعادة أو سالم مادام سيقبض الثمن، ولكن هذه المرة كانت مهمته غريبة، ولم يعتد على مثلها، طُلب منه أن يحرص على وصول جورجيت لبيت سالم، وألا يسمح لأي عائق يحول دون ذلك، وأن يتخلص من الصوت الوحيد الذي قد يزعجه يوما ما وهو أم جورجيت.
لم يكن سعادة عاجزا عن فعل ذلك بنفسه، ولكنه كان حريصا ألا يرتبط اسم الشامي بهذه القضية، ومن البيت الفخم إلى بيت الطين خرج ريناس على رأس عصابته لينجز مهمته. وصلوا فلم يجدوا لهما أثرًا، ولم يكن من الصعب التأكد من هروبهما، كما لم يكن من الصعب اقتفاء الأثر.
ساعات من الركض إلى المجهول وسط الوديان والسهول أعيت الصغيرة وأمها، فجلستا لالتقاط أنفاسهما.
حلَّ الليل، وغفت جورجيت في حضن أمها، التي بقيت مستيقظة لتحرسها، وللمرة الأولى في حياتها تأنسُ لسماعها عواء الذئاب، وتشعر بالأمان، أشرقت الشمس قبل أوانها وفتحت جورجيت عينيها لتجد أمها نائمة وهي تتكئ بظهرها على صخرة... أيقظتها واستعدا لاستكمال رحلة المجهول.

ظلالٌ تحيط بهما حاجبةً نور الشمس؛ دارت بهما مجموعةٌ من الخيل فوق صهواتها رجال مسلَّحون، تفحصتهم عيون الأم، ليسوا من عائلة الشامي فسألتهم:

- *من أنتم؟*

وعلمت أنهم مرتزقة الشامي. وعلا الصراخ والبكاء والنحيب وتلقت الأم عشرات الصفعات والركلات، وحملوا الصغيرة غصبًا، وتركوا الأم ملقاة في الوادي بين الحياة والموت.

نظرتْ جورجيت إلى أمها المضرَّجة بدمائها، ورفعت عينيها إلى السماء، وناجتْ الملائكة الجالسين فوق الغيوم:

- *احرسوها من أجلي، فكم حرصت على إطعامكم.*

تمزقت ملابس جورجيت البالية من جرَّاء مقاومة الرحيل وترك الأم فانكشف بعض مفاتن جسدها، وبدأت عيون المرتزقة الجائعة تفترسها وتتساءل:

- *مَنْ سيعرف إن تذوقناها؟*

قال أحدهم:

- *لنستريح قليلا.*

ريناس:

- *أعلم ما تفكر فيه، أخرِج هذه الفكرة من رأسك.*
- *لن يعرف أحد.*
- *مهمتنا تسليمها سالمة إلى الدهري.*
- *تبا للشامي والدهري! دعنا نستمتع قليلا.*
- *لن أسمح لك بذلك.*

مرتزق آخر يكلم القائد:

- *ألا يشبع غرورك أن تصل إليها قبل سالم؟*

- *ومنذ متى نعتدي على أعراض الناس؟*
- *لقد سفكنا الكثير من الدماء من أجل سالم وسعادة.*
- *هتك الأعراض أمر آخر، هيَّا وأخرجوا هذه الأفكار من رؤوسكم اللعينة.*
- *لن نمانع إن كنت أولنا.*

ريناس ينظر إلى جورجيت:

- *تبًا لكم! إنها طفلة.*
- *أهذا جسد طفلة؟*
- *انظر في عينيها أيها الأحمق.*
- *لم أرَ أشهى منها، ولن أفوتها.*

يترجَّل عن فرسه ويقترب من الفرس الآخر ويمد يده لينزلها، ريناس يوجه بندقيته إلى رأسه مهددًا:

- *أقسم إن خطوت خطوة أخرى سأرديك قتيلا.*

عيناه تلمع وهو ينظر إلى ريناس ومازال ممسكا بيد جورجيت وتنطلق رصاصة من مرتزق آخر، ويسقط ريناس عن فرسه.

المرتزق:

- *أحسنت يا كرار كان يجب أن يموت منذ زمن.*

الرغبة في جسد جورجيت لم تنتظر دفن جثة ريناس، تناوبوا عليها ولم يزدهم صراخها وتوجعها إلا قسوةً ووحشية، والتقت عيناها بأقبح وجوه الشر هذه المرة، فنظرتْ إلى السماء بحثًا عن الملائكة الجائعة لتشكو لها أوجاعها.

1976...الشقراء والصدر الناهد...

في أحد المطاعم الفاخرة ينتظر فارس وصديقته الشقراء وصول المقاول لتوقيع عقد شراء آلاف الأمتار من حجر البناء، بعد استلام العينات وفحصها جيدًا ثم قبولها، وتظهر ياسمين فجأة تسير بخطى واثقة، وتسحب أحد المقاعد وتجلس في هدوء، ولا تشعر بارتياح فتقف وتقترب من مائدة قريبة من فارس والشقراء، وتجر مقعدًا آخر لتجلس وتنصب مرفقيها على المنضدة وتضع وجهها في راحة يدها، وتقول لفارس في غنج:

– *تأخرت عليك حبيبي.*

ارتبك فارس، فلم يتوقع رؤيتها في هذا المكان ولم يعتد على ظهورها في وجود الآخرين، والشقراء السعيدة صاحبة الصدر الناهد تجول بعينيها التي اتسعت من الاندهاش بين الكتلة السوداء وبين فارس في تساؤل صامت:

– *ماذا يحدث؟!*

تكسر الصمت وتشير بكف يدها تجاه ياسمين وتسأل فارس:

– *مَنْ هذه؟!*

ومازال فارس يحاول السيطرة على ما حلَّ به ويجيبها:

– *إنها ذات الخمار التي أخبرتك عنها.*

الشقراء تتمتم:

– *بسم الله، أهذه جنية القبور!*

فلكزها فارس بكفه من تحت المائدة لتصمت، ولكنها لم تستجب، واسترسلت قائلةً:

– *ولكنك أخبرتني بأنه لا يراها سواك، وأنها لا تظهر إلا ليلاً.*

يضغط فارس بأصابعه على فخذها بقوة، ويرمقها بنظرات قوية تشير إلى ضرورة صمتها.

ياسمين تراقب الاثنين وحينما حلَّ الصمت قالت وهي تضحك في سخرية:

- *وماذا أخبرك عني أيضا؟*

أدركتْ الشّقراء أن فارس استخفَّ بها، ونسج لها قصصًا من الخيال، وما كانت لتستغرب هذا منه، فقالتْ متعمدة أن تستفز ياسمين:

- *سخافات تليق بكما ولا شيء يستحق أن أذكره، وهذا المكان لا يلائم ما ترتدينه، هيَّا ارحلي من هنا ولا تسببي لنا الحرج.*

ويحاول فارس ملاطفة الحوار قبل أن تصيب ياسمين إحدى نوبات الجنون التي اعتادها. ياسمين تضحك وكأن شيئا لم يحدث، وتلفظ الشقراء ألفاظا جارحة لإهانة ياسمين التي تجاهلتها وكأنها لا تسمع شيئا.

الشقراء بعد أن فشلت كل محاولاتها:

- *ألا تكشفين الخمار عن وجهك لنرى جمالك الساحر؟*

ياسمين ترد عليها في هدوء:

- *في مرة قادمة حبيبتي.*

وتنظر إلى فارس قائلةً:

- *اطلب من شقرائك أن تعود إلى البيت.*

تنظر الشقراء إلى فارس وتقول:

- *اطردها من هنا*

ياسمين تضحك بأعلى صوتها وتجذب عيون الجميع للمائدة. فتقول الشقراء:

- *هذه ضحكة عاهرة.*

فتخلع ياسمين غطاء يدها وتباغت الشقراء بإمساك معصمها، وتقول:

- *هذا يكفي، والآن اذهبي، وهذه ستكون آخر مرة ترين فيها خطيبي، اتفقنا؟*

تقف الشقراء وتعتذر في هدوء وتسير ناحية الباب الباب، وفارس يراقب مذهولا، ويعلم أن شقراءه قد تمادت كثيرا.

- *لا تنظر مثل المغفلين وتلفت نظر الموجودين في المطعم، ابتسم وكن طبيعيا، أتراني للمرة الأولى؟*

ابتسم وبصوت منخفض قال:

- *صراحةً، لم أتوقع رؤيتك هنا وآمل لو يمكن تأجيل هذا اللقاء؛ فلدي موعد عمل.*

- *عملك يمكنك تأجيله، وليس في حياتك ما هو أهم مني، اتفقنا؟*

وفي تلك اللحظات اقترب من الطاولة شابان من أصدقاء فارس فاحمَّر وجهه، وتمنى لو أنهما لم يرياه حتى لا يسألاه عن علاقته بهذه المقنعة، ولكنهما جلسا على الطاولة الملاصقة لطاولة فارس.

وقال أحدهما:

- *مرحبا يا فارس، مرَّ وقت طويل دون رؤيتك، أين أنت؟ وكيف حالك؟*

وأدار وجهه ناحية ياسمين وابتسم قائلاً:

- *مرحبًا يااا...*

ابتسم فارس ابتسامة مصطنعة وقال:

- *ياسمين.*

وأشار بيده نحوهما وقال:

- *صديقان من حيفا.*

هزَّت ياسمين رأسها وقالت:

- *تشرفتُ بكما، وأعلم أنكما تستغربا ملابسي، ولكن لا حيلة لي في هذا، فارس خطيبي لا يريد أن يراني أحد غيره، وأنا لا أرغب في مخالفة أوامره.*

ازداد احمرار وجه فارس، وأمسك عن الكلام، وفي براعة وذكاء أرادت ياسمين أن تخرجه من هذه الموقف، أو قصدت ألا تسمح له بالرد، فوقفت وأمسكت بيده وقالت:

- *هيَّا بنا يا حبيبي، لقد تأخرنا على الحفل.*

وسحبته بقوة وسارت، والتفتت إلى صديقيه وأشارت بيدها قائلة:

- *إلى اللقاء يا صديقيّ خطيبي، ولا تنسيا محاسبة النادل؛ لأن فارس نسى حافظة نقوده.*

وسحبت فارس من يده وقبل أن تخرج من باب المطعم التفتت إلى النادل وقالت:

- *الحساب لدى الشابين على الطاولة.*

وخرجت إلي الشارع وفارس وكلٌّ جالس في المطعم مذهول يبتسم لظرافتها. سار فارس وهو لا يدري أيضحك أم يغضب، ولكن ما حدث أضحكه حقا.

وبدأتْ ياسمين ترشد فارس كعادتها إلى حيث تريد، ثم طلبت منه أن يتوقف بجانب طريق زراعي، وقالت:

- *أرجوك اصغ إليَّ جيدا، الوقت بدأ ينفد، وأخشى ألا أستطيع السيطرة على الأمور، ساعدني لأساعدك وأعدك بأنني سأشرح لك كلَّ ما يدور بخلدك قريبًا، ثق بي، سأنتظرك هنا قبيل منتصف ليل الغد.*

1901...الشام...الشر القائم...

حُملت جورجيت إلى عائلة الدهري، وهي لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها بعد، وفور وصولها أعلن سالم أمام الجميع أنها لن تكون له زوجة، وأعلن طلاقها على الملأ حتى لا يجد نفسه متورطا بما أقسم به وتعهد أمام العائلة مُسبقًا. وفُتح بيت العزاء، وعادتْ أواصر الود بين العائلتين وكأن شيئا لم يحدث.

جورجيت مازالت تبكي ولا تدري ماذا يحدث، ولماذا وكيف حدث؟ ولم تعلم أنها وعائلتها كانوا كبش الفداء للشامي والدهري.

أُرسلت جورجيت إلى بيت سالم الدهري حيث تسكن زوجته الثانية، وطُلب منها أن تُبقيها عندها حتى يفرغ سالم من العزاء، وحتى تلك اللحظة لم ير الدهري جورجيت، بل سمع عنها مثلما سمع الكثيرون ولم يروها. أمضتْ أيامًا في بيت زوجة سالم الثانية تبكي ليلَ نهارَ، وتتوسل إليها كي تعيدها إلى أمها قائلة:

- *أنا لم أفعل شيئًا، عليَّ الذهاب لإطعام والدي فهو لا يستطيع تناول الطعام وحده.*

ولم يكن بيد زوجة سالم شيء لتفعله، سوى أن تحضن هذه المسكينة وتبكي لبكائها وتقول:

- *أتمنى يا ابنتي أن يكون بوسعي شيء أفعله، ولو كان بمقدوري لأرجعتك لأهلك، ولكنك اليوم الزوجة الثالثة لسالم الدهري، وعلى ذمته، وأينما ذهبتِ سيلاحقك ويأت بكِ.*

فتساءلتْ جورجيت في صمت:

- *ماذا حدث لأمي؟ من سيعتني بأبي المريض؟ ومن سيطعم الملائكة؟*

قارب الليل على الانتصاف ومازال سالم واقفا يراقب مغادرة آخر المعزِّين، ولمَّا انتهى العزاء عاد إلى البيت ولا يشغل باله سوى لقاء الحورية التي سحرت عقول الناس بجمالها، صبر طوال أيام العزاء، ولم تنظرها عيناه، ورسم لها عشرات الصور في مخيلته، ولمَّا وصل البيت سأل زوجته عن جورجيت، فقالت:

- *إنها نائمة.*

ورجته أن يترفق بها فنظر إليها بازدراء وطلب منها مغادرة البيت... لم يصبر حتى يتناول الطعام الذي أعدته له، بل توجه إلى الغرفة؛ حيث تنام الصغيرة وفتح الباب، وخطا عدة خطوات ليرى جورجيت تحتضن وسادة وهي نائمةٌ على طرف السرير وأوشكت على السقوط، وكأنها قد شعرت بألا ينبغي لها النوم على هذا السرير، أو أنها أرادت أن تكون مستعدة لمغادرته في أية لحظة.

وقف سالم مذهولا، كل الصور التي رسمها في خياله عجزتْ عن وصف جمالها الأسطوري، لم يصدِّق أن ساكني الأرض يتمتعون بمثل هذا الجمال النادر، تتفحص عيناه جورجيت من رأسها إلى أخمص قدميها، ويقول:

- *إنها فعلا حورية! لابد أنها هربت من الجنة! كذبوا جميعا في وصفها.*

جلس بجوارها يلامس جسدها بكفه، ولسان حاله يقول:

- *مثل هذه الوليمة لا ينبغي التسرع بالتهامها.*

شعرت جورجيت بوجوده فتحت عينيها لترى قبيحا أشعث اللحية، ضخم الجثة، ذا أنف أفطس، وشعرٍ مجعد، وأسنان صفراء، تفوح منه رائحة عرقه النتن فحاولت أن تحرك جسدها لتبتعد عن السرير لكنه أمسك بيدها فنظرت إليه بعينيها البريئتين وقالت:

- *آسفة.*

لم يفهم، لم يعِ أنها اعتذرت لأنها نامت على سريره ولا تريد أن تغضبه، فقال لها:

- *لقد كذبوا جميعا في وصفك، فأنت أكثر جمالاً من وصفهم جميعًا.*

تجلس جورجيت صامتة، تضم الوسادة إلى صدرها وكأنها تحتمي بها، تحني رأسها ومازالت آثار الدموع في عينيها، لم تفهم ما قصده سالم ولم تعرف مَنْ يكون هذا الرجل الذي لم يتوقف عن ملامسة ظهرها والنظر إليها... تغمض عينيها وتتساءل، هل سيعذبها ويؤلمها مثلما فعل بها الغرباء بعدما آذوا أمها؟!

يتحسس جدائل شعرها الطويل واتقدت في عينيه نار شهوة ضبع جائع استفرد بحمل صغير، وبأصابعه أخذ يفك جدائل شعرها فسحبتها من يده، وقالت:

- *(لا يا عمو... ماما ستغضب مني)*

ابتسم سالم الدهري ابتسامة صفراء خبيثة ممزوجة بالشهوة وقال:

- *لا تخافي، لن تغضب أمك، كما أنك لابد أن ترسلي شعرك حتى تصيري عروسًا جميلة.*

فقالت:

- *ارجوك يا عم خذني لماما!*

يرد سالم وهو يكتم غيظه:

- *لا تخالفيني، وغدًا سأرجعك إلى أمك.*

صمتت جورجيت وأطرقتْ برأسها، وأرختْ عينيها إلى الأرض ظنًا منها أنها بهذه الطريقة ترضي سالم ليعيدها إلى أمها.

عاشت جورجيت حياتها مذ ولادتها معزولةً عن الدنيا لَمْ تعرف سوى والديها اللذين كانا مشغولِين عنها ليل نهار بالعمل الشاق من أجل لقمة العيش، ولم يكن لها أخ أو أخت، ولا صديقة أو صديق، ولم يشغلها سوى الاعتناء بجراء الذئاب والملائكة، كل هذا جعل جورجيت طفلةً بجسد ناضج، وقوام ممشوق، وجمال يبهر الناظرين.

ولم يكن لدى سالم الدهري من الإنسانية ليشعر أنه أمام فتاة بريئة لا تفقه من أمور الحياة شيئا، فاستمر بفك جدائل شعرها، ولم يكن ليتمالك نفسه ويجمح نار شهوته؛ مزق ثوبها، وأحكم قبضتيه على نهديها، وهي تصرخ من الألم وتقفز مشدوهة مذهولة لا تدري ماذا يحدث، تبكي ويلاحقها، ويمنعها خوفها التوقف فيشدها من شعرها، تقاومه فيمزق ما تبقى من ثوبها، تزداد عويلاً **فيصفعها على وجهها بقوة جنون الشهوة، وسقطتْ على الأرض ترمقه بنظرة بريئة.**

1976...الشر النائم...

قبيل منتصف الليل، ومازال فارس واقفا يراقب الطريق في انتظار ذات الخمار مرددًا:

- *سأحسم هذه اللعبة اليوم مهما كلفني الأمر، لن أخضع لسحرها، سأكتشف اليوم القباحة التي يخفيها الخمار، فور ظهورها سأنقض عليها وأمزق خمارها، لن أمنحها فرصةً لإلقاء سحرها عليَّ مثل كل مرة.*

تظهر ذاتُ الخِمار من بعيد، تمشي بخطى مُتثاقلة لا تتعجل الوصول، وتحدثه قبل وقوفها إلى جوارَه:

- *لِمَ تتقد عيناك شرًا؟*
- *إنها تتقد اشتياقا لك يا ياسمين.*
- *أرى اشتياقا من نوعٍ آخر في عينيك يا فارس.*
- *أي لعبة أعددتِ لي هذا اليوم يا ياسمين؟*
- *عيناك تقول أنك ترغب في لعبة ليلى والذئب.*
- *ولِمَ لا؟ ولكن مَن سيكون الذئب؟*
- *بريق عينيك ينبئني بأن الذئب الذي في أعماقك قد استيقظ يا فارس.*
- *ربما الخمار الذي ترتدينه هو ما يخفي ذئبا.*
- *كم أتمنى أن تكون مختلفا لتساعدني وتساعد نفسك! لم أطلب منك إلا الصبر والحب الصادق، ولكن عينيك اليوم تشبه عيون والدك وجدك.*
- *وأنا لم أطلب إلا أن أراكِ.*
- *هل أحببتني حقًا يا فارس؟*
- *لو لم أحبك لَمَا جاريتُك في لُعبتك المجنونة هذه، وأعتقد أن وقت انتهائها قد حان.*

- *اصبر يا فارس وساعدني لأخلِّص نفسي وأخلِّصك من هذه اللعنة المجنونة، لا أتمنى أن يصيبك مكروه.*
- *اليوم سأنهي هذه اللعبة بطريقتي أنا ولن أخضع لك.*
- *الخمار يخفي لعنة، ومن المُحال إغلاق أبواب الشر التي ستنفتح بإزالته، إن كانت هناك بذرة حب حقيقية قد نبتت في أعماقك فاصبر وأمهلها لتنمو، أرجوك ساعدني.*

ولم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء وبالرغم من أن الخمار يخفي دموعها إلا أنه شعر بألم رافق كلماتها الأخيرة، صمت لحظات وأخذ يستعيد المآسي والمصائب التي واجهته منذ ظهورها في حياته، تتوارد على مخيلته صور القبور الغريبة والجماجم، وتحيَّر بين أمرين إمَّا أن يطردها فورا من حياته بالرغم من الحب الذي يشعر به تجاهها، وإمَّا أن يسير خلفها نحو المجهول الذي لا يعلم نهايته فصرخ قائلا:

- *لن أتراجع عن قراري، سأراكِ الآن مهما كان الثمن.*

فقاطعته ياسمين بصوتٍ هادئ:

- *أتوسل إليك يا فارس اصبر قليلا.*
- *لن أصبر، هذه اللعبة ستنتهي اليوم.*
- *أنت لا تدرك عواقب رؤيتك لي بدون خمار.*

ضحك بصوتٍ عالٍ:

- *لا تهتمي لن تصدمني قباحتك.*

بصوتٍ حزين:

- *أتوسل إليك امنحني وامنح نفسك بعضَ الوقت.*
- *ما عدت أملك الوقت من أجلك، إمَّا أن أراك أو أن تذهبي إلى الجحيم.*

- *إزالة الخمار الآن لن يجلب لك إلا الشر، وأنت تجهل وَخَم العواقب، لا تسرق مني الأمل بتسرعك.*
- *لا أريد أن أعرف شيئا اذهبي إلى الجحيم، فقط اخرجي من حياتي إلى الأبد.*

استدارتْ ياسمين وعادت أدراجها إلاَّ أن فارس لحق بها وشدَّ الخمار عن رأسها فأسرعت بإعادته، وقالت محاولةً الحفاظ على هدوئها:

- *دعني أذهب ولا تعترض طريقي، قلبي يحدثني أن هذا اليوم لا تُحمدُ عُقباه.*

اقترب فارس والشرر يتطاير من عينيه، وأشارت إليه بسبابتها اليمنى:

- *لا تقترب، أنت لا تدرك ما أنت مقدم عليه، ولا تدرك ما أنا قادرة على فعله.*

استدارتْ من جديد وهمَّتْ بالمغادرة، ولكنه أسرع خلفها وباغتها مرة أخرى، وشد خمارها فتأرجحت وأوشكت على السقوط لولا أنها استعادت توازنها، ثم دفعته عنها بقوة فطرحته أرضًا.

شعر بالإهانة وثار لرجولته، وهجم عليها بشراسة ومزق جزءًا من الخمار، فرفعت يدها وصفعته على وجهه، **فردَّ لها الصفعة بقوة براكين الغضب المشتعلة داخله فسقطتْ على الأرض بعدما صرخت من شدة الألم، ورمقته بنظرةٍ غاضبة.**

1901 الشام...سالم وجورجيت...

ترمقه بنظرة بريئة، وتمسح بيدها اليسرى قطرات الدم المتساقطة من أنفها وفمها من أثر اللطمة، وتخفي وجهها بكفيها الصغيرين اتقاءً لنظراته الشهوانية.

يشدُّهَا إليه، ويشتهي أن ترتدي ملبسًا ليتسنى له تمزيقه من جديد، فتنة جسدها العاري بين يديه تربكه فلا يدري من أين يبدأ.

تستسلم وتترك جسدها يغيبُ في سبات عميق، لعلها تخفف من وطأة ألمها! تغلق عينيها لتغرق في ظلام يحجبها عن عيون الشر، يشتمها ويلعق عنقها وجسدها.

سكن جسدها بعدما رحلت روحها باحثةً عن ملائكة السماء لتشكو لها وجيعتها، صمتُ أوجاعها يحرمه متعته ويستنفر شره كأحد ضواري البرية المتعطش للدماء ولم يبلغْ نشوتَه؛ لأنه لم يطربه أنينُ جسدٍ غرز فيه مخالبه وأنيابه.

ينهض بجسده الثقيل، ويهزها بعنف صارخًا:

- *مَنْ سبقني إليك أيتها العاهرة؟! مَنْ فضَّ بكارتك؟!*

تصحو من غيبوبتها على صراخه، ويستمر في صفعها ونُباحه:

- *مَنْ ؟! مَنْ ؟!*

تفقد وعيَها من جديد، وما كان لجسدها المنهوك أن يفيق، تطوفُ روحُها باحثةً عن الملائكة مرةً ثانية؛ لتسألها "ما البكارة؟"

ظنَّ أن روحها قد فارقتها، ولمَّا لم تُرَق دماؤها ثأرا لدماء شقيقه أدركته خيبةُ الأمل، وتركها جثةً هامدة.

ومرت أيام قبل أن تعود إليها الروح وتفتح عينيها من جديد، لا تدري إن كان ما حدث كابوسًا أم حقيقة.

ترى أمام عينيها زوجة سالم وقد ملأتْ الدموع عينيها، تضمد جراحها، تحاول أن تحرك جسدها فلم تستطع، تبكي وتقول:

- *لماذا يا خالتي؟ ماذا فعلتُ؟ لماذا يضربني الجميع؟*

رفعت زوجة سالم رأس جورجيت إلى حضنها بحنان، وهي تقول:

- *لا تحزني يا صغيرتي، فغدًا تلتئم الجراح، ويطويها النسيان.*

ولم تكف جورجيت عن البكاء، والتساؤل:

- *ماذا حدث لأمي؟ مَنْ سيعتني بأبي المريض؟ ومَنْ سيعتني بالملائكة؟*

1977 ...فارس وياسمين...

ترمقه بنظرة غاضبة، وتمسح بيدها اليسرى قطرات الدم المتساقطة من أنفها وفمها من شدة اللَّطمة، وتخفي ما ظهر من وجهها بما تبقى من خمارها الممزق.

فقد فارس رشده، وما عاد قادرًا على احتواء غضبه بعدما هيجته نشوة الانتصار في رؤية ياسمين على الأرض تجاهدُ لإخفاء ما ظهر من جسدها ووجهها بالعباءة والخمار الممزق، يقترب منها مرة أخرى ويشدها إليه ليمزق ما تبقى من خمارها فتخلع الكف الذي ترتديه وتلامس جسده المندفع لتشل حركته ويسقط على الأرض بلا حراك، ثم تقف أمامه في ثقة، وبغضب تقول:

فارس يا ابن الدهري

ملعونٌ القلب الذي أحبك

وملعونةٌ أنا إنْ رحمتك

لابد أن تعرف قذارة أصلك

مَنْ عمك ومَنْ جدك!

اسأل أمك كيف حَبِلتْ بك!

اسألها مَنْ أبوك!

وفي أي البلاد أختك وأخوك!

ترمقه بازدراء:

- *حاولتُ أن أقنعك كي تصبر وتبحث لتكتشف سبب الخمار، لا لتتطلع إلى ما يخفيه، رجوتك وما كنت لأرجو أحدا، حذرتك أن تكشف الظُلمة حتى لا تسكنها وها أنت قد لا ترى النور أبدا، ابن الدهري لن يكون إلا دهري، افتح عينيك لتلتقي مصيرك الملعون.*

كشفتْ عن وجهها، وتحررتْ من عباءتها، وخفَّها النَّاعم، ولم تُبقِ إلا على قميص حريري أزرق، شفَّ عن مفاتنها، لا يُخفِ إلا جزءًا من فخذيها، تدلَّى بخيطين رفيعين عن رقبتها ونهديها، ووقف فارس مشدوهًا بين يديها، وعيناه متسمرةٌ عليها. تنظر إليه وتحثُّه على الإفاقة وإطالة النظر، وهي تقول:

- *انظر إلى مصيرك الملعون يا فارس.*

ثم خلعتْ القميص الأزرق، ووقفت عارية أمامه... تاه في مفاتنها، وانتصبت تتناغم حركة نهديها مع لهيب أنفاسها، وهي تقول:

- *ما كان الخمار ليحجب عن عينيك جسدي لو رأيتني بقلبك، انظر إلى الجسد الذي سيقودك إلى العتمة لتسكنها كما سكنها غيرك، أردت لك النور، فاخترت الظلام، حذَّرتك ألَّا تتطلعَ لما تُخفيه الظُّلمة قبل أن أجد لسوانا النور وأجنبك مصيرك المشؤوم، ولكن دماء أجدادك القذرة تسري في عروقك، وها قد حان موعد لقائك بهم، ما زرعوه من حقد وسقوه بدم الأبرياء لابد أن يحصده كلُّ بِكر منهم، والآن جاء دورك لتغوص في عتمة أجدادك، أخبرتك أنك قدري، وقلت لك يا مخلِّصي خلِّصني، يا زائري أغلق قبرك لا يجتمع الحب والخوف معا. تلاعبتُ بالليل والنهار لأساعدك، سمحت لك أن تقبلني، وما كان لشفتي أن تقبِّلا حفيد سالم، تركتك تتحسس جسدي، وما كان لابن الدهري أن يلوث نسل جورجيت مرة أخرى. أما وقد رأيتني الآن، سوف تصيبك لوثة مجنونة، وتطوف بين القبور، وإن حالفك الحظ ستعثر على قبر لتهدأ فيه نفسك، ولن تستبين فيه ليلك من نهارك، ولن تخرجَ منه إلى الأبد.*

وارتدت ياسمين ملابسها، ورمقته بنظرة حادة، وأسدلت خمارها الممزق فوق وجهها، وتركته خلفها، فصرخ بها قبل أن تختفي في الظلام:

- *مَنْ تكونين؟! لا ينبغي أن يكون هذا الجمال لبشر!*

التفتت وقالت:

- *أنا لعنةُ جدك واعمامك أنا لعنةٌ أبوك وأبناءك! حكمتم على كل أنثى منا أن تولد وتعيش في قبر، وحكمنا على كل بكر فيكم أن يسكن قبر!*

مرَّ وقت طويل ومازال فارس واقفًا عاجزًا عن التفسير، يتساءل:

- *ماذا حدث؟! ولماذا حدث؟! مَنْ أنا! وما علاقة أبي؟! وما علاقتي باللعنات؟! ولماذا القبور؟! ومَنْ هي؟! ومَنْ جورجيت؟! وَمْن سالم الدهري؟! ولماذا تركتني ألامسها؟! لماذا تركتني أقبلها؟! وكيف كانت ستساعدني؟! وما الفرق بين النور والظلام! ما السر الذي يجعل هذا الجمال الأسطوري يختبئ خلف خمار أسود؟!*

الخمار لم يكن يخفي قبحا، بل أخفى جمالا فاق كل توقعاته، يشعر بخزي وندم وحزن عميق، ويتمنى لو أن هناك طريقة ليعتذر لها.



1901...الشام... جورجيت وربيحة...

جورجيت طريحة الفراش، ولم تقصر زوجة سالم في الاعتناء بها؛ لميل قلبها إليها، وكانت تسمح لابنتها الصغيرة ربيحة التي لم تبلغ السابعة عشر أن تتسلل إلى غرفتها؛ لتواسيها وتبقى معها طيلة الليل، أحبتْ ربيحة جورجيت وتعلقتْ بها، وكان لهذا التعلُّق، وتقارب عمرهما الأثر البالغ في شفاء جورجيت، وبالرغم من صغر سن ربيحة إلا أنها كانت تمتلك من خبرات الحياة ما يفوق أقرانها؛ كانت قادرة على مقارعة مَنْ يكبرونها سنًا، وعلى الرغم من صلابةِ شخصيتها إلا أنها كانت تدعو ليل نهار أن تتخلص من عائلتها؛ بسبب وحشيتهم وقسوة قلوبهم؛ فقد زوَّجها سالم في الرابعة عشر من عمرها لابن أخيه الذي يكبرها بخمسة وعشرين عامًا، وفرحت ورقصت حينما زفوا لها خبر موته أثناء إحدى رحلات التهريب، أسعدها لقب الأرملة الصغيرة بالرغم من الحصار المفروض عليها، ودعت الله أن ينعم عليها بلقب يتيمة الأب أيضًا.

تؤنس ربيحة وحدة جورجيت حتى بزوغ الفجر، وأحيانا تختبئ في غرفتها عدة أيام، وتقوم والدتها بتغطية غيابها إن سأل عنها أحد.

براءة جورجيت تستفز ربيحة، وبخاصة عندما ترفض أن تشاركها الابتهال ودعاء الانتقام مِمَّن آذوها، لذا تبذل قصارى جهدها لتوضح لها حقيقة الحياة، وهذا العالم الكبير الذي يسكنه الوحوش، تتبادل الصغيرتان القصص والذكريات؛ كيف نجت ربيحة عندما هاجمتها الكلاب المسعورة؟ وكيف اعتنت جورجيت بصغار الذئاب؟

جلجلتْ ضحكاتُ ربيحة حتى كادتْ تخترق الجدران لتفضح أمرها عندما حدثتها جورجيت عن حرصها على أن تطعم الملائكة وتسقيهم كل يوم، وكادت تتفجر غضبًا عندما لاحتْ دموعُ الحزن بعيني جورجيت؛ لأنها لم تعد قادرةً على الاعتناء بالملائكة.

وقالت لها:

- *أمعقولٌ هذا يا جورجيت! في أي عالم تعيشين؟! هنا لا توجد ملائكة، لا يوجد إلا وحوش قاسية، ألم تدركي ذلك بعد! ابكِ على نفسك لا على ملائكة عاجزة تتضور جوعا، هل تعتقدي أن ملائكتك ستعتني بأمك وأبيك العاجز؟!*

ابتلعت ربيحة الأحرف الأخيرة، وشعرت بالندم على قولها، وأجهشت جورجيت بالبكاء وهي تتذكر أباها الذي يعجز عن شرب الماء دون مساعدتها، وأمها التي أُجبرتْ على تركها في الخلاء بين الحياة والموت؛ فصرخت:

- *أريد رؤية أمي وأبي، أتوسل إليكِ يا ربيحة، أريد الاطمئنان عليهما.*

دبَّ الضعف في قلب ربيحة، وأجهشت بالبكاء قائلةً:

- *أعدك يا حبيبتي بأن أطمئنك عليهما، ولو بذلتُ حياتي ثمنًا لذلك.*



المكان...

خاب أمل ياسمين وانهارت أحلامها؛ لن يكون فارس المخلِّص ولن يكون الزوج والحبيب، وأسرعت لترتمي في أحضان وردة، ولم تحثها وردة على الكلام، بل تركتها تبكي واكتفت بملامسة شعرها ووجهها، وتقبيلها ومسح دموعها بين الحين والآخر.

بصوت حزين قالت ياسمين:

- *لقد انتهى الأمر يا وردة، لقد رآني فارس.*

لم تتفاجأ وردة بما حدث، وقالت:

- *لا تفقدي الأمل، ربما يوافق على العيش معك في الظلام.*
- *لقد تجاوز كل الحدود، ولو علمت أمك ستحرقه وتحرقني معه.*

وردة وهي تضحك:

- *وماذا فعل هذه المرة غير القبلات؟*
- *مزَّق الخمار ولطمني على وجهي.*

تثب وردة على قدميها، تحملق في عيني أختها، وقد سالت دموع عينيها التي تقدح شرًا، وتصرخ بشدة:

- *ماذا تقولين؟ ماذا فعل؟*
- *لقد ضربني يا وردة!*

تبكي وردة وتصرخ بحرقة:

- *هذا الدهري الحقير، أقسم بروح جدتي لأقطعنَّ يده وأطعمه إياها قبل قتله. وكيف تتركينه يفعل ذلك؟!*
- *لقد فاجأني.*

- *كانت أمي لتسامحك لو رقصتي عارية؛ فهي تغضب وتسامح، أمَّا أن يرفع أحد أبناء الدهري يده علينا ما كانت لتسامحنا أبدا، أنت تهدرين الثمن الذي دفعناه ومازلنا ندفعه حتى لا يتجرأ علينا أحد.*
- *حدث ما حدث يا وردة، ويجب ألا تعرف أمك.*
- *سأقتل هذا الدهري أولا.*
- *وكيف ستفعلين هذا يا وردة؟ نحن لا نقتل ولا نؤذي أحدا.*
- *سأذهنه حتى يلقي نفسه في البحر أو يشعل النار في جسده.*
- *لا يا وردة نحن لا نفعل هذا ولن نفعله يوما.*

تبكي وردة، وتقول:

- *سأموت قهرا يا ياسمين إن لم أقطع يده، لا لن أجلس مكتوفة اليدين، سأذهب إليه، سأقطع يده، سأحرقه، لن يشاركني في هذا العالم مَنْ تجرأ ورفع يده على ياسمينتي.*

تمسك ياسمين بكتفي وردة وتهزها بقوة:

- *اهدئي، اهدئي يا وردة، لقد سامحته ولا أريد له الأذى.*

ترمقها وردة بنظره ملتهبة:

- *أنا لم أسامحه، ولن أسامحه.*

تدرك ياسمين أنَّ أختها عنيدة ولن تتنازل عن شيء أصَّرتْ عليه إنْ تعلق الأمر بدفاعها عنها لأتفه الأسباب.

1977...حزن وندم...

غرق فارس في أحزانه وندمه، وشعر بالعجز عن إصلاح ما حدث بالرغم من تعزيته نفسه بأنها صفعته أولا، وأنها لابد أن تقبل اعتذاره، ثم يدفعها لتحكي له هذه القصة الغريبة، ولكن، أين يجدها؟ وهو لا يعرف لها عنوانا، فكَّر في الذهاب والبحث عنها في المقابر حيث كانت تصطحبه.

لم يتردد فارس في تنفيذ ما دار بخلده، ومرَّتْ أيام وهو يبحث في مقابر حيفا وطبريا وبئر السبع، لم يترك مقبرة إلا ودخلها كالمجنون ينادي بأعلى صوته:

- *يا ياسمين، أين أنت؟!*

جميع محاولات فارس باءت بالفشل وعاش على أمل ظهورها يومًا، جلس بجانب الهاتف أيامًا في انتظار اتصالها كي تدعوه للقائها، ولم يكن ليبالي إن كان هذا اللقاء في مقبرة أم صحراء، وكل ما يشغله هو أن يلتقي بها ثانيةً، كان ينام ويصحو ويُخيّل له سماع رنين الهاتف ليجيبها ويتحدث معها حتى أيقن أن هذا لن يكون إلا في أحلامه.

أرهقه الانتظار والسهر وغفى ثم فتح عينيه ليراها جالسةً على حافة سريره ناظرةً إليه، فأغمض عينيه ثم فتحهما من جديد، وحرَّك رأسه مرات ليعي أنه ليس حالمًا، ومازالت جالسة في صمت، فقال:

- *مرحبًا بكِ يا ياسمين، هل مازلت غاضبةً مني؟ آسف، لم أكن واعيًا لما فعلتُ، لقد كنتُ ثملاً، ولم أتمالك نفسي عندما قمت بصفعي، وما أردتُ إلا رؤية وجهك الملائكي الجميل، ولم أكن أنتوي أذيتكِ؛ لأنني أحببتك، ولم أعرفْ حقيقة الحب قبل ظهورك في حياتي، صدقيني وسامحيني أرجوكِ.*

مازالت ياسمين صامته، ومازال فارس حائرًا في حقيقة وجودها، لا يجرؤ أن يمد يده ليتحسسها، يستأذنها ولا تجيب فيمد يده ناحيتها ببطء.

- *أعِد يدك ولا تحاول.*

أيقن أنها حقيقةً وليس خيالاً، يرفع ظهره ويتكئ على الحافة العلوية لسريره، ثم يقول:

- *ياسمين، كيف دخلتِ البيت؟*
- *من الباب.*
- *من فتح لك الباب؟ والدتي أم أخي؟*
- *لا أحب أن أزعج أحدا، لدي مفتاحي الخاص ، انتبه لي جيدًا.*

انتفض وهرع إلى الحمام واغتسل، وحرص على أن يبدو لائقًا، وعاد الى الغرفة وأغلق الباب، وجلس بجانبها وطلبت منه أن يحضر الصندوق، فتحه ووجد فيه وثيقة زواج مهترئة وخاتمين من الذهب الرخيص... حُرِّرت الوثيقة بالشام عام 1902 تحمل اسم سالم قاسم الدهري، وجورجيت عيسى الشامي.

لم يكترثْ فارس بمحتويات الصندوق بل بالحسناء الجالسة بجانبه:

- *تفوقين القمر فتنةً وسحرًا؛ فلِمَ هذا الخمار!*

باستهزاء:

- *أعي ذلك جيدًا، وأرتدي الخمار حتى لا يراني إلا زوجي.*

تفاجأ وسألها:

- *أمتزوجة أنتِ؟!*
- *سأتزوجك عمًّا قريب لننجب فتاةً جميلةً كأمها.*

سرَّه ما قالت:

- *لا أتمنى أكثر من ذلك، فما الداعي من الخِمار إذًا!*

قاطعته:

- *حينما نتزوج سأخلعه، وقبل ذلك يجب أن توافق على أن تسكن معي.*
- *حبيبتي، سأسكن معك أينما تريدين ولو في الجحيم.*

- *اترك جهنم لذكور عائلتك، أمَّا نحن سنسكن قبرًا رائعًا جميلاً ومُرتبًا.*
- *أمَا آن الأوان لتخبريني عن قصتك مع القبور؟*

فقالت:

- *في الصندوق بداية الحكاية، وفي الصندوق كُتب قدري وقدرك، لا تسأل كثيرًا، ابحث وحدك وستجد ما يخبرك بأنك ابنٌ لعائلة ملعونة.*
- *وما علاقتي بوثيقة زواج سالم وجورجيت؟*
- *أصلنا سويًا ينبثق من هذه الوثيقة.*
- *هل أفهم أنك من عائلة الدهري؟*
- *لن تشرفنا عائلة الدهري وأوساخها.*
- *إذًا أنتِ من عائلة الشامي.*

قالت بغضب:

- *لا يشرفنا شامي ولا دهري.*

احتار فارس معها:

- *ألم تقولي أن منبت جذورنا من هذه الوثيقة!*

قاطعته بنبرة حزينة:

- *ننحدر من جورجيت، وكلُّ أنثى تحمل اسم جورجيت، بفخرها وشرفها، دموعها وعذابها، وبناتها سيورثنه لبناتهن، ومن جيل إلى جيل لن نرى شمسًا ولا نورًا، مادام هناك ذكر من الشامي أو الدهري مازال يرى النور.*

مازال فارس واثقًا بألا علاقة له بكل هذا لذا يبتسم قائلاً:

- *اللهم سترك من كيد النساء! وما دخلي أنا؟ لستُ شاميًّا ولا دهريًّا.*
- *دمك من دمهم يا فارس.*

يحدِّث نفسَه:

- *لا يهم، لابد أن في الأمر التباس، وستكتشف ياسمين الحقيقة عاجلاً أم آجلاً.*

وجاهر بقوله:

- *المُهم أنك سامحتني يا ياسمين؟*
- *لقد سامحتك، ولكن أخشى أن وردة لن تسامحك، أتمنى أن أستطيع إبعادها عنك حتى نستطيع أن ننهي زواجنا وتسكن معي، عندها لن يكون أمامها خيارًا إلا أن تسامحك.*

وأطردت قائلة:

- *غدًا بعد غروب الشمس سأنتظرك على الطريق الزراعي لتتعرف أحد أفراد عائلتك، لن أنتظرك كثيرا، بعدما رأيتني لم يعد أمامك خيار؛ لقد اختلفت قوانين اللعبة، أكمل نومك ولا داعي لترافقني إلى الباب فأنا أعرف طريقي جيدا.*



1902..الشام...دفن قسوة الحياة..

سالم الدهري وبعض أبنائه برفقة إحدى قوافله التجارية من الشام إلى الأردن، بعد أن أوصى زوجته وحذَّرها ألاَّ تسمح لأحد بالاقتراب من جورجيت، وألا تسمح لها بالخروج من الغرفة، وما كان لزوجته أن تجرؤ على مخالفة أوامره.

الأم الصغيرة ربيحة تحضن طفلتها جورجيت كلما سنحت لها الفرصة لزيارتها سرا، فتشعرها بالأمان وتبعث الأمل في قلبها الرقيق من جديد.

تنبثق خيوط شمسٍ صفراء، وتتسلل ربيحة تاركةً خلفها الصغيرة نائمة، تملأ شوالا من الخيش بالطعام وتشق طريقها خفيةً في رحلة البحث عن أبوي جورجيت، ولم تكن تعرف طريق الوصول، ولكنها اتبعت قلبها الخيِّر، وأخذت تسأل مَنْ تصادفه من الرعيان عن الكنيسة القديمة، فلم تجد من يدلها لكثرة الكنائس القديمة في هذا المكان، ولمَّا تذكرتْ ما قصَّته جورجيت عن بئر العسقلة سألت عن البئر لتكتشف أن الجميع يعرفه، وسمعتْ بعضَ القصص عن جنية البئر.

وبعد بضع ساعات من البحث الدؤوب عثرتْ على البئر بعد الظهيرة، ثم بدأت تبحث عن بيت الطين، لتعطي أم جورجيت وأبيها ما جلبته من طعام، وتعود مسرعةً قبل أن يُكتشف أمرُها، ولكن القدر شاء أن يعود سالم من تجارته في ظهيرة ذلك اليوم، ولم يمرْ وقت طويل حتى وصله اختفاء الأرملة الصغيرة، ولم تنجح محاولات أمها في التستر على اختفائها لأنها لم تدر شيئًا عن ذلك، أرسل سالم إخوتها للبحث عنها في سرية، ولم يكن يخطر بباله سوى ظنه في أنها استغلتْ غيابه واختفت في مكان ما لترتكب الفاحشة.

قبل أن تصل ربيحة بيت الطين تخترق أنفها رائحة كريهة، ولمَّا بلغته لم تحتجْ أن تطرقَ الباب أو تستأذن لدخول بيتٍ مفتوحٍ بابُه، ينبئ صمتُه عن خلوه من حياة، تقارب الخطو حتى دخلت فترى جثةَ رجلٍ مُنكفئٍ على بطنه وقد مدَّ يده اليمنى وبسط كفَّه

نحو امرأةٍ نزفت حتى الموت، لقد وافته المنية قبل وصوله إليها، فارقتْه روحه أثناء تعلُّق بصره بها، ومازال وجهه منتصبًا نحو جثةِ زوجته التي روت دماؤها أرضَ بيت الطين... تفوح رائحةُ العفنِ من جثتين يبعثان على التقزز والرعب، ويكشفان نهاية الإنسان الوضيعة؛ تنبئ حالة الجثتين بأن المرأة وافتها المنية أولاً، وأن الزوج مكث يراقب زوجته حتى انتهى أجلها وظلَّ على عجزه ينظر إليها حتى خرجت روحه.

لم تتركْ مشاعرُ الحزنِ والأسَى مكانًا في قلبِ ربيحة لترتعب من هذا المشهد المأساوي، ارتمت قاعدةً في وجوم، لا يقطع الصمتَ سوى طنينٍ هادئٍ لذبابتين خضراوتين يطوفان حول الجثتين تم تتبع إحداهما الأخرى ليطوفان في أرجاء البيت، تتابعهما ربيحة بناظريها وتفكر في جورجيت، لقد أخبرتها جورجيت أن أباها لا يقدر على شيءٍ سوى النظر في صمت، تنظر ربيحة إلى هذا العاشق المسكين، وتتساءل:

- *كيف استطاع كسيحٌ يعجز عن شرب الماء أن يمد يده ويزحف نحو امرأته؟! وما الفترة التي قضاها في مراقبتها حتى وافتها المنية؟ وإلى متى استطاع الصمود مع وجيعته حتى خرجت روحه؟ وكيف كان يفكر فيما حدث لزوجته، وابنته التي لم تعُدْ؟ وكيف استطاعت هذه المرأة أن تعود بجراحها إلى بيت الطين؟! وما الذي دفعها إلى ذلك؟! هل عادت ليضمد جراحها رجلٌ كسيحٌ لا يملك من أمره شيئًا؟! أم عادت أملاً في الحياة لرعاية هذا الضعيف؟! أم رغبت في أن تموت إلى جواره؟*

تبكي ربيحة ناظرةً إلى الحب الذي يموت في عالمٍ قاسٍ لا يعرف الشفقة على الضعفاء، وتغمض عينيها الباكيتين لترى جورجيت جالسةً وحيدةً في سجنها، فتسألها:

- *أين الملائكة الآن يا جورجيت؟ ألم أخبرك أن هذا العالم لا يسكنه سوى وحوش قاسية معدومة الرحمة.*

ينتفض جسدُ ربيحة فتفتح عينيها، وتنتصب فجأةً، وتلقي ما في يدها من طعام وتعود أدراجها مسرعة، هربًا من قسوة الحياة على أبنائها، تقطع مئات الأمتار ركضًا بلا توقف حتى خارتْ قوتُها وتوقفت لتلتقط أنفاسها، ثم التفتت خلفها وتساءلتْ:

- *ألا يستحق هذان العاشقان أن يحتضنا بعضهما ويتواريا في قبر هادئ يعزلهما عن عناء الدنيا؟*

انقطعت ربيحة عن طريق العودة إلى بيتها، وعزمت على العودة إلى بيت الطين... تلمح في إيابها مغارةً صغيرةً فتتذكر ما قصته عليها جورجيت؛ لقد اعتنتْ بالذئب الرمادي العجوز حتى وافته المنية، ودفنته في المغارة، فكما أخبرتها أمُّها؛ لقد اختار الذئب هذا المكان ليموت في صمت دون أن يزعجه أحد...

وبغير وعي تدخل ربيحة المغارة وتحفر بيديها، ثم تسرع إلى بيت الطين لتحضر فأسًا ساعدتها على أن تحفر قبرًا، ثم تعود إلى البيت، ولم تجد سوى بساطًا قديمًا فرشته بجوار جثة والد جورجيت، وأغمضت عينيها ودفعت الجثة برفق حتى قلبتها فوق البساط، ولمَّا فتحت عينيها هالها النظر إلى كومة من الدود كانت متوارية تحت الجثة، فأشاحت بوجهها بعيدًا، وأسرعت لتمسك بطرف البساط لعلها تستطيع جر الجثة إلى الحفرة، ولم يكن الأمر سهلا ولكنها لم تستسلم؛ تجرها خطوة وترتاح قليلا، ثم تواصل حتى أحضرتها عند حافة الحفرة، ثم دفعتها نحو القاع، وعادت لتحضر جثة أمِّ جورجيت، ثم دفعتها لتستقر إلى جوار زوجها، وتهيل عليهما التراب، وبعد انتهائها تسرع إلى بيت الطين لتحضر إناءً فخاريًّا وتملؤه ببعض ماء بئر العسقلة، وترشه فوق القبر، ثم تجثو على ركبتيها وتبكي كثيرًا حتى توقفتْ عن البكاء شيئًا فشيئًا، ثم حملت الإناء الفخاري وعادت به إلى البئر، وملأته ووضعته عند باب المغارة، ثم نظرت إلى السماء وقد عادتْ دموعُها، وهي تتمتم:

- *هذا من أجل جورجيت.*

1977...لقاء العمة ربيحة بعد 75 عاما...

بجانب طريق زراعي في الجليل، ينتظر قدومها ويتساءل أين ستأخذه اليوم؟ لم يطل انتظاره حتى وصلت، وطلبت منه التوجه إلى إحدى جبال الجليل الأعلى، وهناك توقفا وطلبت منه مرافقتها. فسألها:

- *إلى أين ستأخذينني اليوم؟*

فردت قائلة:

- *سنذهب لنزور عمتك.*
- *عمتي لا تسكن هنا.*

أشارت بيدها تجاه الجبل وقالت:

- *هناك تسكن، تعال معي لنزورها.*

الظلام الدامس، والطريق وعرة، فحاول فارس أن يثنيها عن صعود الجبل:

- *أمجنونةٌ أنت! أين تذهبين في هذا الليل؟!*

ردت بفتور:

- *سنذهب لزيارة عمتك ربيحة.*
- *ألست خائفة؟! مثل هذا الجبل لا يخلو من الضباع، ولن نتمكن من رؤية الطريق في هذا الظلام، وإن كنتِ مصرَّة على هذه اللعبة، غدًا نلعبها تحت ضوء الشمس.*
- *الوحوش والضباع لا تخيف أحدا، كما أن قلوبها لا تخلو من الرحمة التي لو سكنت قلوب أجدادك لما كنتَ هنا اليوم، وعمتك سكنت الجبل في الظلام، والحقيقة التي تسكن الظلام، لا تخرج إلا في الظلام. وأنت يا فارس يا ابن الدهري يا ابن عائلة الظلام تعال ولا تكن جبانا، ففي مثل هذه الساعة وهذا اليوم سار جدك وأبوك وأعمامك من هذه الطريق؛ ليحتفلوا معا بزفاف ربيحة.*

1902...الشام...زفاف ربيحة...

لم تشعر ربيحة بمرور الوقت حتى انتصاف الليل، ولم تنتبه إلا على عواءَ الذئاب يتبادر إلى مسامعها شيئًا فشيئًا حتى أيقنت اقتراب الخطر، وتملكها الخوف فاختبأت داخل المغارة بجانب قبر والديّ جورجيت حتى لاح ضوء الفجر، ولمَّا اطمأنت شقت طريق العودة إلى البيت تفكر كيف ستشرح لأمها سبب اختفائها، واثقة أنها ستجد الطريقة للتستر على غيابها، ولم يدر بخلدها عودة والدها من رحلته.

وفي طريق عودتها ارتعب قلبها حينما رأت شقيقها منير الذي رافقها إلى البيت ولم يسألها عن غيابها، كما تجاهل سالم غيابها أيضًا وكأن أمرا لم يحدث، ولمَّا شعرت والدتها أن سالمًا وأبناءه يضمرون شرًا حاولت أن تفسر سر غيابها فأخبرها سالم بأنه عزم على زواجها من تاجر فلسطيني شريك له، ولا حاجة له في معرفة شيء، وتجهز الأمُّ العروسَ الأرملةَ ليصحبها أبوها وإخوتها إلى عريسها في فلسطين، ولمَّا حان الوقت انطلق سالم لتجارته وزواج ابنته، وودعت النسوة العروس ربيحة.

أسبوعًا كاملاً قضاه سالم وأبناؤه في فلسطين، باعوا بضائعهم، واستوفوا ديونهم، واحتفلوا بزفاف الابنة والأخت "ربيحة".

1977... لقاء العمة...

وقف فارس حائرا لا يدري ماذا يقول لها؟ وكيف يقنعها بأنه ليس من عائلة الدهري، وأن ربيحة ليست عمته. وأخذ يحدث نفسه، هل يهرب ويتركها، أم يصعد معها الجبل الموحش الذي لا يُسمع فيه إلا العواء والنباح؟ ولكن ياسمين كانت أسرع من أفكار فارس، فاقتربت منه وأمسكت بيده تجره وراءها فانقادَ لها كطفل صغير أمسكت أمه بيده وسارتْ أمامه فيتبعها خائفًا. وعندما وصلت منتصف الجبل تركت يد فارس وخطتْ عدَّة خطوات ورفعت يديها عاليًا، وأخذت تصرخ بصوت عالٍ تردد صداه في أنحاء الجبل:

يا ربيحة... يا ربيحة...

يا ابنة القتلة...

يا ابنة العائلة الملعونة...

يا ابنة الدهري...

يا لعنة الجبل....

اخرجي من صمتك...

وأسمعينا صوتك واستقبلي قريبك...

ملعون آخر جاء ليزورك...

يحمل لعنة عائلتك...

اخرجي يا ربيحة...

اخرجي يا ربيحة...

وما إنْ أكملت كلامها حتى بدأ يُسمع صوت فتاةٍ تُصعق لسماعه الآذان، وتقشعر له الأبدان، وترتعب له القلوب، وتضيق به الصدور، صراخٌ مجهولٌ؛ يسمعه من جهة اليمين فيلتفت إلى يمينه، ثم إلى يساره، ثم وراءه، يأتيه من كل مكان، ويستدير معه في هوس، تصرخُ الفتاةُ قائلةً:

- *(أتوسل إليكم ارحموني... ارحموني... أنا مظلومةٌ، لا تقتلوني... أتوسل إليك يا أبي! أتوسل إليك يا أخي! لا تقتلوني... لا تقتلوني.)*

وصرخة ألم عالية تلتها صرخة أخرى وأخرى حتى توقف الصراخ، وكأن آخر صرخةٍ خرجت مع روحها، فيعم هدوء مُقلق، ثم دبيب فؤوس تحفر، ولُهاث رجال تغمغم، ثم قراع نعالٍ تُغادر... ومع عودة السكون يتشبث فارس بيد ياسمين ليحتمي بها خوفا، ومازالت ياسمين واقفةً حتى حلَّ السكونُ وعاد الهدوء إلى الجبل، ثم التفتتْ إليه بعدما شعرتْ برجفةِ جسده، وقالت:

- *فارس، أراك خائفًا، لِمَ تخاف؟ وممَّ تخاف؟ أتخافُ من وحوش الجبل، أم من عائلتك؟ في مثل هذه الساعة من هذا اليوم قبل سنين طويلة قُتلت عمتك؛ قتلها جدك وأبوك وأعمامك...لقد هربت الوحوش من الجبل حينما جاؤوا وأحضروها معهم... لو غادروا وتركوها حيةً لرحمتها وحوش الجبل... وإن أردتَ أن تعرف أكثر فعليك بفتح قبرها.*

يواصل فارس الاستماعَ إلى ياسمين، ومازال يرتجف رعبًا فتنتظر إليه ياسمين قائلةً:

- *لا ترتعب يا فارس...لا ترتعب...! لا يوجد شيء في هذا الجبل قد يؤذيك... روح ربيحة لا تخيف ولا تؤذي، وستبقى ساكنةً هذا الجبل إلى الأبد، وستبقى صرخاتُها مدوِّيةً فيه لتشهد على جريمةٍ، ولم يكشف عنها أحد! وسيسمع هذه الأصوات كلُّ من يقترب من هذا الجبل... في مثل هذه الساعة وهذا اليوم... هذا جبل ربيحة الملعون.*

نطق فارس متوسلاً بصوتٍ خافت:

- *أرجوكِ يا ياسمين...دعينا نذهب من هنا! أرجوكِ أخرجيني من هذا المكان، لا أريد أن أعرف شيئا...أرجوكِ.*

فقالت ياسمين:

- *لا تكن جبانًا، أيُّ رجلٍ أنت؟ هذه فرصتُك لتعرف الحقيقة؛ حقيقة عائلتك، إن غادرتَ هذا المكان وأشرقت الشمس ستنتظر عامًا كاملاً لتستطيع معرفة الحقيقة، كنْ شجاعًا واطرد الخوف من قلبك، لا داعي لأن يقتلك الفضول وأنت تنتظر عامًا كاملاً لتكشف سرَّ عائلتك.*
- *عائلتي أعرفها جيدا، أنا لست من عائلة الدهري، ولا أريد أن أعرفَ عنهم شيئا.*
- *لا تخف، احفر لتعرف الحقيقة.*
- *لا أريد أن أعرف شيئا؛ لأني أعرف والدي وجدي وأعمامي، وليس منهم مَنْ يحمل اسم الدهري، فكفاك عبثًا بي، إنها قصة مجنونة لا دخل لي بها.*

تشعر ياسمين أن فارس قد ينهار تحت وطأة الخوف، ولا تريد أن تهدر الفرصة في اكتشاف حقيقة عائلته بإرادته.

اقتربت منه وأمسكت يده برفق، ووضعت يدها الأخرى على خده، وقالت:

- *حبيبي فارس، يجب أن أتزوجك، ولن يتم هذا إلا بعدما تكشف عن الحقيقة بإرادتك، وتثبت أنك لن تسير في درب هذه العائلة، ألم أخترك زوجًا لي وقد وافقت؟ لهذا يا حبيبي عليك أن تكتشف حقيقة عائلتك القذرة، لا تخف، لا نية لي في أذيتك ولكنك اخترت أن تكشف عن وجهي بالرغم من تحذيري لك، وما عاد أمامك أية فرصة للتراجع، سنتزوج وستسكن معي حتى أنجب منك ابنتي، أنصت إليّ حتى أستطيع حمايتك من لعنة أبيك وأجدادك.*
- *ما عدتُ قادرًا على التمييز إن كنتِ بشرًا أم شيطانًا، غموضك يقتلني، القبور والجماجم والأشباح! أنتِ سر غامض، لستِ بشرًا! جنية أم شيطانة؟!*
- *ماذا تريدني أن أكون؟ هل ترغب في رؤيتي مرة أخرى لتدرك أني بشر من لحم وعظم.*

- *لا أريد إلا الخلاص من هذه اللعبة المجنونة.*
- *إذًا هيا تغلب على خوفك واحفر واكتشف الحقيقة، لا يمكن أن أتزوجك قبل أن تعرف أباك وجدك، يجب أن تكتشف الحقيقة بإرادتك.*
- *الحقيقة التي أعرفها تكفيني، ولن أحفر القبور، وسأغادر الآن إلا إن كنت قادرة على فعل شيء رغما عني.*

رمقته بنظرة لا تخلو من الخبث، وقالت:

- *لو كانت الأمور تسير بهذه الطريقة لأرغمتك منذ اليوم الأول، ولكن يقيدنا عهدُنا بألاَّ نرغمكم على أمر، إن رغبت في المغادرة فلك ذلك، هيَّا ارحل.*
- *سأرحل هذه المرة ولن أنظر خلفي.*
- *ارحل يا فارس ارحل، ولكن ألا ترغب في قبلة الوداع قبل رحيلك؟*

يصمت فارس لثوانٍ:

- *أرغب في أن أضمك وأقبلك ولكن ليس في مثل هذا المكان.*
- *تعال إليّ إذًا، تتملكني رغبة جامحة.*

وبدأت ياسمين بنزع الخمار، وكأنها تلبي رغبة عيني فارس، وبان وجهها بدرًا، وحركت رأسها في دلال يمينا ويسارا ليتناثر شعرها الأسود الطويل وينافس الليل في ظلمته، ورفعت يدها اليمنى وبأسنانها المتلألئة أمسكت طرف القفاز وسحبته لتخرج كفها اللين الناعم، ثم عرَّتْ اليسرى، وألقت بالقفازين في الهواء ليهبطا على الأرض على بعد عدة أمتار، وبأناملها وعينا فارس تراقبها بدأت بفك خيوط العباءة التي تحجب جسدها، وينسل من بين شفتيها:

- *اقترب يا حبيبي ولا تترك خيوط هذا الثوب تحجب عنك جسدي.*

فاقترب منها ملبيًا، ومدَّ أصابعه ليفك الخيوط ويحرر الثوب الناعم عن جسدها، ولمَّا أصابته رعدةُ الشهوة بدأ بقضم الخيط، وياسمين تحثه على الإسراع قبل شروق الشمس،

وتلقي بجسدها فوق التراب، وتشده معها إلى الأرض، وهو مازال منكبًا يقضم الخيط بأسنانه حتى انتقل شرهًا إلى الخيط المعلق بكتفها الأيمن، ثم أمطر كتفيها وعنقها بقبلات حارة، ورفع رأسه ليقترب من شفتيها ليطفئ ظمأه.

تدفعه برفق وتعلو جسده، تقبله عدة قبلات ناعمة على صدره، وتحرق وجهه بلهيب أنفاسها، وتنتصب على قدميها في رشاقة، وفارس مازال مستلقيا على الأرض يرمقها بعينيه.

تعيد العباءة الساقطة عن كتفيها وصدرها، متعمدةً أن تلامس وجهه وجسده بأطرافها، مستمتعةً برؤية النار المتقدة في عينيه، وبصوتها الدافئ تقول:

- *أتريدني الآن يا فارس؟ أتريدني فوق هذا التراب حيث تستلقي وحيث أقف؟ ستزداد رغبتي إليك بعدما تخرج الحقيقة، هنا حيث تستلقي سكن سر عمتك، احفر التراب الآن، أرغب في أن يمتلكني رجل شجاع لا يخاف الكشف عن حقيقته، جسدي يشتهي رجلا لا يعرف الخوف طريقًا إلى قلبه، ولا يخشى الحقيقة مهما كان وجهها قبيحًا؛ فمن يخشى رؤية القبح لا يدرك الجمال.*

نار الاشتياق كانت أقوى من رهبة الموت ووحشة القبور، فتغلب على خوفه، وبدأ يحفر التراب بكلتا يديه في جنون، وعيناه متسمرتان على وجهها الوضَّاح في ضوء القمر، وكلمَّا زاد في الحفر قالت:

- *احفر حيث ترقد ربيحة ويرقد معها سرك.*

يجدُّ في الحفر ومازالت عيناه مُعلقتين بوجهها حتى التفت لهوفًا إلى يديه التي اصطدمت بشيء ما، فامتُقع لونه، وارتعش جسده، وسقط على الأرض مغشيًّا عليه من هولِ ما رسم له خيالُه.

1903...الشام...السجن المظلم...

جورجيت الصغيرة التي وجدت في ربيحة الأخت والصديقة والأم والنور الوحيد الذي أضاء سجنها دأبت على السؤال عنها، وكان الجواب دائمًا:

- *لقد تزوجت ربيحة وسافرت بعيدا.*

لم يتوقف الكابوس عن زيارة جورجيت في سجنها ليمارس ساديته، توالت الأيام وجورجيت حبيسة الغرفة لا يُسمح لها بالخروج أو لقاء أحد، وقد اعتادت أن تغمض عينيها وتغطي وجهها وتداوي جروحها بعد كل زيارة، وذات مرة توقفتْ عن البكاء وبدأت تفهم ما يدور حولها، لقد حُرمت من حنان أمها ولكن زوجة سالم كانت لها بمثابة الأم الحنون.

وعلى الرغم من سادية سالم إلا أنه كان مهووسًا بجمال جورجيت، فأحاط البيت بأسوارٍ عالية، ولم يسمح لأحد بالاقتراب إلا زوجته –أم ربيحة– لغرض الاعتناء بجورجيت، وكلمَّا استمتع بجمالها زاد خوفه عليها فأغلق كل المنافذ حتى تحول البيت إلى كهف لا يدخله النور ويدخله هو عبر منفذ واحد.

لقد وعد سالم أن يطأ جورجيت جميعُ رجال الدهري لإهانةِ الشامي، وقد نجح في أن يتملص من وعده بادعائه مرضها، ولمَّا طالتْ مماطلتُه نسي الجميع وعده، وربما تناسوه.

وبعد مرور ثلاثةُ أعوامٍ على سجنٍ جورجيت تمكَّنت فتاة دهرية من التسلل إلى سجنها وتبعتها أخرى وأخرى على حين غفلة من سالم؛ لقد تسلل الحب والحنان والنور إلى

سجن جورجيت لتخفيف أحزانها، ولكن جورجيت صاحبة القلب النقي غرقت في أحزان النساء اللائي تسللن لمواساتها؛ كانت تبكي لسماعها قصص صديقاتها الجدد، وتخفف عنهن آلامهن، لقد أدركتْ ممَّا كانت تراه في عيونهن قبل نطقهن أن الحياة ليست كما اعتقدت، لقد أدركت جيدًا ما أصابها من الشامي والدهري.

أعداد الصبايا والنسوة تزداد يوما بعد يوم، وزوجة سالم التي مازالت تنتظر أن يفي سالم بوعده لتزور ابنتها في بيتِ زوجها لم تعد تكترث بمَا قد يحدث لها إن اكتشف سالم هذه الزيارات.





الرواية متوفرة pdf على الانترنت وبالإمكان تحميلها فورا

1977...تحدي القدر...

فتح فارس عينيه ليجد نفسه مستلقيا في سيارته وبجانبه ياسمين تداعب شعره وجبينه في رقة وحنان، فينظر إليها صامتًا وقد بدا الإرهاق والتعب والقلق على وجهه، واغرورقت عيناه بالدموع، وتوسل قائلاً:

- *ياسمين، ارحميني لم أعد أحتمل! أرجوكِ، أرجوكِ!*

وأغلق عينيه مستسلما، وبدا على ياسمين التأثر، وأدركت أنه لم يعد يقوَ على تحمل أكثر من ذلك. فقالت في حزن وأسى:

- *فارس، هيَّا لأعيدك إلى البيت لتنام وترتاح.*
- *وهل سأعرف طعما للنوم أو الراحة وأنا غارقٌ في بحر من الألغاز؟! ماذا حدث معي يا ياسمين؟ وكيف وصلت إلى هنا؟! ألم نكن في الجبل!*
- *نعم يا حبيبي كنا في الجبل، ولكن أغمي عليك فجأة بغير سبب، فأيقظتك وعدنا إلى السيارة وكنت متعبا فتركتك تنام قليلا.*

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة حزينة، وقال:

- *أُغمي عليّ دون سبب! أتقولين دون سبب! وهل وجودنا في هذا المكان الرهيب في منتصف الليل نسمع صراخ وبكاء الأموات، وأحفر قبرا لأخرج رأسا مقطوعة، هل كل هذا لا يكفي ليكون سببا!*
- *حبيبي، لا أدري ما الذي تخيلته، لم يكن هناك رأس ولا عظام، ولا قبر، ولو تخيلت رأسًا فذلك مجرد أوهام، انظر إلى الصندوق الذي أخرجته لعلك تجد بداخله شيئا يساعدك على معرفة حقيقتك وحقيقة عائلتك، لقد فعلت بإرادتك الحرة لتخرج الحقيقة المدفونة، ولم يجبرك أحد على ذلك.*

قادتْ ياسمين السيارة مسرعةً، وهي تقول:

- *الآن ستعود إلى بيتك لتنام قليلاً، وبعدما تستريح افتح الصندوق وسترى ما يساعدك على معرفة جزءٍ آخر من الحقيقة الملعونة.*

أنهت ياسمين كلماتها، وهي تسابقُ الريح، وقيادتها الجنونية أربكت فارس فصرخ:

- *أوقفي السيارة أيتها المجنونة.*

تبتسم ياسمين ولا تبالي فيصرخ ثانيةً:

- *أوقفي السيارة.*

فزادت من السرعة، ومدَّ فارس يده وأمسك المقود وهو يصرخ، فتأرجحت السيارة يَمنةً ويَسْرة حتى كادت تهوي بهما في وادٍ سحيق ولكن ياسمين في براعة سيطرت عليها وأوقفتها، بعدما امتقع لونه من الفزع.

- *ما بك يا حبيبي، يتغير لونك كثيرًا هذا اليوم، هل أغضبك شيء ما؟*

التقط فارس مفاتيح السيارة ووضعها في جيبه خوفا من أن تعيد الكرة، وخرج من السيارة وقال لها:

- *مجنونةٌ أنت، ومجنونٌ أنا لأني أتبع مجنونةً مثلك، وملعونٌ هذا الحب، وذلك الفضول اللذان صنعا مني كلبًا يلهثُ وراءك من مقبرةٍ إلى مقبرة، ومن جنون إلى جنون، أظن أننا بلغنا نهاية القصة، لن أستطيع مسايرتك ثانيةً؛ لقد اكتفيت.*

تبعته خارج السيارة، وقالت ساخرة:

- *ألم تمل من تكرار الكلمات نفسها؟ لقد أخبرتك، لن تستطيع أن تنهي شيئا قبل أوانه.*
- *أنا مَنْ يقرر ذلك.*
- *(قدرٌ ومكتوب وليس منه هروب)*
- *هذا قدرك وليس قدري وسأنهيه متى أشاء.*

- وكيف ستفعل ذلك؟
- لا أريد رؤيتك مرة أخرى.

تقول في غنج:

- هل تستطيع ألا تشتاق؟
- نعم أستطيع، وستبرهن لكِ الأيام يا... سيدة القبور!
- قدرك يا ابن الدهري.
- أعلم أن غموضك أثارني، وأعلم أن جمالك سيقودني إلى التهلكة إنْ جاريته، وأبشِّرك بأن غموضك لن يؤثر عليَّ، وجمالك لن يثير فيَّ شيئًا بعد اليوم.

فردت ساخرة:

- أتقصد أنك لم تعد تحبني! وأنك منزعج مني يا حبيبي!
- سأحبك دوما ولكن...
- ولكن ماذا؟
- أنتِ مجنونة! أقسم بالله أنك مجنونة.
- لا رغبة لي في جدالك حول ما أكون أو لا أكون، اليوم أنجزتَ خطوة مهمة في طريق الحقيقة.

قال ساخرا:

- حفرُ قبر إنجاز عظيم!؟
- خوفك خلق أوهامك، وبالرغم من أن القبر لا يحوي إلا العظام، فما كنت سأسمح لك بتدنيس قبر ربيحة يا فارس، ربيحة التي لم تدر عنها شيئًا حتى هذه اللحظة، لقد حفرتَ الأرض وأخرجتَ صندوقا سيدلك على الحقيقة.

قهقه بأعلى صوته:

- هل تعتقدين أنني صدقت ذاك الهراء عن ربيحة والعائلة الملعونة!

- *لا بأس، ما عدتُ في عجلة من أمري، لديك كل الوقت لتكتشف ما تسخر منه.*
- *لقد أخبرتك مُسبقًا، رغبتي الوحيدة هي اكتشاف جسدك، فما رأيك أن نكمل سهرتنا في مكان آخر بعيدا عن أجواء هذه الألغاز؟*

أدركت أنه يبحث عن طريقة لاستفزازها، فقالت:

- *سأتركك الآن، وكما قالت وردة "قدرك سيرسم خطواتك القادمة".*
- *ولماذا تمانعين الآن وقبل ساعات لم تعارضي أن أعريكِ؟! أم أن القبور فقط ما تثير رغبتك؟*

نجح فارس في تهييجها، فقالت:

- *صدقت أمي وجدتي؛ قذارة الدهري لن تنجب إلا قذارة.*

اغتبط فارس في رؤية نجاحه فيما قصد إليه، واجتاحته رغبته في رؤيتها ضعيفة، فاقترب منها في غرور ومد يده إلى الخمار وكشف وجهها، ليظهر من جديد ذلك الإبداع الإلهي المتناسق الذي يفوق كلَّ جمال أو خيال.

فوجئت بجرأته وثقته، وأخذت ترمقه بنظرات ثابتة يصعب تفسيرها، صمتُها جعله يتمادى فاقترب وأخذ يداعب شعرها وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة المنتصر، ثم مد يديه إلى العباءة وفكَّ خيوطها في ثبات لتسقط وتكشف عن جسدها الفتَّان، وهي مازالت واقفةً كالصنم تحدُّ إليه النظر. أراد أن يتوج انتصاره بقبلةٍ على شفتيها، إلا أنها اعترضته بأصابع كفها قائلةً:

- *القبلةُ التي تسعى إليها يجب أن تستحقها أولا.*

اقترب منها محاولاً إلصاق جسده بها فرفعت كفها من جديد، وقالت بصوتٍ ناعس:

- *كفى يا فارس.*

- *أعلم أنك قادرة على صدِّي منذ البداية، فلِمَ لَمْ تفعلي؟ هل فقدتِ قدراتَك السحرية!*
- *رغبت في أن أشعر بأنك قادر على أن تجمح جماح الشر بداخلك، ربما لأنني أريد أن أؤمن بأنك لا تشبه والدك وجدك.*
- *رحمة الله على والدي وجدي.*

في غضب:

- *اللعنةُ على والدك وجدك وأعمامك وجميع رجال عائلة الدهري.*

شعر بسعادة غامرة وأسرَّ بقوله "كم يسعدني استفزازك أيتها الحسناء!"، وجاهر بغير نية في إهانتها:

- *لعنة الله عليك أنت يا ياسمين.*

ولكنها فاجأته بضحكها قائلةً:

- *لدينا ما يكفي من اللعنات، عُد إلى بيتك يا فارس، وفي الصندوق ستجد الكثير من الأجوبة.*

لم يعجبه ضحكها بالرغم من أن قلبه يهفو لضحكتها، وسولتْ له نفسه محاولة إغضابها، فقال:

- *لعنةُ الله على جورجيت.*

لم يدرِ كيف تطاير زجاجُ السيارةِ الأَمَامي، وألفى نفسه ملقىً على الأرض، وياسمين تقف فوق رأسه تصك أسنانها، وعيناها تقدح شررا، وقد سالت دموعها، وهي تقول في حنق:

- *سأقطع لسانك حتى لو اضطررت أن أعتنق الشر إن كررتها ثانيةً يا حفيد سالم.*

وأشاحت بوجهها عنه وابتعدت.

1904...الشام...صديقات جورجيت...

عرف الجميع قصة ربيحة ورحلتها إلى بئر العسقلة، وحرصت زوجة سالم ألا تعرف جورجيت ما حدث لأبويها؛ كانت تختلق الكثير من القصص لتطمئنها، وكذلك فعل بقيةُ صديقات جورجيت.

أربع سنوات مرَّت على جورجيت ولم تر النور، وأم ربيحة تراقبها وتتمنى لو أن هناك مكانا قد يحميها لتساعدها في الهرب إليه، تراقبها وهي تنضج يوما بعد يوم، ولا تشك في أن سالمًا سيلاحقها إلى آخر العالم لو تمكنت من الهرب.

وفي إحدى الزيارات السرية التي اعتادتها نساء عائلة الدهري لمجالسة جورجيت سألت جورجيت عن آخر أخبار أبيها وأمها فأجابتها إحداهن:

- *إنهما بخير، وقد بعثا بتحياتهما الحارة إليك مع إحدى النسوة، ووعدا بأنهما سيأتيان لزيارتكِ عندما تواتيهما الظروف.*

إحدى الجالسات لم تتمالك نفسها وأخذت تبكي فأسرعت أخرى بإخراجها ممَّا أثار الريبة في قلب جورجيت. امتقع لونها، وقالت بنبرة حزينة والدموع تترقرق في عينيها:

- *وكيف يأتي أبي وهو لا يستطيع الحركة؟! كلَّما سألت عن أبي وأمي أخبرتموني أنهما بخير، ولكن عيونكن تخبرني خلاف ذلك، أرغب في معرفة الحقيقة، وسأحتملها مهما كانت؛ فما عدتُ صغيرة، لا تعذبوني، وأخبروني بما حدث.*

أبكت جورجيت جميع الجالسات، ولم يعد هناك أية جدوى من إخفاء الحقيقة أكثر من ذلك، ونطقت إحداهن على عجل:

- *رحمهما الله، لقد مات الاثنان يا جورجيت.*

أصرت جورجيت على معرفة تفاصيل موتهما فرضخن لإصرارها، وشرعت إحداهن في حكي قصة ربيحة، ولكن البكاء منعها من التكملة فنظرت جورجيت إلى زوجة سالم، وقالت:

- *كذبتِ عليَّ طيلة أربع سنوات، فلِمَ يا خالة!*

أجهشت أم ربيحة بالبكاء، وتفاجأ الجميع بتجمد الدمع في عيني جورجيت، وقالت في هدوء وثقة:

- *لا تبكي يا خالة، الموت رحمة، ولكن أريد أن أعرف أين دفنتهما ربيحة؟*

فقالت إحداهن:

- *بجوار البيت.*
- *أين دفنتهما ربيحة تحديدًا؟*

تعجبت النسوة من اهتمام جورجيت بمكان الدفن، ورأين أن دفنهما في المغارة إهانة، وليس تكريمًا، وصمت الجميع عن الكلام، فقاطعت إحداهن الصمت، وقالت:

- *دفنتهما في المغارة القريبة من البيت.*

ابتسمت جورجيت، وقالت:

- *دفنتهما حيث كنا ندفن الحيوانات.*

قالت إحدهن:

- *مكان دفن الميت ليس مهمًا...*

إلاَّ أن جورجيت قاطعتها:

- *لا هذا مهم دفنتهما ربيحة في مكان فيه حب، شكرا يا ربيحة، شكرا يا حبيبتي.*

إحدى النساء:

- *الله أكبر، أبشري يا بنيتي؛ إنهما برفقة الملائكة.*

ابتسمت جورجيت:

- *الملائكة جائعة تحتاج إلى مَنْ يطعمها...*

وقالت أخرى:

- *البقاء لله يا جورجيت.*

ابتسمت جورجيت من جديد وقالت مرة أخرى:

- *الموت رحمة، لا تتحدثن في هذا الأمر ثانيةً.*

وقالت إحدى الصبايا غاضبة:

- *اللهمَّ انتقم من القتلة*، سوف نتضرع معك ليل نهار كي ينتقم منهم الله.

ابتسمت جورجيت ووضعت يدها على كتف الصبية وقالت مرة أخرى:

- *الموت رحمة، دعونا نغير الحديث.*

زوجة سالم:

- *لا تكتمي الألم يا جورجيت، ابكي يا بنيتي حتى تستريحي.*

صمتت جورجيت برهة:

- *كفى يا خالة...أرجوكِ!*

وقالت صبيةٌ في عمر جورجيت وهي مدمعة العينين:

- *نذرا علي لأبحث عن المغارة، وأضيء فيها الشموع، ولو ذبحوني من اجل هذا!*

احتضنتها جورجيت وأخذت تجفف دموعها قائلةً:

- *لا تبكي يا حبيبتي.*

أرادت أخرى أن تتحدث، ولكن جورجيت قاطعتها في حدَّة:

- *الموت رحمة ، لا أريد الخوض في هذا الحديث.*

ظلال من الكآبة والحيرة؛ وجوه عابسة مُكفهرة يعلوها ذهول واستغراب.

1938...عمان...سعاد وسالم الصغير...

سعاد الحلوني أردنية الأصل متوسطة الجمال، والدها يعمل تاجرًا، وتربطه علاقات تجارية بعائلة الدهري، يزوج ابنته البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عامًا لمنير سالم الدهري زواجا تجاريا غامضا، قيل بسبب الديون التي تراكمت عليه للدهري، وما كان لسعاد أن ترفض زوجًا اختاره أبوها.

يصحبها معه إلى الشام ويضمها إلى زوجاته الثلاث، تعيش سعاد وسط عائلة الدهري من أكبر وأثرى عائلات الشام، ولكنها لم تجد الأمان والراحة وسط عائلة غامضة، تملؤها الأسرار ولم يُسمح لها بالاختلاط خارج نطاق العائلة، وبما أنها العنصر الغريب الجديد الدخيل على العائلة، وجدت بقية النسوة فيها فرصة للخلاص من خدمة كبير العائلة أعور العين؛ لا يصدق من يراه أنه قد تجاوز التسعون عاما، خدمته بإخلاص وتفانٍ، ولم تجدْ تفسيرًا للبغض الشديد له من قِبل نساء العائلة صغيرة وكبيرة.

عامان قضتهما وسط العائلة كانت كافية لتسمع عشرات القصص الخيالية عن تاريخها، وبالرغم من كبر سن زوجها، وندرة زيارته لها فقد حَمَلَت منه في أواخر عام 1939، وبعد مضي ثلاثة شهور من حملها انقلبت حياتها رأسا على عقب، وبدأت تفكر في الهرب والخلاص من هذه العائلة. أنجبت سعاد مولودها البكر، وكما جرت العادة في العائلة حملت وليدها ليباركه جده الأعور، وطلب منها أن تسميه سالمًا فأحنت سعاد رأسها وما كانت لتعارض طلبه.لم يتجاوز سالم الصغير عشرين يوما، ومنير الدهري يتخذ قرارًا مفاجئًا بلا سبب، ويطلِّق سعاد ويعيدها لوالدها مع ابنه، وكان الطلاق والخلاص أجمل هدية تلقتها سعاد بعد ولادتها، وعاشت في كنف والدها في الأردن ولمَّا بلغ عمر ابنها عشرة أشهر تزوجت من تاجرٍ فلسطيني يكبرها سنًا، وسرًا اتخذ ولدَها ابنًا له، استبدلا اسمه ولم يعرف أحدٌ أنه ابن رجل آخر، ارتحلت معه إلى عدة بلدان واستقرت الأسرة عام 1945 في أطراف الناصرة.

1904...الشام...الروح والجسد...

من فتاة إلى فتاة ومن امرأة إلى أخرى تعود قصة جمال جورجيت لتطفو على السطح وتشغل بال الكثيرين، وتتداول الألسنة الحديث عن سالم سرا وعلانية؛ لقد حنث في قسمه أمام جثمان شقيقه قبل دفنه عندما أقسم بأن يطأ الفتاة جميع رجال الدهري أمام أعين الشامي.

موقف عصيب يواجهه سالم أمام العائلة ولا يدري ماذا يفعل، ثمل وعاد إلى منزله مبكرًا على غير عادته، وكان بعض النسوة مجتمعات في سجن جورجيت، وفجأة يتبادر إلى مسامعهن ضجيج أصوات آتية من خارج البيت، خوف وذعر انتشر بين النسوة، وما هي إلا لحظات قلائل ليظهر سالم الدهري حاملا بيده سوطا وعصاة، يشتم ويصرخ، تهرب النسوة وينهال على أمِّ ربيحة ضربًا وشتمًا:

- *أيتها الكلبة، حذرتك ألف مرة ألا يكلمها أحد، وتجمعين عندها كل النساء!*

أمسك بشعرها وركلها بقوة فسقطت على الأرض، ونزفت الدماء من وجهها بغزارة، وبدأ يضرب جورجيت بالسوط، وهي تنظر في عينيه، لا تحني رأسها، لا تصرخ، ولا تبكي، وكأنها فقدت الإحساس بالألم، فزادها ضربًا في عشوائية مجنونة؛ يدور حولها، ولم يترك مكانا في جسدها إلا وناله السوط لعله يصيب موضع! ألم حتى تعبت يداه، ومازالت جورجيت صامدة، ترمقه بنظرات ثابتة.

هربت النسوة من البيت، ولم يبقَ إلا سالم الدهري وزوجته الملقاة على الأرض، وجورجيت الواقفة على قدميها وضربات السوط قد مزقت ملابسها، وتركت ندوباً وعلامات على وجهها وجسدها... انحنت جورجيت واقتربت من زوجة سالم لترفعها عن الأرض، فصرخ بها:

- *اتركيها تموت كالكلاب.*

لم تكترث له، فركلها سالم في بطنها ركلة ألقتها بعيدًا عن امرأته، وزحفت جورجيت لتسعف زوجة سالم، فأسرع بركلها بقدميه على وجهها وجسدها حتى أغميَ عليها من شدة الضرب.

صحت جورجيت بعد ساعاتٍ عدة لتجد نفسها مقيدة في حظيرة الأبقار، وقد انتصب سالم عند قدميها وهو يضحك قائلاً:

- *هذا مكانك الحقيقي، وكان يجب أن تكوني فيه من البداية، ولا تنسي أنك ثمن دماء أخي.*

تنظر إليه جورجيت وهي ملقاة على الأرض مقيدة عاجزة عن أن تستر جسدها؛ لقد انكشف ثوبها الممزق عن مفاتنها التي أثارت في سالم نار الشهوة، فانكب عليها ومزق ما تبقى من ملابسها، وفك قيودها ليشبع ساديته بضربها وإفراغ شهوته الحيوانية، وبعدما انتهى أخذ يضحك في جنون، ومازالت جورجيت ملقاة على الأرض وملقى إلى جوارها وتد خشبي يُربط فيه البقر، فتنظر إلى الوتد تارة، وتنظر إلى سالم تارة أخرى حتى أصابت جسدها رعشة، وفجأة التقطت الوتد وانتصبت على قدميها وغرسته في عينه اليمنى ففقأتها، وصرخ سالم من شدة الألم، وخرج مهرولاً من الحظيرة عاريًا وقد سربلته الدماء.

ساعات طويلة مرت على جورجيت وكأنها الدهر، وهي تنتظر عودة سالم الدهري لينتقم منها حتى عاد عاصبًا عينه، وقال لها:

- *أخذت عيني يا جورجيت وأنا الآن أراكِ بعين واحدة، ولو أخذت روحك بدلا من عيني لن أرتاح، أنتِ فاتنة يا جورجيت، وقد عزمتُ على ألا أكون أنانيا وألا أخفيك عن أعين الآخرين.*

وضحك بأعلى صوته وأخذ ينادي بعض رجال الدهري ممَّن تمنوا مشاهدة جورجيت صاحبة الجمال الخارق، ولمَّا دخلوا عليه قال لهم:

- *خذوا نصيبكم منها، إنها مجرد جارية.*

تردد بعضهم ولم يقترب، ولم يقاوم البعض الآخر رائحة أنوثتها التي طغت على رائحة فضلات البقر، ولم يكن هؤلاء أقل قذارة من سالم، فتناوبوا الاعتداء عليها وهي صامتة خائرة القوى، لا تقوى على المقاومة.

وفي كل يوم أخذ سالم يدعو مجموعة جديدة من أقاربه، ويجد متعته في مراقبتهم يعتدون على جورجيت الواحد تلو الآخر، وتوالت الأيام على هذه الحال البئيسة؛ كان سالم يجبرها على أن تأكل من فضلات طعام الأغنام والأبقار حتى اعتادت أن تأكل بنفسها.

وذات يوم استيقظت جورجيت لترى العجوز سالمًا حاملا مقصا يستخدمه في جز صوف الأغنام، ويسير نحوها حتى أمسك بشعرها الطويل ولفَّه حول يده ثم جرَّها في الحظيرة، وطرحها فوق روث البقر، فانكشف ثوبها الممزق عن جسدها الأبيض الناعم، ووقف عند قدميها عاصبًا عينه المفقوءة وقد اتسعت حدقةُ عينه المُبصرة يحملق في مفاتنها، ثم أمسك بشعرها وحملها على الوقوف، وقيدها بسلسلة حديدية في أحد أعمدة الحظيرة، ورمقها بنظراتٍ حاقدة تتقد بالشر، وبصوتٍ أجش قال لها:

- *بحثوا عن خيالٍ في الخيال لوصف جمالك! وسأجعلهم يتجاوزون كلَّ خيال لوصف القبح الذي سأقدمه لهم، وصفوك بـ "حورية خرجت من الجنة"، وسأصنع منكِ مسخ جهنم... جمالك أطفأ نور إحدى عينيّ، وقتلَ أخي، وسلبَ كرامتي، وأقلق راحتي... وأنا سأهدره، وأسلب راحتك إلى الأبد، سآخذ منك النور لأسكنك الظلام.*

وابتسم ليكشف عن أسنانه السوداء، وأخذ يقص شعرها وينثر خُصَله في أرجاء المكان، ثم ابتعد عنها عدة خطوات ونظر إليها وقال:

- *مازلت جميلة يا جورجيت!*

فبدأ يشوه وجهها وجسدها، ولم يتوقف إلا بعدما ظنَّ موتها، فهزها بقوة وهو يصرخ:

- *لا تموتي لا أرغب في موتك الآن، لم أشفِ غليلي بعد!*

وعندما تيقن أنها مازالت تتنفس، نظر إليها في سرور، وهو يقول:

- *اختبئي رحمةً بالعيون التي تاقت إلى رؤياكِ، وقولي خلقني الله آيةً في الجمال، وخلق مني سالم الدهري مثالاً للقباحة.*

لا تقوى على الحراك، مقيدة بالسلاسل، جراحها تنزف... ضاعتْ ملامحُ وجهها بين الدماء... رمقته بنظرةٍ غامضةٍ وابتسمتْ قبل أن يُغمى عليها.

بصق عليها وتركها وخرج، وفي اليوم التالي وقف عند باب الحظيرة ونادى في الناس:

- *هلمُّوا إليَّ يا رجال الدهري.*

ولمَّا اجتمع بعضهم قال:

- *ها هي جورجيت الجميلة مَنْ يريدها منكم فليأخذها.*

أشاحوا بوجوههم تفاديًا لرؤيتها مِمَّا أصبحتْ عليه، وهنا ضحك سالم وقال:

- *يا جورجيت الكل اشتهاكِ وتمناكِ، كنت أجمل مخلوقة في الوجود، وأصبحتِ أقبح المخلوقات، فإمَّا أن تمضي حياتك بين الغنم والبقر أو اخرجي ليراكِ الناس، وأكون قد صنعت لهم مثلا في البشاعة ليقولوا إن أرادوا وصف أقبحهم: "أقبح من جورجيت".*

ثم خرج وترك باب الحظيرة مفتوحًا، ومشى بين الناس متفاخرًا بأنه الرجل الذي يفي بوعوده، ولا يترك ثأره.

ومرت الأيام وجورجيت تشارك الغنم والبقر طعامها وشرابها، وذات ليلة تسلل إلى الحظيرة بعض صديقاتها من بنات عائلة الدهري وأحضرن لها عباءة وحجابًا وقفازي يد، وبعدما ارتدتها جورجيت وأخفت جسدها رفعت عينيها إلى السماء وابتسمت.

1977...النظر في المرآة...

قلب فارس يدق وفِكرْه يحدِّثه بأن اللعبة بدأت حيث انتهت، وهرع إلى الصندوق ليفتحه ويكتشف ما يحتويه فوجد حقيبة جلدية تحوي قطعة من القماش ملفوفة بعناية، ففتحها ليجد فيها مجموعة من الأوراق، والصور القديمة، ووثيقة زواج تحمل اسم والدته سعاد الحلوني ومنير سالم الدهري، وقد أوحت إحدى الصور –لما فيها من تشابه ظاهر– أنها لعائلة مكونة من أب وأم وأبناء، وهذا لم يجذب انتباه فارس بقدر أحد الأشخاص الظاهرين في الصورة الذي يشبهه كثيرًا؛ هيئته الجسدية، وجهه، عيناه، شعره، وأنفه، حتى الندبة الظاهرة في ذقنه واضحة...أمعن فارس النظر في الصورة مرات، وانتابته حالة من الذهول، وتساءل:

– *إن هذا التشابه الكبير لا يمكن أن يكون إلا لأخ أو أب! لِمَنْ هذه الصورة؟! أيُعقلُ أن يصلَ التشابه الخَلْقي إلى هذا الحد!*

وصرخ بأعلى صوته بعد أن غلبته الحيرة:

– *مَنْ أنا؟! ومَنْ الذي في الصورة ؟!*

بدأت بعض كلمات ياسمين تدور في رأس فارس وترن في أذنيه بلا توقف:

– *" اسأل أمك كيف حَبِلتْ فيك؟ اسألها مَنْ أبوك؟ وفي أي البلاد أختك وأخوك؟"*

هرول فارس إلى السيارة وفتح الباب، وأزاح بعض قطع الزجاج المتكسر، وجلس خلف المقود وانطلق متمنيًا أن يجد عند أمه تفسيرًا يريحه، يزيد من سرعة السيارة، وكأنه يحاول الهرب من كلمات ياسمين ليطرد من مخيلته أية فكرة تقوده للشك في أمه. اقترب فارس من البيت ومازالت تدور في رأسه خواطر مجنونة، يجيب عليها ويسألها ويرفضها، يؤكدها وينفيها حتى حمل الصندوق ودخل البيت مسرعا إلى غرفته ووضع الصندوق على سريره، وخرج يبحث عن والدته في أرجاء البيت ولكن غيابها زاد من قلقه وأشعل نار حيرته، وشكوكه. أسئلة تحاصر مخيلته عن سرِّ غيابِ أمه عن البيت؛

ربما ذهبت إلى السوق، وربما... وربما... جلس صامتًا؛ فليس لديه سوى الانتظار، وتثاقلت عقارب الساعة ويمر الوقت ببطء قاتل وفارس شارد الذهن ينظم ويرتب أفكاره؛ كيف سيسأل أمه وكيف ستكون طريقة الحوار؟!

رنين مفاتيح يقترب من الباب الرئيس ترافقه خطوات متلاحقة وصرير الباب سبق دخول أمه فانتفض مسرعا لاستقبالها وساعدها في حمل ما جلبته إلى المطبخ، وجلس على الكرسي وطلب منها أن تجلس ليحدثها، فطلبت منه الكلام أثناء ترتيبها بعض الحاجيات، فقام لمساعدتها حتى انتهت، ثم جلست وتنهدت قبل قولها:

- *ما قصتك؟ وماذا وراءك؟ وما الشيء الجميل الذي ذكرك بأمك لتعطيها جزءًا من وقتك؟*

أمسك فارس يدها بكلتا يديه وقبلها، ثم رفع ناظريه إليها، وقال:

- *حبيبتي أمي، أشعر بأن في حياتك سرًا دفينًا، أخبريني ولا تدعيني أهيم على وجهي فيما لن أعرفه من أحد سواك.*

وبنظرة دافئة من عينيها قالت:

- *أي سر تتحدث عنه يا ولدي؟*

فرد متلعثما:

- *سر يتعلق... فيّ... أنا...*
- *ماذا دهاك يا حبيبي؟*

لم يمتلك فارس الشجاعة ليصارحها فصمت قليلا ليفكر وبسرعة قال:

- *هل سمعتِ عن عائلة الدهري من قبل؟*

لم تجب عن السؤال، وبدت على وجهها علامات الاضطراب والقلق فأعاد سؤاله مرة أخرى فأجابته متلعثمة:

- *لم أسمع هذا الاسم من قبل؟ ما القصة؟ وما علاقتك بهذه العائلة، ومَنْ أخبرك عنهم، ولماذا تسأل؟ لماذا تسأل عمَّن لا نعرفهم؟ دعك من هذا الهراء، تكفيني أفعالك، تبيت في الدار يومًا، وعشرة لا أعرف عنك شيئًا، اعْلم أنني لن أظل صامتة إلى الأبد.*

اتكأ فارس على الطاولة صامتًا منتظرًا أن تفرغ من كلامها، ولمَّا انتهت قال لها في هدوء:

- *ولِمَ أنت غاضبة؟! أكلٌّ هذا لأنني أستفسر إن سمعتِ عن عائلة الدهري من قبل، أخبريني يا أماه، ما حقيقة الأمر؟*

ردت أمُّه غاضبة:

- *أخبرتك بأنِّي لا أعرفهم!*



1905...الشام...من ظلام النور إلى نور الظلام...

خرجتْ من عتمة الدهري بعد أن فقدتْ جمالَها واختبأتْ خلف قناعٍ أسود، وبدأت الاستعداد للعودة إلى المغارة حيث قبر أبويها، وقبل رحيلها انتفخ بطنها واكتشفت أنها تحمل جنينًا في شهره الرابع، وعندما وصل الخبر مسامع سالم الدهري جن جنونه بعدما كاد ينسى أمرها، وجمع أقاربه من عائلة الدهري وقال لهم:

- *إن تلك العاهرة حامل، والذي تحمله في بطنها ابن أحدنا!*

واتفق الجميع على إجهاض الجنين أو قتلها؛ لأن معرفة أبيه من المحال، وتطوع عددٌ منهم وعلى رأسهم سالم وضربوها حتى فقدت وعيها، ولكي يريحوا أنفسهم من هذه القضية إلى الأبد حملوها إلى إحدى المقابر وفتحوا قبرًا وألقوها داخله، وتركوها تموت مع جنينها، وعادوا أدراجهم وكأن شيئا لم يكن.

لم تلفظ أنفاسها الأخيرة كما أرادوا، وفي داخل القبر الضيق المظلم فتحت عينيها وشعرت بالأمان والراحة بعدما افقدتهما منذ سنوات، وابتسمت للموت الذي طالما تمنته لعله يأخذها الى أحضان أمِّها! ومن عتمة القبر المُغلق سمعتْ صوتًا خافتًا يكاد يكونُ همسًا يناديها:

- *جورجيت، جورجيت...جورجيت.*

اعتقدتْ أنه ملك الموت الذي سمعت عنه جاء ليقبض روحها، والصوت الهامس مازال يناديها:

- *جورجيت، لا تخافي يا جورجيت، لا تخافي.*

حاولتْ جورجيت أن تتبين مصدر الصوت، حتى أيقنت أنه ينبعث من خلف حجر قد انزاح ليكشف عن فتحة واسعة ينبعث منها النور. امتدت لها يد وهمس الصوت:

- *أمسكي بيدي ولا تخافي يا جورجيت.*

مدَّتْ يَدَها وأمسكتْها فسرت في جسدها طمأنينة لا مثيل لها، وكأن الأوجاع قد غادرتها.

وعاد الصوت هامسًا:

- *أغمضي عينيكِ وسيري خلفي.*

سارت خلفه مُغمضة لمسافة عشرة أمتار حتى همس ثانيةً:

- *توقفي هنا، ولا تفتحي عينيك حتى أخبرك.*

دقائق مرت، والصوت من جديد:

- *افتحي عينيك يا جورجيت.*

فتحتْ عينيها، ووجدَت نفسها في غرفة كبيرة مزينة بالرسومات، وفي داخل الغرفة أسِرَّة، وملابس، وكلُّ ما يلزم الإقامة في هذا المكان.

عاد الصوت الهامس من جديد يناديها:

- *جورجيت، لا تخافي، أنت في مأمن، اجعلي من هذا المكان منزلك، استحمي، وكلي، واستريحي، وافعلي ما شئت، فستجدين كل ما ينقصك وكل ما تريدين، ولكن لا تخرجي من هنا، ولا تفكري في الخروج حتى تضعي طفلك.*

التفتت جورجيت لترَ محدثها، ولكنها لم ترَ شيئًا. وقالت للصوت الهامس:

- *أين أنا؟ ومَنْ يكلمني؟*

فهمسَ الصوت:

- *أنت في مأمن، أنت في بيتك، ولن تريني حتى تضعي طفلك.*
- *هل أنا حية أم ميتة؟*
- *لم تموتي بعد يا جورجيت، والآن ارتاحي ولا تفكري في شيء أبدا، وإن احتجت شيئا ولم تجديه اطلبيه وسيأتيكِ في الحال.*
- *متى سأراك؟*

- *سترينني حينما تتضح طريقك، اهتمي بالحياة التي تحملينها في أحشائك، وبعد ولادتك سترينني.*

واختفى الصوت الهامس، وتلاشى الخوف، وحلَّت الطمأنينة في قلب جورجيت، وأعجبتها حياتها داخل هذا المكان المضاء بنور خافت، وكانت إذا احتاجت شيئا تتكلم وتطلبه لتجده بعد وقت قصير في مدخل سكنها الهادئ، وكأن هناك مَنْ ينتظر سماع حاجتها ثم يذهب ويسرع بإحضارها.

مرَّت الأيام والأشهر وحانَ موعد ولادة جورجيت ووضعتْ بعد ألم وعناء طفلةً كالبدر في بهائه، ولم ترَ وجه مَنْ ساعدها في الولادة، ومع مولدها ازداد المكان نورًا ليصبح كل شيء أكثر وضوحًا، وكأن القمر أطلَّ على المكان احتفالاً بميلادها، نظفتها بالماء، ولفتها، وأرضعتها، وضمتها إلى صدرها.

وبعد ثلاثة أيام عاد الصوت الهامس ليقول:

- *جورجيت...جورجيت، مبارك ما رُزقتيه يا جورجيت.*

فرحت لعودة الصوت الهامس الذي ألفته، وقالت:

- *لقد وعدتني بأنني سأراك بعدما أضع مولودي.*

فقال الصوت الهامس:

- *نعم ولكن اصبري حتى تكتمل الأيام السبعة لمولودك وسترينني يا جورجيت.*

اختفى الصوت الهامس من جديد، ومرت الأيام السبعة وجورجيت تعتني بابنتها التي أنستها كلَّ سوء، وفي اليوم الثامن عاد الصوت الهامس، نظرتْ جورجيت ناحية الصوت متلهفةً لرؤية صاحبه فإذا بشخصٍ شديد بياض الثياب يشق طريقه نحوها في الظلام، ولمَّا اقترب منها وأمعنت النظر وجدتْ امرأةً عجوزًا بيضاء الشعر، ارتسمت على شفتيها ابتسامة، وفاض من عينيها حنان الأم لابنتها، فامتلأ قلب جورجيت

بالطمأنينة والفرح، وتمنت لو أنها تقفز في حضنها ولكنها اسرعت لترتدي خمارها وتخفي وجهها المشوه.

فاقتربت منها العجوز صاحبة الصوت الهامس وحضنتها وقبلتها، وقالت لها:

- *كيف حالك يا ابنتي؟*

ابتسمت جورجيت وارتسم الفرح على وجهها، وقالت لها:

- *من تكونين يا خالة؟*

العجوز:

- *ستعلمين يا جورجيت، ستعلمين.*
- *متى أستطيع الخروج من هنا يا خالة؟*
- *بإمكانك الخروج في أي وقت تريدينه يا جورجيت.*
- *أين أنا الآن يا خالة؟*
- *ستعرفين في الوقت المناسب، ولكن لماذا تخفين وجهك يا جورجيت؟! فهنا لن يراك أحد.*
- *لا أريدك أن تشمئزي مني يا خالة.*
- *لا تخافي يا جورجيت، ربما الدهري استطاع أن يسلب جمال جسدك، أما جمال روحك فلا يستطيع أن يسلبه أحد، وإن أردتِ بإمكانك أن تعودي جميلة كما كنتِ، وباستطاعتك الخروج متى شئت.*
- *لا يا خالة لا أريد الجمال ولا الخروج للعيش بين الوحوش.*
- *الخيارُ لكِ، ولكن اعلمي جيدًا أنكِ إن قررتِ البقاء ستصبحين من أهل المكان.*

1977...الحقيقة...

مدَّ فارس يده في جيبه وأخرج الصورة وألقاها على الطاولة أمام والدته، ولم ينطق بكلمة واحدة، فأمسكت الصورة ويداها ترتجفان، وقد اصفَّر وجهها واغرورقت عيناها بالدموع، فأشفق فارس على حالها، وانتقل إلى جانبها وضمَّها إليه وقال:

- *ما القصة يا أمي؟*

تنتحب وتقول:

- *لا أريد أن أفقدك يا فارس.*

هدَّأ من روعها وقال:

- *لا تخافي، يا أمي.*

فقالت باكية:

- *كيف لا أخاف! ماذا فعلت لأجل هذا كله! ليتني أموت وأستريح!*

فقال فارس:

- *حفظك الله من كل سوء، لا تخافي، واحكي لي عمَّا حدث.*

ردت غاضبة:

- *ليس لدي ما أحكيه، كيف عثرت على هذه الصورة؟ مَنْ أعطاك إياها؟*
- *إذا أردتِ أن تعرفي فاعلمي أن مَنْ أعطاني الصورة أجمل فتاة وقعت عليها عيناي.*

تصكُّ وجهها وتبكي وتصرخ:

- *ويلتاه! أين أخفيكَ عنها، ضِعْتَ مني يا ولدي، رحمتك بي يا رب.*

عبثًا حاول فارس أن يهدئ من روعها بعدما أيقظ داخلها خوف المستقبل وألم الماضي معًا، فانتابه الشعور بالندم لتهوره بغير قصد؛ لقد نبش لها ماضيا كان قد انتهى من

حياتها منذ زمن، ولم يكن أمامه فرصة للتراجع، لقد تأكد أن الذي يواجهه لم يعد مجرد لعبة أو تسلية، وأن خلف ياسمين قصة حقيقية.

- *أمي، لن يصير إلا ما كتبه الله، ولن يفيد البكاء شيئًا، وإذا أردتِ مساعدتي فعليك بقص القصة.*

تنهدت، وقالت:

- *القصة طويلة، من أين أبدأ؟ وماذا أقول!*
- *احكي لي عمَّن في الصورة، وماذا تعرفين عن عائلة الدهري؟*
- *في الصورة أبوك ، وأعمامك، وعماتك، وأولادهم، وجدتك، وجدك، وتعود هذه الصورة إلى ما قبل ولادتي وولادتك بزمن طويل، وهؤلاء هم عائلة الدهري الذين تسأل عنهم.*
- *أيعني هذا أن الرجل الذي تعهدني بالتربية ليس أبي؟!*
- *نعم، أبوك الحقيقي من عائلة الدهري.*
- *كيف هذا! لقد تجاوزت الخمسة والثلاثين عامًا ولم أشعر أنه ليس أبي، ولم يراودني الشك في أن كل هذه العائلة ليست عائلتي الأصلية.*
- *الجميع يعتقد أنك منهم، ولا يعرف أحد أنك من الدهري.*

فارس مستغربًا:

- *وهل كان أبي-رحمه الله- لا يعرف أنني لستُ ولده؟*

فقالت:

- *لا تشطح بعقلك يا فارس، لقد تعهد بتربيتك، وكان الشخص الوحيد الذي يعرف هذه الحقيقة، تزوجني أثناء سفره، وبعد عودته لأهله أخبرهم أنك ابنه.*
- *وماذا عن ابن الدهري أبي الحقيقي؟ وما الذي جمعك به؟*
- *لقد كان زوجي على سنة الله ورسوله.*

بدا الارتياح على وجه فارس، وكأنه منذ البداية أراد أن يطمئن على أنه ابن شرعي، وليس أبن زنا، وقال في هدوء:

- *وماذا عن قصة اللعنة التي تطارد عائلتي الشامي والدهري؟ ومَنْ جورجيت؟*

ولمَّا سمعت أم فارس اسم جورجيت تغير لونها وأخذت تردد:

- *بسم الله... بسم الله... لا تذكر اسمها.*

- *أخبريني يا أمي.*

صمتت قليلا وقالت:

- *جورجيت أجمل بنات الشام، بل أجمل بنات الدنيا كلها، وكانت...*

وتلعثمت وأخذت تستعيذ بالله... وهو يُلِحُّ عليها كي تكمل حديثها ويصر عليه، فتجيبه:

- *لا أتذكرها جيدًا، لم أعايش أحداث هذه القصة، وقد سمعتها كما سمع الكثيرون.*

فقال:

- *احكي لي عن جورجيت ولعنتها! وكيف عرفتِ أبي.*

وأمام إلحاح فارس، وفشل أمه في التهرب من الحديث رضختْ لطلبه، وشرعتْ تروي قصتها من البداية.

كان يصغي متأثرًا بقصة والدته المأساوية، وما تحملته من عذاب وألم، فأمسك بيدها، وقال:

- *آسف حبيبتي، سامحيني، لم أتوقعْ كُلَّ هذه المعاناة.*

فردت عليه:

- *لم يكن ذنبك يا فارس، أسألُ الله الستر في الأيام القادمة، لقد جاء دورك بعد خمسةٍ وثلاثين عامًا.*

- *أعلم أنه مِنْ الصَّعب حديثك عن هذا الأمر، ولكن لابد أن نواجه، فالهرب لن يفيد، ينبغي أن تحدثيني عن هذه المجنونة جورجيت.*
- *لا، جورجيت ليست مجنونة، جورجيت مظلومة، لا تتحدث مثلما يتحدث الدهريون.*
- *لقد رأيت أشياء لا يصدقها عقل، فهذه القصة بدأت بالجنون ولن تنتهي إلا إليه.*

فقالت متوسلة والدموع في عينيها:

- *أتوسل إليك يا فارس، لا تتحدث عن جورجيت ثانيةً، وسافر بعيدًا إلى أقصى ما تستطيع بلوغه، لقد أقسمتْ جورجيت، ولن تتراجع عن قسمها.*

فقال مستغربًا:

- *وما الذي جعلك توقنين بأن القصة حقيقية طالما أن أحداثها لم تكن في زمانك، وقد سمعت مثلما سمع غيرك؟*
- *أرجوك يا فارس، لا تظن أنك تعي كل شيء، أنت مازلت صغيرًا ، فالأمر أخطر ممَّا يتخيله عقلك. لقد كانت جورجيت تظهر لكل نساء الدهري، وتقص عليهن قصة ظلمها، وتخبر البنت منهن ألا تتزوج من دهري حتي لا يحمل اسمه و دمه، وتخبر المتزوجة إن أنجبت بنتًا سنحبها ونحميها، وإن أنجبت ولدًا سوف يكون مصيره مصير أبيه وجده، وقبل أن تنصرف تطلب منها السما ، لا تسألني كيف كانت تظهر وهي في عداد الموتى، فالجميع رآها وتحدث معها، والله وحده أعلم بسرها، رحمك الله يا جورجيت، وسامحك على ما تفعلينه بنا. أرجوك سافر ولا تدعها تجدك!*
- *لن أسافر من أجل خرافة، ولابد أن تحكي لي ما لم تذكريه، لقد تغير الزمن، وما عاد يخيف جيلنا ما كان يخيفكم منذ زمن.*

- *صدق المثل العربي؛ مَنْ شابه أباه فما ظلم؛ لم تعش معهم، ولكن طباعك طباعهم، لقد قضيتُ أعوامًا طويلة أضيء الشموع، وأتوسل إلى روح جورجيت أن تتركك، وأخبرتها أنك لن تحمل اسم الدهري.*

ثم أخذت نفسا عميقا وأطردت:

- *اسمع يا فارس، أقسمتُ عليك بالعلي العظيم ألا تتطرق في حديثك عن جورجيت مرة أخرى.*

وخرجت وتركته خلفها حائرًا مذهولاً، لا يدري ماذا يفعل؟ ولا يدري أيصدق أم يكذب؟ ألفى فارس نفسه ضحية حادثة قبل أكثر من ثمانون عام، ولا يدري تفاصيلها، لقد أقسمتْ أمه، وأغلقت الطريق أمامه والآن لا يجرؤ على أن يتحدث معها من جديد.

1908...الشام...الانتقام الناعم...

مرت ثلاث سنوات على دفن جورجيت، وتناسى الجميع قصتها وكأنها لم تكن. وفي ليلة شتاء عاصفة ممطرة يجلس سالم الدهري بجانب موقدة النار، إحدي عينيه أغمضتها جورجيت قبل ثلاث سنوات، والأخرى مازالت تتقد شرا.

يُطرقُ بابُه ففتحه ليرى امرأة ترتدي قناعًا أسودًا، وقد سربلها السواد من رأسها إلى أخمص قدميها، وفي سرعة خاطفة دخلت البيت بغير حديث، فوقف سالم يتفحصها مستغربا وسألها:

- *من أنتِ؟ وماذا تريدين؟*
- *ألم تعرفني يا سالم؟*

فردَّ الذي ما كان ليخاف؛ صاحب قلب أقسى من الحجر:

- *الصوت يذكرني بقباحة صنعتها، ولو لم أدفنها بنفسي لقلت أنك هي.*
- *فتحت قبرا ولم تغلقه جيدا يا سالم.*
- *إذًا اكشفي عن وجهك لأتذكر ما صنعت يداي.*

أغلظتْ له القول:

- *لقد أغمضت لك عينا، وجئت لأغمض الأخرى.*

رفع سالم الدهري يده ليضربها كما اعتاد فيما مضى فأمسكت يده وسحقتها حتى سمع صوت تهشم عظم معصمه، فصرخ من شدة الألم وركع على الأرض، وقالت:

- *ودِّع يُمناك كما ودعتَ ربيحة.*
- *لستِ جورجيت، مَنْ تكونين؟!*

ضحكتْ قائلة:

- *أنا لعنتُك يا سالم، أنا لعنةُ الدهري والشامي، حملتُ لعنتكم في رحمي، مَنْ أبوها يا سالم؟ أنتَ أم أحد رجال الدهري الذين دعوتهم في حظيرة البقر؟*

- *لا أريد لك الموت حتى تتمناه، وإن مِتَّ سأنتظرك في الجانب الآخر لأطارد روحك القذرة، لا أريد إغماض عينك الأخرى حتى ترى كيف سأغمض عيون نسلك، لن أبقي على أحد، لن يحمل اسمك أحد، اجتمع الشر فيكم وفتحتم قبرا واحدًا، وسأفتح لكم ألف قبر وقبر لتسكنوها أحياء.*
- *ستكبر ابنتي لتبحث عن أبيها فيكم، اسمها لعنة وستبقى لعنةً تطاردكم إلى الأبد، جئتُ لأخبرك أن ذكور الدهري لن يسكنوا القصور، أعددنا لكل ذكرٍ قبرا، اجلس وراقب الطريق، انتظر الفتاة التي ربما تكون ابنتك لأنها قادمة، كم أتوق أن أكشف عن وجهي لترى أنك لم تستطع أن تسلبني شيئا! لولا أنني أقسمت أن كل دهري سيراني أو يرى إحدى بناتي سيسكن قبرا مظلما يتداخل فيه الليل والنهار حتى يأتي من يبرأ منك ويتطهر من شرورك، أريدك أن تنتظر وتشهد ما صنعتْ يداك.*

وخرجتْ جورجيت تاركةً سالم الدهري مشدوهًا، ساعات طويلة حاول خلالها مداواة عظمه المهشم، ثم جمع أقاربه وتوجهوا معًا في ليل عاصف ممطر للبحث عن القبر الذي دفنوا فيه جورجيت.

كثر الجدل حول القبر المقصود بين قبور ثلاث حتى أجمعوا الرأي على أحدها، واعتقدوا أن سالمًا قد أصابه الجنون، ولكنهم لم يمنعوا أنفسهم من فتح القبر الثالث، شاهدوا شموعاً مضاءة، واشتموا رائحة زكية عبق القبر بشذاها. يتبادل رجال الدهري نظرات الدهشة، وعجزت ألسنتهم عن النطق بما دار في رؤوسهم جميعا:

- *أين اختفت جثة جورجيت؟! من فتح القبر وأضاء الشموع؟! كيف يمكن للشموع أن تبقى مشتعلة داخل قبر مغلق؟!*

وبدأ سالم الدهري يصرخ بمن حوله قائلا:

- *هل أنتم متأكدون بأن هذا القبر هو القبر الذي دفناها فيه؟!*

أكد بعضهم وشكك آخرون، وأصر سالم على فتح عدة قبور أخرى بحثًا عن جثة جورجيت، رفضوا ذلك وكلٌ منهم يحاول إخفاء الرعب الذي تملكه عن أعين البقية. وقال أحدهم لسالم:

- *هيا نعود إلى بيوتنا، لا يوجد شيء يستحق أن نضيع من وقتنا من أجله، فإن كانت جورجيت على قيد الحياة فما هي إلا امرأة، ولن تستطيع أن تضرنا بشيء، وإن كانت ميتة فمن المخجل أن نخاف من أشباح الموتى.*

أيَّد الآخرون قوله لائمين سالمًا وهمُّوا بالخروج من المقبرة لتستوقفهم ضحكة امرأة. تخشَّبتْ أقدامهم، وزاغتْ أبصارهم في كلِّ زاويةٍ مظلمةٍ، ولم يستطع أحدهم أن يقطع الصمت بكلمة واحدة، ولمَّا همُّوا بترك المقبرة عادت تدوي ضحكة المرأة من جديد، وتتوقف كلما توقفوا؛ فقال سالم:

- *إنها جورجيت تهزأ بنا، لنعثر عليها.*

لم يوافقه أحد، وأجمعوا على عودتهم، وعدم الاكتراث بما يحدث، ولكن الصوت هذه المرة يناديهم قائلا:

- *إلى أين تذهبون يا أبناء الدهري؟ ابنتكم في انتظاركم لتعرف أباها من بينكم، لابد أن يسكن أحدكم القبر الذي فتحتموه، فمن منكم سيسكنه يا أبناء الدهري؟*
- *أنا جورجيت التي أنجبتْ لعنةً منكم جميعًا، جميعكم أبوها يا رجال الدهري، أنا جورجيت، أنا امرأة لن تبقي في عائلتكم إلا كل امرأة، ومَنْ يخش على نفسه من لعنتي فليعلن أنه ليس إلا امرأة.*

توالت ضحكات جورجيت فسارعوا الخطى يفرون من المقبرة حتى تلاشى صوتها، وجميعهم يتساءل في صمت:

- *هل هذا معقول! من تكون صاحبة الصوت؟! هل هي جورجيت حقًا؟! هل هي شبح؟! هل تملك القدرة لتحقق ما قالته؟!*

تملكهم الفزع، يلعنون سالم الدهري سرًا، ولم تنطلق ألسنتهم إلا بعد تجاوز حدود المقبرة، وقد حاول كل منهم تقوية عزيمة الآخر متظاهرًا بثباته وعدم خوفه.

صمتَ سالم طيلة الطريق، وهو أكثرهم قناعة بأن جورجيت ستنفذ ما قالته.

مرت تلك الليلة ثقيلةً على رجال الدهري لم يذوقوا خلالها النوم، وثلاث ليالٍ أخرى واختفى أحد أبناء عمومة سالم، وبعدها اختفى شقيقه، وتبعهما ثالث من رجالهم.

ملُّوا البحث عن المفقودين الثلاثة، وخالطهم الشك في أن لغز اختفائهم ينتهي عند جورجيت، ولم يجرؤ أحد على التلفظ بذلك أمام الآخرين حتى تجرأ أحدهم وذكرّهم بوعيد جورجيت قائلاً:

– *لقد توعدتنا بأن تدخل أحد رجالنا كل قبر نفتحه، وقد فتحنا ثلاثة قبور واختفى منا ثلاثة رجال، فما الذي يتوجب علينا فعله؟*

ترددوا في العودة إلى القبور الثلاثة، وبعدما بلغوا القبر الأول وجدوه مغلقا، وقد نقشت عليه كلمات:

...هنا سيسكن الميت الحي...

...افتحوا القبر أو اهربوا ودعوه...

...هنا سيسكن الحي الميت...

...إن فتحتم القبر لابد أن تسكنوه...

ولمَّا فتحوا القبر خُيِّل لبعضهم أنهم سمعوا بكاء طفلة، ولم يجدوا بداخله إلا الشموع المضاءة، وحجرًا منقوشًا عليه:

...لقد فتحتم قبرًا جديدًا...

...مَنْ سألكم أن تفتحوه...

...اختاروا منكم ساكنه......

...أريد لابنتي أبًا تعرفه...

...كما يعرف جميعكم مَنْ أبوه...

وقف رجال الدهري في حيرة؛ منهم مَنْ يصدِّق ومنهم من لا يريد، وحلَّ على عائلتهم كابوس اسمه جورجيت، ومرَّ شهر واختفى دهري جديد، وكلما مر شهر اختفى معه أحد رجالهم بلا عودة.

تجتمع عائلة الدهري في ظلال من الفزع والغضب يتباحثون فيما بينهم عن طريقة للخلاص من اللعنة التي حلَّتْ بهم. لم تتوقف الأشهر عن المضي، ولم تتوقف عائلة الدهري عن حفر القبور بحثا عن جورجيت وعن أبنائهم المختفين، ولم يظفروا إلا بنقوش جديدة تزيدهم حيرة وتثير جنونهم، وتاهت عقولهم عن كونهم يحفرون قبورهم وقبور أبنائهم بأيديهم، ولا أثر لجورجيت ولا عودة لمن اختفى.

نالتْ شكوكهم من كل شيء، وسكنت قلوبَهم الخيانةُ، وأخذتْهم الظنونُ إلى الشك في بعضهم البعض، ولم تسلم نساؤهم من ظنونهم؛ كان بعضهم يخشى الحديث إلى امرأته في هذا الأمر، وانتهى شكهم إلى أن عائلة الشامي تساعد جورجيت في خطف أبناء الدهري، وبثوا عيونهم للبحث عن طرف خيط يساعدهم في كشف المجهول، وكانت الصاعقة مع علمهم بأن عائلة الشامي –أيضًا– تحفر القبور بحثا عن أبنائها، وأن لعنة جورجيت لم تفرقْ بين دهري وشامي.

انقسمت عائلة الدهري إلى فريقين، منهم من أيَّد البحث عن طريقة لإرضاء جورجيت والتوسل إليها لتتركهم، ومنهم من رأى ضرورة البحث عنها وقتلها بدلاً من الاعتذار لامرأة. ومرت سنوات وعائلة الدهري تحاول التعايش مع فقد أبنائها حتى اعتادوا هذا الأمر، ولم يعد رجالهم يجترئون على ترك ديارهم ليلاً خوفا من شبح جورجيت.

1977...الكاهن...

جلس فارس يناجي نفسه:

- *لمْ تكذب عليَّ ياسمين كل ما أخبرتني به كان حقيقة، نعم أنا ابن الدهري، ولكن من تكون هي؟! لستُ خائفًا من لعنة أو قصة غامضة، وإنما من فقداني لها، ليتها تعلم كم أحبها!*

بحث كثيرا عن شخص يبطل هذه اللعنة ليحتفظ بمحبوبته ياسمين فقصد أحد المشعوذين في مدينة جنين، وقد كان المشعوذ أغبى من أن يفهم هذه الأمور المعقدة، ولكن فارس لم يجد بُدًا من التجربة بالرغم من قناعته بسخافة هذه الأمور، كما قصد كاهنًا سامريًا في مدينة نابلس، ودخل بيت الكاهن وانتظر في الردهة قليلا ثم دخل غرفة المشعوذ تفحصه الكاهن بعينيه وقال له:

- *أهلا وسهلا بك يا بني.*
- *أهلا وسهلا.*

وبدأ الكاهن بإلقاء محاضرته المتضمنة عبارات "الشفاء من الله"، "لكل داء دواء" التي يكررها عشرات المرات لعله يستطيع أن يحدد علة الزبون! والسبب الذي جاء من أجله، ولكن فارس التزم الصمت، وأكمل الكاهن محاضرته وهو يترقب ردة فعل فارس على قوله، ولمَّا يئس قال له:

- *خيرًا يا بني –إن شاء الله– وسأساعدك بعونه وقدرته.*
- *جئت أسألك عن اللعنة.*

فرد الكاهن:

- *لعنة الله على الشيطان، أخبرني اسمك واسم أمك.*

فأخبره فارس، وأخذ الكاهن يكتب ويحسب وينظر في كتاب أمامه، ثم سأله:

- *بماذا تشعر؟*

- *الأمر لا يتعلق بما أشعر، جئتك لأسألك عن لعنة القبور، فقد سمعتُ أن اليهود أكثر الناس خبرة بهذه الأمور.*

ارتبك الكاهن قليلا، وتحيَّر لأنه لم يفهم القصد، ولم يرد أن يبدو جاهلاً؛ فقال:

- *نعم نحن على دراية كاملة بأسرار هذه الأمور، وبعونه سوف تجد لدينا الحل، والآن أخبرني بالتفصيل ما هي المشكلة؟*

شعر فارس بأن الكاهن يراوغه ولا يدري شيئا، فقال له في حزم:

- *لقد جئتك ولا أريد أن أضيع وقتك الثمين، وسأدفع لك ما تطلب مقابل معرفتي عن لعنة القبور؛ ماهيتها وكيفية الخلاص منها.*

ولمَّا أبدى استعداده لبذل النقود تشجع الكاهن على البحث في الكتب القديمة التي ورثها عن أجداده، لعله يجد شيئًا! وبعد مرور نصف ساعة من البحث عاد الكاهن إلى فارس مبتسما وكأنه قد وجد ضالته.

جلس وفتح كتابًا أثريًا قديمًا، ونفض عنه طبقة من الغبار، وأخذ يقرأ ويترجم لفارس قائلاً:

- *طبقًا لما ورد في كتبنا القديمة يعود تاريخ لعنة القبور إلى آلاف السنين، وقد حدثت في المرة الأولى مع "بنات رفقة" حينما قرر "الراب" أن يدفنهن في بئر "الزعق" في "أورشليم"، وبعد عام تأكد "الراب" أنه دفنهن ظلما فدفن نفسه حيا تكفيرا عن جرمه، ومنذ ذلك الوقت وفي كل عام يسمع الناس صراخا منبعثا من البئر بشكل مستمر، فيعرفوا أن بينهم ظالم، فيقدمون القرابين بجوار البئر، وينصفون المظلوم، ويبعدون الظالم حتى أنه في ذلك الوقت، لم يعد هناك أحد يجرؤ على ظلم أحد خوفا من "زعقات البئر"، وقد سميت هذه اللعنة بـ"لعنة بنات رفقة"...*

1917...الشام...البحث عن حل اللعنة...

ومرت سنوات وعائلة الدهري على حالها حتى وصل مسامعهم خبر امرأةٍ عجوز في بيت المقدس، تمتلك قدرات خارقة، فأرسلوا في طلبها لتساعدهم في الخلاص من هذه اللعنة التي أصابتهم، فرفضت العجوز الذهاب إلى الشام، فأرسلوا وفدا لمقابلتها، وأخبروها بمصيبتهم.

فقالت العجوز:

- *لقد أصابتكم لعنة القبور، وإن لم توقفوها الآن فستستمر أبدَ الدهر.*
- وكيف *نوقفها؟*
- كم *قبرًا فتحتم؟*
- عشرين *قبرًا.*
- وكم رجلاً *فقدتم؟*
- سبعة عشر رجلاً.
- *اختاروا من بينكم ثلاثة رجال ليسكنوا القبور لسبعة أيام، فمن استطاع منهم أن يحافظ على عقله خلال الأيام السبعة سيخرج ولن تصيبه اللعنة، وبعدها احذروا أن تفتحوا قبرًا إلا لدفن موتاكم، واحرصوا على إضاءة الشموع في بيوتكم ليلَ نهارَ حتى تكبر ابنة جورجيت، ثم ابحثوا عنها واعرضوا عليها خيرة شبابكم فإن أحبَّت أحدَهم وأحبَّها ستتزوجه ويسكن معها القبور حتى تنجب منه أنثى، وحينها ستخرج من الظلام وتنتهي اللعنة إلى الأبد، ولا تنسوا إن لم تبحثوا عنها ستبحث هي عنكم، أمَّا عمَّن اختفى من رجالكم فمن بقي منهم على قيد الحياة ستجدونه هائمًا على وجهه في البراري.*

1977...لا نهاية قبل معرفة البداية...

ارتسمت على شفتي فارس ابتسامة ساخرة، فكل ما حكاه هذا الكاهن السامري هي قصة من القصص القديمة المتعلقة بالتوراة، ولا دخل لها بما يحدث مع فارس.

نظر الكاهن إلى فارس وهو ينتظر منه النقود مقابل قصته، وفي لحظات انتظاره فوجئ فارس بدخول المقنعة السوداء، وجلست إلى جانبه وتأبطت ذراعه. تسمَّرتْ عينا الكاهن عليها متعجبًا، وتعاظم ذهوله عندما لاحظ مفاجأة فارس من رؤيتها.

وأخذت ياسمين تميل على فارس في غنج ودلال، وهو يبتسم محاولاً الملاطفة، وملامح وجه الكاهن وعيناه المتسمرتان على ياسمين تثير الضحك، وما كانت لتكتفي بما أحدثته من إرباك، ووجدتها فرصة للتسلية، وقالت للكاهن السامري:

- *كيف حالك يا كبير؟*

فرد الكاهن مرتبكا:

- *أهلا...أهلا يا ابنتي.*

فقالت:

- *هل وجدت حلاً لمشكلة فارس؟*

نظر الكاهن إليهما محاولاً محو ربكته عن وجهه، وابتسم قائلاً:

- *مَنْ أنتِ يا ابنتي؟*

قاطعته ياسمين قائلة:

- *أعلم أنه لا يخفى عليك أمرًا، ولابد أنك عرفت أني زوجته وحبيبته، ولكنه استحى من دخولي معه لحرجه من الحديث عن مشكلته في حضرتي.*

ونظرت ياسمين إلى فارس ومالت برأسها المقنع على كتفه، وقالت:

- *حدِّث ولا حرج من أجل مساعدتك.*

ابتسم فارس ولا يدري ما الذي تسعى إليه ياسمين، أمَّا الكاهن فوضع يده على خده وانتظر حديث فارس.

وزادت ياسمين في تدللها، وقالت مصطنعة الحياء والخجل:

- *إذا أردت سأتحدث بدلاً منك يا فارس، ولكن لا تنظر إليَّ حتى لا أخجل.*

ثم نظرت إلى الكاهن، وقالت له:

- *المشكلة لا تخفى عليك... أعطه شيئًا أو افعل شيئًا حتى... لابد أنك فهمت قصدي.*

شعر الكاهن أن ياسمين تسخر منه، ولاحظ أن فارس يخفي ضحكاته فقال:

- *لم أفهم شيئًا، فإمَّا أن يكون الكلام واضحًا، وإمَّا... ليس لدي وقت لأضيعه.*

حاول فارس ملاطفة الحوار، ولكن ياسمين أسرعت بقولها:

- *أستحي من الحديث الواضح، تزوجنا منذ زمن، وليس لدينا أطفال.*

احمَّر وجه فارس، وابتسم الكاهن وقال:

- *هذا يعني أنك لا تنجب يا فارس؟*

لم تمنح فارس فرصة الرد وقالت:

- *المشكلة لا تقف عند هذا الحد، المشكلة تتعلق بالزوج الذي يقصر في حق زوجته، ولن أوضح أكثر من ذلك.*

نظر الكاهن إلى فارس وابتسم وقال:

- *ولِمَ لم تفصح منذ البداية، كنتُ أعلم ما أتيتَ من أجله يا فارس، ولكني أردتُ أن تتحدثَ بنفسك، ولِمَ الحديث عن هراء القبور واللعنات! سأعد لك دواءً وسيكون مُتاحًا بعد سبعة أيام، ولكنه عال التكلفة.*

فقالت له:

- *لا تهم التكلفة، طالما أن فارس سيكون... لابد أنك أدركتَ القصد.*

رد الكاهن:

- *فهمت، ولكن لابد أن تدفعا الآن مائة دينار.*

فلكزت ياسمين فارس على كتفه وقالت له:

- *أعطه مائة دينار، ويستحق أن يطلب ألفًا.*

فاستغل الكاهن الفرصة وقال:

- *هذا اتفاق مبدئي، وعند أخذ الدواء سنتحدث في التكلفة النهائية.*

وأخذت ياسمين تحث فارس وتستعجله ليدفع للكاهن، ولم يكن أمام فارس إلا أن يدفع ما يعادل المائة دينار، وهو لا يدري لماذا يدفع، ومن أجل ماذا؟!

خرجت ياسمين من بيت الكاهن وهي تتأبط ذراع فارس، وسارا ناحية السيارة، وبالرغم من غضب فارس على خسارته مائة دينار، إلا أن سعادته برؤية ياسمين غلبت غضبه.

وصلا إلى السيارة وطلبت ياسمين أن تقودها إلا أن فارس ضحك وقال:

- *ألم أتعلم من قيادتك المجنونة في المرة السابقة كي أسمح لك الآن!*

يقود فارس السيارة ويسأل ياسمين:

- *كيف عرفتِ مكاني؟*

فقالت ياسمين وهي تضحك:

- *أنا ياسمين وأستطيع الوصول إليك ولو كنت في أقصى الأرض يا حبيبي.*
- *أغمرتك السعادة بعدما أعطيتُ هذا الأهبل مائة دينار.*
- *الأكثر هبلاً مَنْ ذهب إليه؛ فمَا الذي أوحى إليك بذلك؟ أتعتقد أن هؤلاء المجانين يفهمون شيئًا؟ أم تريد أن يساعدوك في الهرب مني؟*

نظر إليها وقال بصوت رقيق:

- *أستطيع الهرب من الدنيا كلها، وما يطاوعني قلبي في الهرب منك يا ياسمين.*
- *ولماذا ذهبت إلى هذا الكاهن، هل تشكو من شيء!*

وضحكا سويًا على تلميحاتها.

صمت بضع دقائق وصمتتْ معه ياسمين، وكلاهما ينظر باتجاه صاحبه ويحدث نفسه:

- *وماذا بعد؟!*

كسر فارس الصمت سائلاً:

- *وما الخطوة القادمة في هذه اللعبة المجنونة؟ وكيف سنصل إلى نهايتها؟*

ردت عليه بنبرة غلب عليها الأسى:

- *لا نهاية قبل فهم البداية.*

فسألها:

- *أين البداية إذًا؟!*
- *البداية اسمها جورجيت، وحينما تكون مستعدا لأن تصدق وتفهم، سأروي لك حكايتها.*

رد عليها:

- *أسفًا بعد أكثر من ثلاثة عقود اكتشفت أني ابن الدهري! وما عدت أشك في هذا، أصدق وسأصدق كل ما سأسمعه منك*

تنهدت وقالت:

- *أخيرًا أشعر بأنك صادق مع نفسك، ولهذا سأقص عليك مأساة جورجيت التي أبصرت النور عام 1887، والتقت الشر في الخامسة حينما اغتصبوا أمها أمام عينيها، وفي السابعة دفعها قلبها الطاهر على الاعتناء بالذئاب وإطعامها، وراقبها الشر تكبر وتكبر؛ جوعٌ، وقهرٌ، واغتصابٌ، وأوجاع، ثم دفنوها حية، وهي تحمل بنتًا في أحشائها. ساعات وياسمين تروي لفارس عن الصغيرة التي أطعمت الملائكة، ولم يستطع فارس أن يخفي توجعه*

لمأساة جورجيت، ولم يكن باستطاعته أن يوقف دمعة تسقط من عينيه بين الفينة والأخرى، ولم يكن ليتوقع أن على وجه البسيطة أناسا بهذه القسوة، ولا سيما إن كانوا أهله وعشيرته.

صمتت ياسمين قليلا ونظرت إلى فارس لترى آثار الدموع في عينيه وقالت له:

- *علام تبكي يا فارس؟ أتبكي على حالك، أم على قدرنا؟*

اختلط صوته بنحيبه قائلاً:

- *ما حدث لي لا يعدل شيئًا ممَّا حدث لكم، ولا أدري كيف أساعدكم!*

فقالت ياسمين:

- *عليك بمساعدة نفسك! فلسنا في حاجة لمساعدة أحد.*
- *كيف أساعد نفسي؟*
- *أنت تعرف يا فارس.*
- *وهل الحل بأن تفتحي لي قبرًا لأسكنه؟؟؟!! وأنا...*

قاطعته قائلة:

- *لن أفتح لك قبرًا لأنك فتحتَ الكثير، اذهب واختر لك واحدا واسكنه، وسوف يتوه عقلك بعدها.*
- *أنا لا أخشى القبور، أنا أحبك حقًا، ويدفعني حبي إلى الرغبة في أن ننهي هذه اللعنة لتخرجي وتشاركينني الحياة بعيدًا عن ظلمة القبور والنفوس.*
- *أنت دهريّ يا فارس، وقد علمتنا أمي أن الدهري لا يحب إلا ذاته.*
- *لا علاقة لي بهذه العائلة، وأتعفف عنها، وأنا ضحية جرائم لم أقترفها، ولم أرَ مُقترفيها.*

- *اللعنة تبقى لعنة إلى الأبد، رجوتك ألا تكشف الخمار حتى أجد الطريقة التي تساعدك وتساعدني ولكنك أبيت، حذرتك أن كل من يرى وجه إحدى بنات جورجيت سيغرق في الظلام.*
- *لم أعرف أن الخمار يخفي وراءه كل ذلك، وأنا الآن سأفعل أي شيء لإبطال هذه اللعنة مهما كان الثمن؛ لن أمانع أن أسكن قبرا ولا أن أعيش معك تحت القبور، كل ما أريده من هذه الحياة هو أنت فقط ولا يهمني ما يحدث بعدها.*

ضحكت ياسمين:

- *هذا ما قاله أبي لأمي ثم هرب ولم يأبه، وقضى علينا أن نُولد في عتمة القبر.*
- *كل شيء له بداية لابد أن يكون له نهاية.*

ردت:

- *إلا لعنة القبور لا نهاية لها.*

باستياء قال:

- *لا نهاية لها لأنه لم يرغب أحد في إنهائها.*
- *هذا ما كتبه الدهري علينا وعليه.*
- *لا أتحدث بشأن قذارة الدهري، وأنا أول الساخطين عليه، ولكن مرَّت الأجيال على فعلته الدنيئة، ودفع العشرات الثمن، ألا يكفي ذلك؟ وهل يجب أن يحمل كلُّ جيل جرائم مَنْ سبقه!*

غضبت وقالت:

- *لم نقتل ولم نؤذ الدهري! لقد فتحوا القبور وسكنوها ولم يجبرهم أحد!*

فارس بحزن:

- *هل يُعقل أن يفتح أحد قبرا ويسكنه بمحض إرادته!*

رفعت ياسمين حاجبيها ورمقت فارس بنظرة غريبة يملؤها الغموض والثقة وقالت:

- *لِمَ لا تسأل نفسك هذا السؤال؟! فتحتَ قبرا، وستسكنه قريبا، ولم يجبرك أحد على ذلك، كنتَ صاحب القرار والخيار.*

فقال:

- *صدقتِ ولكن ألم تسحريني بجمالك؟!*

ضحكتْ بأعلى صوتها:

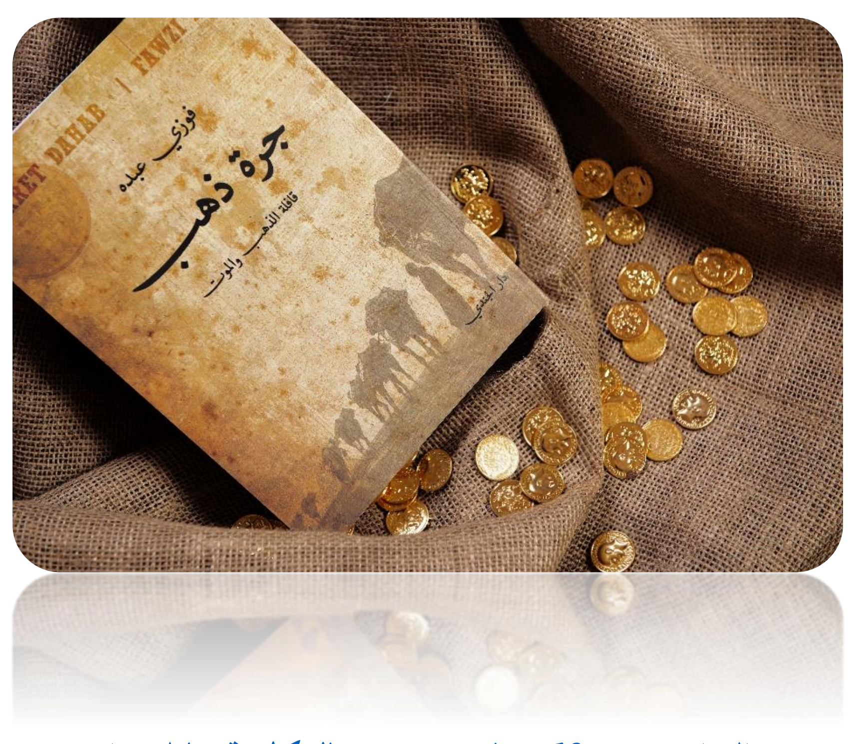
- *لم أسحرك ولم تراني، وكنت تعتقد أني قبيحة أم نسيت ما حدث في حيفا، وسأبوح لك بسر صغير؛ إنَّ فتح القبر يجب أن يتم بكامل إرادة الشخص.*
- *ما عدتُ قادرًا على فهم هذه الغرائب، وأتوه في قدراتك العجيبة.*
- *لن أتوانى عن تنوير عقلك بما تعجز عن فهمه، فليس لدي عملٌ سواك.*
- *هل مات مَنْ دخل القبور من الدهريين؟ أم ماذا حدث لهم؟*

فقالت ياسمين ساخرة:

- *ألم تقل أنك مستعد لدفع الثمن مهما كلفك الأمر؟ هل غيرت رأيك؟ لا ترتعب يا حبيبي فمن خرج منهم من قبره ولم يفقد عقله تعلَّم ألا يؤذي أحدا في حياته، وألا يتباهى بكونه دهريًا، وحقيقةً كان معظم رجال الدهري يخرجون فاقدي عقولهم لأنهم لم يكن لديهم عقل من البداية.*

فقال فارس مازحا:

- *ألم يتبق غيري من رجال الدهري؟!*
- *بقي بعضهم مشتتين هنا وهناك، ولكني تركتهم لأختي وردة لتتسلى عليهم!*



الرواية متوفرة pdf على الانترنت وبالإمكان تحميلها فورا

1918...الشام...نساء الدهري...

في إحدى الليالي توجهت مجموعة منهن إلى حيث دفنت جورجيت، وأخذن ينادين بأعلى صوتهن على جورجيت، ولكن عبثًا كان ندائهن، فأشعلت إحداهن الشموع على قبرها قبل أن يغادرن، ولمَّا أضاءتْ الشموعُ لاحتْ جورجيت قادمةً من بعيد وكأنها تعمدت ألا تفاجئهن حتى لا تخيفهن، اقتربت منهن تزين وجهها ابتسامة مُطمئنة، وعانقتهن وجلست معهن وسألتها إحداهن:

- *يا جورجيت، هل أنتِ على قيد الحياة أم أنك...*

ابتسمت وقالت:

- *لا يا حبيبتي أنا أنعمُ بحياتي ولستُ في عِداد الموتى.*

وسألت أخرى:

- *هل أنتِ حقًا وراء اختطاف رجالنا وقتلهم؟*

صمتت ولم تجب على السؤال، فأعادت الفتاة السؤال ثانيةً، فتنهَّدت جورجيت وقالت:

- *أنا لم أختطف أحدًا، ولم أقتل أحدًا.*
- *ولكن أين اختفى الرجالُ؟ ولِمَ يتهمونك بقتلهم؟*

صمتت جورجيت، ومع إلحاحهن لم ينلن منها إلا الصمت، فقالت إحداهن باكية:

- *سامحيهم من أجلنا يا جورجيت؛ فهم أزواجنا، وأبناؤنا، وآباؤنا، وإخوتنا، وأعمامنا، وأخوالنا، وجميعنا ثكلى بفقدهم، ومهما عظُمتْ شرورهم فلن نستطيع العيش على ضعفنا بدونهم لو فنوا جميعًا، ولا تنسي أننا جميعًا نحبك ولم نتمن لك إلا الخير ، نناشد فيكِ القلب الملائكي الطاهر، نتوسل إليك يا جورجيت أن تسامحيهم من أجلنا.*

وانقطع صوت المرأة بعدما خنقتها الدموع وشبَّكت أصابعها فوق غِطاء رأسها حالك السواد، وألقت عينيها في حجرها، ولم تتوقف عن الانتحاب، فبكتْ جورجيت قائلةً:

- *حرَّموا عليَّ رؤية الشمس إلى الأبد، فما ذنبي؟ وما ذنب ابنتي التي لا أعرف لها أبًا؟ أنتن تعرفن أزواجكن، وأبناءكن، وآباءهم وتتوسلن من أجلهم على ظلمهم وتجبرهم، وأنا لا أعرف منهم أبًا لابنتي المسكينة؟ تُردن أن أسامحهم من أجلكن، سأسامحهم على ما ارتكبوه في حقي وحق أبي وأمي، ولكن هل ستستطيع ابنتي أن تسامحهم عندما تكبر وتواجه مأساةً كُتبتْ عليها بغير وجه حق؟*

امتنع الجميع عن الكلام، وساد الصمت، ثم وقفت جورجيت وقالت:

- *يا بنات الدهري كلكن أخواتي، وبناتكن بناتي، أحبكن وسأظل إلى الأبد وسأعلم ابنتي هذا الحب، وسأعيدها عليكن؛ أنا لا أقتل أحدًا، ولا أخطف أحدًا، ولكن عقولهم مخطوفةٌ لما ليس لهم؛ فرجال الدهري يحفرون قبورهم بأيديهم، ويسكنونها بإرادتهم، ولن تتغير هذه الحال طالما أنهم يجترؤون على حفر القبور التي سأظل أسكنها مع ابنتي، فسامحوني ولا تلوموني، ولوموا رجالكن وأخبرنهم ألا يفتحوا قبرًا حتى لا يسكنوه.*

وأدارت جورجيت ظهرها وسارت مبتعدة حتى غيَّبها الظلام.

1977...دموع وحيرة...

اقترب فارس من ياسمين وأمسك بيدها دون ممانعة قائلاً:

- *أحبك، أحبك، ولا أريد في دنياي سوى أن ينتهي هذا الكابوس.*

رفعت ياسمين رأسها وقالت في حزن:

- *لو كان هذا الأمر بيدي لأنهيته حالا.*

فأجابها:

- *وماذا ستفعلين؟*

بكت ياسمين وقالت:

- *لا أدري! لقد تعبت، وعليّ العودة إلى والدتي وأختي وأسلمها العهد من جديد، لربما استطاعت فعل شيئا ما.*

وسحبت يدها من يده، وتركته وسارت بين الأشجار فلحق بها ليستوقفها فتوقفت ونظرت إليه نظرةً حانيةً وعاودت السير من جديد.

لم يستطع اللحاق بها وكأن قوة مجهولة منعته من ذلك، وجلس على صخرة واجمًا يفكر ويفكر، ثم قاد سيارته وعاد الى منزله في الناصرة.

أمَّا ياسمين التي لم تستطع أن تخفي حبها فقد سارت عبر طرقاتها السرية الغامضة حتى بلغتْ إحدى المقابر، وجلست على حافة قبر قديم شاردة الذهن تبكي، لا تأبه بشيء، ثم جففت دموعها وكأنها تتهيأ لمقابلة أحد، وحرصتْ ألا يشعر ببكائها، وأزاحتْ حجرًا في إحدى زوايا القبر لينفتح من خلاله باب صغير دخلته واستدارت لتعيد الحجر مكانه ونزلت فوق درج قادها إلى سرداب ممتد تزينه رسومات وحروف قديمة، ويضيئه نور خافت منبعث من فتحات صغيرة لا تكاد تبين...تسير بخطى حزينة متباطئة حتى وصلت إلى نهاية السرداب المغلق بجدار حجري، ووضعت يدها على طرف الجدار فانزاح وأفضى إلى سرداب آخر، دخلته فانغلق الجدار من جديد.

1920... جورجيت وابنتها لعنة...

تتأمل جورجيت ابنتها وتقول لها:

- *أرى فيكِ صورتي قبل عشرين عاما، اغتصبوني أمام عيني جدتك وحملوني لسالم ليغتصبني كل يوم، وبكيت من وجعي وحزنت من أجل الملائكة التي لم يعد هناك من يطعمها بعد سجني، اتركي شرهم يحرقهم، ولا تدعي الشر يتملكك حتى لا يحرقك، أطعمي الملائكة بين الحين والآخر، ولا تنتظري منها أن تحميك.*
- *اليومَ أنتِ أجمل بنات الدنيا، جمالٌ حُرم من الشمس، ولم يُحرم من الحياة، هذا قدري وقدرك، لم نسع إليه بل سعى إلينا! جمالُك هذا سيُدخل الظلمةَ كلَّ من يراه حتى يصنعَ الحبُّ لك النور، ويُخرجك من عتمةِ النفوس والقبور، وقدرُك ألا يكون هذا إلا من نسل العائلة الملعونة، هذا قدرُك ولا أريد أن يكونَ قدرَ ابنتك من بعدك.*
- *بنيتي، ظلمونا ولم نظلمهم، وكُتبتْ عليك مطاردتهم أينما ذهبوا، لن تظلك الشمس إلا إذا أخرجكِ أحدهم، أو لم يبق ذَكَرٌ من نسلهم.*
- *بنيتي، قبل سنوات عاهدتُ العجوزَ وأهل المكان أن نحمي المظلومين وألاَّ نرحم الظالمين، وفي ظل هذا العهد لا تخافي، لن يظلمك أحد، ولن يؤذيك أحد، وملعونٌ من تجرَّأ وفكَّر.*
- *بنيتي، العهد يمنحك نورًا أقوى من نور الشمس الذي حرمتُك منه لأحميك، ولذا لم أسمحَ لك بترك القبور حتى لا يستميلُك نورُ الشمس، انتظرتُ حتى تكبري لأسلمك العهد، والآن اخرجي وأكملي طريقي، ولا تخافي فلن تكوني وحيدة، وإن سألوكِ عن اسمك فقولي لهم اسمي لعنة، أحبي وتزوجي وأنجبي ثم استبدلي اسمك فالحب الذي ستنجبينه سينهي اللعنة إلى الأبد.*

ارتدتْ لعنةُ الخمار وخرجتْ للمرةِ الأولى من عتمةِ القبور إلى العالم الذي لم تره أو تعرفه منذ طفولتها وفهمت ما قصدته أمُّها بعالم الشمس.

وبدأتْ لعنةُ تتعرف على عائلتها –عائلة الدهري– من بعيد دون أن تقترب منهم أو تحدثهم، واستمرت على هذه الحال قرابة العام.

وكان لقاؤها الأول بسالم الدهري عندما دخلت عليه ليلاً ووقفت أمامه، وقالتْ:

- *لقد جئت لأغمض عينك الثانية يا أبي أو عمي أو ابن عمي، كنت أتمنى أن أرى أمامي ذلك الوحش الذي اغتصب أمي ولكني لا أرى إلا عجوزًا أعور مُتهالكًا، لا لن أغمض عينك الأخرى أريدها أن تبقى حتى ترى الخوف في عين كل دهري، ربما تكون أبي لهذا سأمنحك أن تختار واحدًا من أحبتك لأبدأ به وأسكنه قبرا، وإن لم ترغب في الاختيار فلن أبدأ بمن تبقى من أبنائك، أريدهم أن يلعنوك كلَّ يوم قبل أن أغرقهم في الظلام الذي صنعه لهم أبوهم، لم أكن أعي سبب دعوة أمي لك بالعمر المديد، والآن سأشاركها الدعاء، وسأبوح لك بسر حتى أمي لا تعرفه يا سالم،* ***لن أطعم الملائكة حتى لو تضورت جوعا!***

استدارت لعنة الصغيرة وتركتْ سالمًا غارقًا في مصيره الملعون.

1935... الشام...لعنة والحب...نهاية وبداية...

لم تكترث لعنة بالحياة فوق الأرض وتحت الشمس؛ فقد وجدت فيها الظلمة الحقيقية ألا وهي ظلمة نفوس البشر، ففجرت غضبها وبدأت رحلة الثأر، توقع كلَّ مَنْ تختاره من الدهري في حبِّها، وعندما يصرُّ على رؤيتها تبتسم وتحذره ثلاث مرات، وإن أصر تتركه يكشف عن وجهها ليطاردها ويفتح قبرا ويسكنه ليصاب بالجنون ويهيم على وجهه بالبراري بحثا عنها، وعاد كابوس القبور ليحل على عائلة الدهري من جديد.

ومرت سنوات وسنوات من الانتقام حتى أحبَّت لعنة أحد شباب الدهري، وأحبها ووافق على أن يمر باختبار القبر لسبعة أيام وشاء القدر له السلامة فخرج وتزوجها وعاش معها تحت القبور، لا يخرج ولا يرى شمسا، ومرت الأيام وحملت منه، وكانا في سعادة بالغة آملين في أن يمنحهما الله بنتا ليخرجا إلى الشمس بعد مضي أربعين يوما من مولدها وتنتهي اللعنة مع خروجهما، ولكن إن منحهما الله ذكرًا فيجب أن يبقيا بصحبة ابنهما تحت القبور حتى تنجب بنتا، ولن يسمح لهم برؤية الشمس. وبالرغم من توفر الحب وكل ما تشتهيه نفس نعيم الدهري زوج لعنة فقد بدأ يعتريه الوسواس ويصيبه الملل ويسأل نفسه ويجيبها:

- *ماذا لو لم يرزقنا الله أنثى ورزقنا ذكرا؟ هذا يعني أنني يجب أن أبقى معها لا أرى النور حتى تنجب الأنثى، ولكن ماذا لو لم تنجب لعنة أنثى إلى الأبد؟ هل سأبقى تحت القبور حتى أُدفن فيها، أي حياة ستكون هذه!*

صارتْ حياة نعيم جحيمًا مع خوفه من المستقبل واندفع ليأخذ قرارا بالفرار ولم يأبه بأنه سيقتل الأمل في خروج زوجته ووليدها المُنتظر إلى الشمس، أنانية نعيم جعلته لا

يطيق الانتظار عدة أسابيع حتى تنجب لعنة وفرَّ الدهري من ظلمة القبور إلى ظلمة نفسه وتركها وحيدة لا أنيس لها سوى لعنتها وحزنها وبكائها، وأدركتْ أن قدرها قد كتب لها أن تبقى تحت القبور، وتذكرت قول أمها جورجيت بأن أبناء الدهري لا يحبون سوى أنفسهم، وأقسمت ألا ترحم دهريا قط.

وما أسرع مرور الأيام! أنجبت لعنة توأمًا؛ طفلتين متشابهتين كأنهما نصفي القمر، وبدَّد فرحتها بابنتيها الحزن الذي اعتصرها على حظهما؛ فلو انتظر زوجها عدة أسابيع لانتهى كل شيء ولسعد بتوأمه؛ وردة وياسمين.



1977... لعنة الأم والتوأم...

استمرت ياسمين في عبور السراديب المغلقة حتى بلغتْ بَهْوًا واسعًا يزينه أجمل الأثاث. تجلس في منتصف البهو امرأةٌ في أواخر الستينيات من عمرها، بلغت من الحسن والوقار ما يدفع الناظر إليها إلى الاعتقاد بأنها لم تجاوز الثلاثين، وبجانبها تجلس فتاة كأنها مرآة عكست صورة ياسمين التي لم تتمالك نفسها وألقت بجسدها في حضن المرأة وهي تبكي بحرقة وألم.

احتضنتها المرأة وأخذت تمسح بكفها على شعرها وجسدها، رفعت ياسمين رأسها قليلا، وقالت:

- *تعبتُ كثيرًا يا أمي.*

وأعادت رأسها من جديد إلى حضنها وثلاثتهن صامتات لا يتكلمن، مرت دقائق ورفعتْ المرأة رأس ياسمين من حجرها بحنان وأزالت عن عينيها خُصلات الشعر المبتلة، ومسحت الدموع المنهمرة عن خديها وقبلته، وهي تقول:

- *ماذا يبكيك يا حبيبة قلبي؟*

أعادت ياسمين قولها:

- *تعبتُ كثيرًا يا أمي.*

قالت الأم:

- *قدرٌ كُتب ولم نكتبه!*

رفعت ياسمين رأسها:

- *أي قدر يمنعنا من رؤية الشمس! أي قدر يمنعنا العيش كبقية البشر! أي قدر هذا الذي لا نهاية له!*

تأففت الأم:

- *ماذا ينقصك؟ أنت وأختك تتمتعان بجمال لم تحظ به بنتٌ من بنات حواء.*

- *ينقصنا الكثير، ينقصنا الشعور بأننا كبقية الفتيات، وأي جمال هذا الذي لا يراه إلا ملعون! أي جمال هذا الذي يُحرَّم إلا على عدوه! جمال مدفون بين القبور! وإلى متى سنظل نطارد أبناء الدهري.*

اقتربت الفتاة الأخرى من ياسمين واحتضنتها ليشكلا معًا أجمل لوحة تشهد على قسوة البشر، فنظرت إليها ياسمين وقالت:

- *تعبتِ يا وردة؟*

الأم:

- *يا ابنتيّ الغاليتين، أنتما نوري وشمسي، ابكيا كما تشاءان، ولكن احرصا على ألا تبكيا أمام عدوكما.*

وبكلمات ناعمة وبريئة قالت ياسمين:

- *ولم لا نحاول تغيير قدرنا يا أمي؟*
- *لا نستطيع؛ فنحن جزء من عهد جورجيت ولا مفرَّ من الوفاء به.*

قالت وردة:

- *وهذه اللعنة أليس لها نهاية؟*

الأم:

- *لعنة جورجيت تشمل كل أبناء الدهري ومادام أحدهم يعيش تحت الشمس فلن نعيش تحتها أبدا.*
- *ولكن يا أمي لم يبق اليوم أحد يحمل اسم الدهري.*
- *لا يا بنيتي، أبناء الدهري كثيرون، تختلف أسماؤهم، ولكن دمهم واحد.*
- *ولكن يا أمي معظمهم لا يعرفون انتماءهم للدهري، ولا دخل لهم بما حدث.*

الأم:

- *هذه لعنة الدهري ولم نتسبب فيها.*

أرادت وردة أن تتكلم ولكن الأم قاطعتها قائلة لكلتيهما:

- *ماذا بكما؟ هل أنتما ابنتي جورجيت، أم من بنات الدهري؟*

ياسمين:

- *لم ننسَ يا أمي، ولكن الزمن تغير ومات أبناء الدهري الذين دفنوا جدتي جورجيت، وانمحى اسم الدهري من الوجود، ولو لم تمتْ جدتي طيبة القلب لسامحتهم وانتهى الأمر.*

صرخت الأم في غضب:

- *اخرسي، لم تمت جورجيت، ولن تموت أبدًا ولو سامحت هي، فلن أسامح انا أبدًا.*

فقالت وردة:

- *لا تحزني يا أمي، ونحن نعلم أن جورجيت ماتت منذ زمن.*
- *لم تمت جورجيت ولن تموت أبدًا، ألا تفهمان ما أقول.*

ياسمين:

- *كيف هذا يا أمي؟*

بكت الأم وقالت:

- *الملعونة لا تموت، ولا ترتاح، وأنا أقسم ألا يرتاح رجل من نسل الدهري.*

خيَّم الحزن على ثلاثتهم، وأخذت ياسمين ووردة يهدئان الأم لعنة ابنة جورجيت، وعينا إحداهما تقول للأخرى:

- *مَنْ ولد في العتمة كُتب عليه أن يبقى فيها حتى الموت.*

وردة:

- *لا تبك يا أماه، لا يوجد شيء يستحق دموعك الغالية، سنطارد أبناء الدهري، ونلحق بهم الجنون أينما كانوا، ولو هربوا إلى آخر شبر تطلع عليه شمسهم.*

وغمزت بعينها لأختها ياسمين:

- *أليس كذلك يا ياسمين؟*

أومأت ياسمين برأسها دليلاً على موافقتها وعيناها تقولان:

- *إلى متى؟*

لم يخفَ على الأم عدم رضا ياسمين. فقالت ناظرة إلى وردة:

- *ابن الدهري سرق قلب أختك وأنساها أنها حفيدة جورجيت.*

ياسمين صامتة، والأم تقول:

- *لو كان صادقًا في حبه سيضحي من أجلك، ولكن أبناء الدهري جميعهم سواء، وهل سيكون أفضل من أبيك الذي هرب وتركنا ولم يصبر حتى يراكما؟*

ياسمين:

- *وماذا لو قابلنا أبانا الدهري يا أمي.*

سكتت الأم وقالت حزينةً:

- *لن تلتقياه أبدًا.*

وردة:

- *ولِمَ يا أماه.*

الأم:

- *لأنه سافر بعيدًا عن أرضنا، ومات هناك.*

مر وقت وياسمين صامتة تطرق برأسها وأرخت عينيها إلى الأرض، هادئة شاردة الذهن لا ترد ولا تبدِ ردة فعل، ثم عزمت على أن تخرج من صمتها وقالت:

- *أربعة من ذكور الدهري أدخلتهم الظلام... وفارس كان خامسهم، لم أقتحم حياته لأحبه بل لأنك طلبت مني ذلك، أخبرتني أن دوره قد حان ليتعرف*

على قذارة أصله، ولم يحفر قبرًا واحدًا بل حفر قبرين، والقدر لم يفقده عقله، ولم يُجن بجمالي، أحببته ولم أخطط لذلك! ولا أريد إلا أن ندعه وشأنه.

استاءت الأم:

- *إن كان يحبك فليضحِ من أجلك، ليتزوجك إذًا ويسكن معك القبر، ولنر هل سيصبر حتى النهاية أم يفعل مثلما فعل أبوك.*

ياسمين:

- *لا أريد أن أتزوجه ولا أحب أن يسكن معي.*
- *ليس لكِ تحديد قدره، لقد رأى وجهك وفتح قبرا، ويجب أن يغلقه من الداخل، ولم يجبره أحد على ذلك.*

ياسمين ساخرة:

- *هذا كلام تقولينه لهم، ولكننا نعرف أنه لولا دفعنا لهم لفتح القبر لما فتحوه ولما أصابتهم اللعنة.*

اشتاطت الأم غضبًا وأخذت تصرخ، فتدخلت وردة وقالت لياسمين:

- *يا أختي إن كان فارس يحبك كما تحبينه يمكن أن تتزوجينه ويسكن معك هنا ويصبر حتى يخرج جميعنا إلى النور.*

ابتسمتْ ياسمين ونظرتْ لأختها في حزن وقالت:

- *يا وردة، حبُّ الحياة يخيف الناس من كلمة قبور، مَنْ يعيش فوق الأرض ليس مثلنا، وليست طباعه طباعنا، لقد اختلطتِ بهم قبلي يا وردة، هل وصل أحد إلى هنا ولم يذهبْ عقله، لقد أشرف فارس على الجنون، فكيف آتي به إلى هنا؟!*

وبالرغم من احتدام الموقف بالأسى والغضب إلا أن وردة لم تمنع نفسها من الضحك وكذلك ياسمين، فهما يعلمان جيدًا أنه لم يصمد أمام اختبارات الخوف أحد.

خالطت الابتسامات الدموع، ولكزت وردة أختها لتلتفت إلى حيث ظهرت من بعيد عجوز ترتدي الأبيض تسير نحوهم بخطى هادئة.

ظهر القلق والارتباك في عيون وردة وياسمين، وارتسمت ابتسامة على شفتي أمهما، واقتربت العجوز لتسرع إليها لعنة وتنحني وتقبل يدها وكذلك فعلت البنتان، ونظرت إليهما العجوز وقالت بحنان:

- *ما القصة يا ابنتي؟ وماذا يحدث؟*

أسرعت الأم وأجابت:

- *لقد تبدلت ابنتاي يا خالة، انظري إلى اتفاقهما ضدي.*

ربتت العجوز على كتف لعنة، وقالت:

- *مازالتا صغيرتين.*

أطرقت ياسمين ووردة برأسيهما إلى الأرض خجلا، وطلبت العجوز البيضاء منهما الجلوس إلى جانبها ليحدثانها عما حدث.

وجهت العجوز كلامها لياسمين قائلةً:

- *ماذا فعلتِ يا ياسمين؟*

جاوبتها ياسمين ولم ترفع عينيها:

- *لم أفعل شيئًا يا خالة، ولكن على غير إرادتي أحببته، أحببته يا خالة.*

ربتت العجوز على كتفها وتنهدت، ثم قالت:

- *أنا أحبكما، ولا أريد أن يأذيكما أحد، ولا أريد أن يحدث لكما ما حدث لجورجيت، وعهدها الذي انتقل إلى أمك ثم إليكما لا يمنعك أن تحبي يا ياسمين، ولكن لا يجيز لك ما ترغبين في فعله.*
- *وما العمل يا خالة؟*

ردت العجوز:

- *هل تنتوين تركنا يا ياسمين؟*
- *لا يا خالة، أنتم أهلي وما لي سواكم.*

العجوز:

- *نحن نحارب الشر ولا نعتنقه يا بنيتي، جدتك جورجيت لعنت نسل الدهري وأرادت أن يغرقوا في عتمة شرورهم، لم تؤذ أحدا بل تركت الشر الذي سكن أعماقهم ليقودهم، ومن كان في داخله الخير نجا من عتمة القبور، أقسمت أن تلاحق كلَّ ذكر ينتمي لعائلة الدهري أينما كان ليدرك قذارة أصله، وأقسمت ألا تحيا ابنتها تحت الشمس مادام على وجه الأرض ذكر من نسل الدهري يكمن الشر في قلبه.*

وتركت العهد وما يحمله من أسرار لينتقل من الأم إلى ابنتها ومن الأخت إلى أختها، ولم تغلق الطريق أمام انتهاء اللعنة، فإن ظهر دهري واحد أحب ابنتها أو ابنة ابنتها فلابد أن يضحى من أجلها ويثبت أنه يحب روحها وليس جسدها، ويواجه خوفه ويتعرف على أصله ويتبرأ منه، ولابد ألا يراها قبل زواجه منها، وإن رأى وجهها يُمنح فرصةً أخرى ويعيش في قبر لسبعة أيام ثم يتزوجها ويعيش معها في القبر حتى تنجب الأنثى وبمضى أربعين يومًا على مولدها تنتهي اللعنة.

والدك لم يصبر عدة أسابيع أخرى، وغلب شرُّه خيرَه، وتخلّى عن أمك وعنكما، وإن أحبك فارس كما تعتقدين ليسكن القبر سبعة أيام، وبعدها تتزوجينه ليعيش معك حتى تنجبي ابنتك.

فقالت ياسمين:

- *يا خالة، فارس لن يصمد سبعة أيام داخل قبر، وإن استطاع ربما سنحتاج لسنوات لننجب بنتا.*

- *أرى داخلك خوفًا من أن يهرب ويتركك كما فعل أبوك، ولو كان يشبهه فلا يستحق حبك.*
- *لا يا خالة، فارس يحبني وسيضحي من أجلي وأنا على ثقة من ذلك، ولكنني أخاف أن يمسه مكروه.*

لم تستطع لعنة الصمت، وعلا صوتها:

- *لم أتوقع أن تكوني بهذا الضعف! أتخافين عليه لهذا الحد! أنسيت أن فارس حفيد سالم، وابن منير أحد قتلة ربيحة! وليس هذا فقط لقد سُمِّي سالمًا بعد ولادته تيمنًا بجده، أيتها الغبية، ألم تلاحظي أنه يشبهه؟! اسمه الحقيقي سالم... سالم وليس فارسًا! هيا اذهبي وتزوجيه لعلك تنجبين منه ولدا يسميه باسم جده إحياءً لذكراه الطيبة.*

بكت ياسمين واحتضنتها العجوز ولامت لعنة ثم قالت لياسمين:

- *أمك تقصد أن فارس يحمل اسم العائلة واسم جده في الوقت ذاته.*
- *لا أرغب في الزواج منه يا خالة، ولكن أرجو أن نتركه وشأنه.*

ضحكت العجوز وقالت:

- *لقد شاهد جمالك، ولو أردتِ تركه سيبحث عنك ولو اضطره الأمر سيفتح كل قبور الدنيا، لازلت صغيرة ولا تدركين ماذا يحدث لمن يراكِ.*

ضحكت وردة مما قالته العجوز؛ فقد تذكرت ما حدث لأبناء الدهري بعد رؤيتهم لها.

العجوز:

- *إن العتمة الحقيقة تسكن النفوس، والقبور ليست إلا بيوتا من حجارة لا تضر ولا تنفع، والشمس لا تنير قلبا مظلما.*

وشرعت العجوز تشرح لها الطريقة التي تمكنها من الزواج بفارس بعيدًا عن سكن القبور، وفرحت ياسمين كثيرا بما أرشدتها إليه العجوز بالرغم من بعض التعقيدات،

وكانت على ثقة من أن فارس سيوافق بلا تردد، ولكن العجوز طلبت من ياسمين التمهل وترك العجلة. لم تكن لعنة راضية، ولم تتقبل فكرة زواج ابنتها من حفيد سالم. وكانت وردة خائفة قليلا من اندفاع أختها في حبها لفارس، وممَّا قد تعانيه لو أنه لا يحبها كما تعتقد.

العجوز تعلم جيدا أن انتهاء اللعنة مرتبط بموافقة لعنة ابنة جورجيت؛ لأنها مَنْ نقلتها من جيل الى جيل، وتعلم أن ياسمين مارست الخداع لمساعدة فارس، وأنها لن تتوقف عن ذلك حتى لا يفقد عقله جراء الأيام السبعة التي سيقضيها في القبر.

وطريقة العجوز لم تخل من الدهاء لإقناع لعنة بتحرير ابنتها ياسمين، واعتمدت على أن تظهر جورجيت الناطقة باللعنة لعلها تكبح جماح ابنتها لعنة وتحرر حفيدتيها!

طلبت العجوز من ياسمين أن تذهب إلى فارس وطلبت من وردة أن ترافقها وتراقبها من بعيد، واختلت بالأم لعنة التي ساءها تدخل العجوز، فقالت لها:

- *يا ابنتي أعلم أنه لا يحق لي التدخل، ولكن هذه لعنة جورجيت ولنتركها تقرر انتهاءها أو اخراج فارس منها.*

ردَّت لعنة:

- *وكيف ستقرر أمي ذلك؟*

فقالت العجوز:

- *لابد لها أن تظهر لتعلمنا.*
- *يا خالة، تجري دماء سالم في عروق هذا الشاب، هو محتال كاذب مخادع، وياسمين ساذجة، وهي ليست كأختها وردة، ولن يرحمها فارس.*
- *إذًا دعيها تكتشف ذلك بنفسها، ربما كانت قادرة على تغييره، والشروط التي وضعتُها ستتركه أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما التخلي عنها أو التضحية من أجلها، فإن تخلى عنها ستحققين ما تهدفين إليه.*

- *شروطك لم يُذكر فيها القبر الذي فتحه.*
- *لا تقلقي، لا يفتح أحد قبرا ولا يسكنه.*

لم ترض لعنة عمَّا قالته العجوز وتمنت في قرارة نفسها ألا تظهر جورجيت يوما لإنهاء هذه اللعنة، أمَّا ياسمين فقد غمرها الفرح، وتاقت نفسها إلى رؤية فارس لتبشره بما حدث، وهي تعلم دوما كيف تجد فارس لتفاجئه، وكما اعتادت تستمتع كلما أحرجته، وبخاصة إن كان برفقة أحد، وهذه المرة كان برفقه اثنين من أصدقائه في إحدى المقاهي، اقتربت منه وكأنها ظهرت من العدم، وهمست في أذنه:

- *تعال معى الآن، أسرع ولا تفكر وإلا سأجلس برفقتكم واخبر اصدقائك بأني حامل!*

فخرج فارس بصحبتها بغير استئذان أو اعتذار، فقالت:

- *قبلتُ دعوتك إلى أحد المطاعم الفاخرة، ولدي خبر سار من أجلك لا يُقدر بثمن.*

ضحك فارس وقال:

- *وإلى أين ترغب سيادتكم في الذهاب هذه المرة؟*

ابتسمت:

- *كما يحلو لك.*

بدأ فارس البحث عن مكان يتناول الغداء فيه معها، وكان يفضل ألا يكون هذا المكان في الناصرة، أو في أية منطقة إسرائيلية لعلمه بأن ما ترتديه سيثير انتباه الموجودين، ولا بأس إن ابتعد قليلا مادامت بصحبته.

ووقع اختياره على أحد المطاعم في مدينة جنين؛ فهناك يعتادون على رؤية فتيات يرتدين الأخمرة والعباءات على طريقة ياسمين.

وقبل أن يوقف السيارة بمحاذاة المطعم حذَّر ياسمين من مزاحها الذي اعتاد عليه قائلاً:

- *يعتاد الناس هنا على رؤية الفتيات يرتدين مثل رداءك فاحذري من المزاح حتى لا يستغربك أحد.*

ابتسمت ياسمين وقالت:

- *سأحاول.*

ترجَّل فارس من السيارة واتجه ناحية المطعم وبدلاً من أن تتبعه ياسمين تعلَّقت بذراعه لتسير إلى جانبه فتوقف وتتحنح طالبًا منها أن تترك يده وتسير بلا تكلُّف.

فقالت:

- *إمَّا أن ندخل سويًا، وإمَّا أن أدخل وتتبعني، فأيهما تختار؟*

وافق على أن تسير أمامه وتبعها حتى جلست إلى إحدى الموائد وجلس إلى جانبها، وهمس يذكرها بما وعدتْ في تجنب الحرج.

- *وعدتك أن أحاول فاتركني على سجيتي.*
- *ما الخبر السعيد إذًا؟*
- *أولاً تطلب الطعام وبعد تناوله أريد نارجيلة، وسأروي لك مع دوائر الدُّخَان.*

ضحك وقال:

- *نارجيلة...نارجيلة! وكيف تدخنين خلف هذا الخمار، أما تخافين أن ينكشف وجهك.*
- *مثلما سآكل ولا ينكشف وجهي سأدخن كذلك.*

انتهيا من تناول الطعام، وتوسل فارس أن تنسى أمر النارجيلة إلا أنها أصرت على ذلك وكان لها ما أرادت.

أحضر خادم المطعم النارجيلة ووضعها أمام فارس فتلقفتها ياسمين ووضعتها أمامها، ورفعت ساقا على الأخرى، فظهر جزء من ساقها،

وعلى عجل امتدت يد فارس وغطَّتْ ما انكشف من الساق.

ضحكت قائلة:

- *أتغار يا حبيبي؟*
- *أخبريني الآن ما الخبر السعيد؟*
- *سنتزوج بعيدا عن القبور ونسكن حيثما نشاء.*

فارس مستغربًا:

- *هل تمزحين؟!*
- *لقد اتفقنا على ترك المزاح؟*

أمسك يدها في خشوع:

- *تمزحين كعادتك.*
- *أقسم بحياة جدتي الغالية جورجيت أنني لا أمزح هذه المرة.*
- *لا أصدق!*

فقالت محتدة:

- *لقد أقسمت بجورجيت، ألا تعي ما أقول!*
- *أتنتهي اللعنة بهذه البساطة؟!*
- *تمهَّل يا حبيبي، لم أقل إن اللعنة انتهت، مازال أمامنا الكثير، وإن كنت تحبني حقًا ستنتهي.*
- *تعلمين أني أحبك، ولكني لم أفهم.*

فقالت ياسمين:

- *الخالة العجوز وافقت أن نتزوج بدون أن نسكن القبور، ولكن بشروط...*
- *من هذه العجوز يا ياسمين؟ لم أسمعك تتحدثين عنها من قبل!*
- *إنها أمُّنا جميعا "أم المظاليم" ولا نفعل أمرًا إلا بموافقتها.*

1925...جورجيت والعجوز البيضاء...

جورجيت شاردة الفكر غارقة في أحزانها ولم تنتبه لدخول العجوز البيضاء عليها حتى جلست بجوارها، وقالت:

- *بماذا تفكرين يا جورجيت؟*

احمر وجهها خجلاً لعدم انتباهها لدخول العجوز واقتربت منها وقبلت يدها، وقالت:

- *سامحيني يا خالة، لم أنتبه.*

ابتسمت العجوز:

- *لا تهتمي يا ابنتي، والآن حدثيني ما الذي يشغل بالك.*
- *أنا خائفة يا خالتي، خائفة، كلما تركتْ ابنتي لعنة المكانَ وعادتْ إليه أرى في عينيها شرا ما تصورت أن أراه في عيون لحمي ودمي.*
- *لقد انتبهت لذلك أنا أيضا، ربما ستصادف الحب الذي يعيد لها توازن الحياة.*
- *كلُّ ما أردته هو حمايتها من مصير مشابه لمصيري، وأعلم أني قريبا سأختفي من حياتها، وأخشى أن يتملكها الشر.*
- *ابنتك ثمرة الشر الذي زرعوه فيك، ولا يستطيع أحد التحكم فيها، هذا ما صنعه الدهري وهذا ما سيجنيه.*
- *أشعر بأنني قد أخطأت في نطق هذه اللعنة يا خالة.*
- *لم تخطئي، شرهم يقودهم، وخيرهم ينجيهم.*
- *اعتني بابنتي يا خالة، حاربي الشر إن تملكها.*

شروط العجوز...

- *تقصدين أنها إنسانة مثلك ومثل شقيقتك ووالدتك؟*
- *لتكن ما تكون هذا ليس من شأنك، وما يهمك الآن أن توافق على شروطها.*
- *أوافق على كل شروطها.*
- *اعرف الشروط أولاً.*
- *أوافق على كل شرط يبقيني إلى جوارك.*

رأت ياسمين في رده استخفافًا فصمتت بعدما أصابها القلق، وحاول أن يخرجها من صمتها ولكنه لم ينجح حتى استغرب سبب هذا الصمت المفاجئ وأخذ يبحث عن الخطأ.

خرجتْ ياسمين من صمتِها وقالت بلهجة بائسة:

- *كلامك يخيفني، عدم الاكتراث والاستهتار ليس لهما مكان في أمرنا، لقد أغضبت أمي من أجلك، ولا أرضى أن يصيبك مكروه، إنها ليست لُعبة، وشروط العجوز ليست يسيرة، وإن لم تُنفِّذها تضيع فرصتنا الوحيدة ولا جدال في ذلك.*
- *لم أستهتر، وإنما قصدت أنني سأفعل من أجلك أي شيء.*
- *شروط العجوز ستسبب لك بعض الحرج، ولكنها لن تعرضك للمخاطر، لعلها أرادت أن تواجه خوفك بطريقة مختلفة!*
- *شرطها الأول أن تتم مراسم الزواج في إحدى المقابر ليلا بحضور عائلتي –العجوز ووالدتي وشقيقتي– وأن يرافقك ما لا يقل عن تسعة أشخاص، ولا مانع إن زاد العدد حتى يبلغ الألف، وأنا سيسعدني حضور والدتك وأخيك، وستعلن العجوز زواجنا عبر تقاليد أهل المكان بعيدا عن ديانة جدك وديانة جدتي.*

- *الشرط الثاني سنعيش معًا كزوجين مدة تسعين يوما دون أن يرى أحد وجهي بما فيهم أنت، وبعد انقضاء التسعين يوما سنوثق زواجنا حسب الأعراف المتبعة مرة حسب ديانتك والثانية حسب ديانة جدتي.*
- *والشرط الأهم أنه لن يسمح لأحد أن يراني سواك حتى أنجب جورجيت الصغيرة لتصحبها أمي لزيارة جدتي بالشام، ومعها ستنتهي اللعنة، أو تظهر جورجيت لتعلن أمرًا آخر.*

تمالك فارس نفسه من الصراخ وبذل جهده ليترك ياسمين حتى تنتهي حديثها وكتم غيظه واصطنع الهدوء وقال:

- *لا شك أنه مزاح، أهذه هي الشروط السهلة! أهذا أسهل من سكن القبور! جزى الله العجوز خيرًا، ولِمَ لم تطلب فرقة موسيقية فوق المقبرة! ولِمَ لم تطلب أن يضعونا في تابوتين قبل زفافنا إلى مقبرتنا الجميلة! أتخافين عليَّ من الجنون يا حبيبتي! بارك الله في العجوز وأفكارها العبقرية، سيصيب الجنون كلَّ عائلتي، ألم تطلب طبع كروت العرس وأكتب فيها: "تفضلوا لحضور حفل الزفاف في المقبرة السعيدة على ضفاف نهر الآخرة، والعاقبة عندكم في المضرات، والدوام لله"، أم أكتب "ممنوع اصطحاب الأطفال، ونحن غير مسؤولين عن عقول الحضور" حبيبتي...أنا أوافق على سكن القبور؛ فهو أرحم من شروط العجوز الطيبة.*

غمزت ياسمين بعينيها وقالت:

- *انظر حولك.*

أدرك فارس أنه جذب أنظار الجميع فاعتدل في جلسته وحاول أن يبتسم، فقالت:

- *بدايةً إذا تحدثت بهذه الطريقة ثانية سأغادر ولن تراني بعدها، وأنا أعي ما ذكرته جيدًا، وجميعه لا يساوي نوم ليلة واحدة داخل قبر، لا تتعجل في تقييم*

الأمر، واعلم أنها فرصتنا الوحيدة، وإذا لم أهتم بشأنك فلدي أمي وأختي ولا أريد أن يبقيا طيلة عمرهما تحت الأرض.

- *لا تغضبي يا حبيبتي، فأنا أوافق على الزواج منك والعيش داخل قبر حتى تنجبي ابنتنا، وأنا سعيد بهذا، وهكذا سينتهي الأمر بسعادتنا، وخروج الجميع إلى النور.*

ابتسمت ياسمين وقالت:

- *يا فارس، هذه الطريقة لا أمل فيها، أنا أحبك وأخاف أن أراك مجنونًا في النهاية، مَنْ عاش تحت الشمس لا يقو على البقاء في العتمة، صدقني لن تحتمل يومًا واحدًا، ولا تجبرني على التوضيح أكثر من ذلك، وما تراه صعبًا سيكون سهلاً بوجودي إلى جوارك دائمًا، ألم تتمن ذلك دومًا يا فارس؟!*
- *نتحدث بالمنطق يا ياسمين، لا أراك مدة تسعين يومًا وأنا أعيش معك لا مشكلة سأستطيع ذلك، ولا يراك أحد حتى تنجبي البنت فلا بأس، أتزوجك على طريقة العجوز في المقبرة ليلاً ولا يراك أحد أثناء العرس فلا مشكلة أيضًا، ولكن أي قوة تساعدني كي أقنع أحدًا بالقدوم معي إلى مقبرةٍ ليلاً، ومن أجل حفل زفافي، فكيف يكون ذلك!*

ضحكت ياسمين وقالت:

- *انظر لقد انحلتْ جميع العقد، ولم يبق سوى طريقة الدعوة إلى العرس.*

فقال مغتاظا:

- *افعلي ذلك إن استطعتِ.*

فقالت:

- *المسألة بسيطة جدًا.*

وأشارت بيدها إلى خادم المطعم وعندما حضر ابتسمت وقالت له:

- *أريد منك خدمة، سيكون عرس فارس الأسبوع القادم، وأرغب أن تدعو جميع الجلوس في المطعم، ولكن أخبرهم أن العرس سيكون في مقبرة.*

فاستوضح الخادم:

- *عفوًا، أين العرس؟*

فقالت ياسمين:

- *في المقبرة...المقبرة؛ حيث يُدفن الموتى.*

والتفتت إلى فارس وقالت:

- *في أي مقبرةٍ سيكون العُرس يا فارس؟*

ابتسم الخادم واصطنع فارس الابتسامة وقال:

- *إنها تقصد قاعة أفراح سيئة، وتكره أن نقيم فيها حفل زفافنا؛ لأنها تراها تشبه المقبرة كثيرًا.*

ذهب الخادم وقالت ياسمين:

- *أصبحتَ بارعًا تستطيع أن تغير وجهة الكلام من الجد إلى المزاح.*
- *تعلمتُ منك!*
- *إذًا لنر مدى براعتك في الدعوة إلى العرس.*
- *هل أنت على قناعة بأنني من الممكن أن أفكر في هذا الأمر؟*
- *نعم مقتنعة.*
- *إذًا أنتِ مخطئة.*
- *إذًا أنتَ لا تحبني.*
- *بل أحبك، ولكن لو فعلت هذا سأكون مجنونا، والمجانين لا تعرف كيف تحب.*
- *ليس صحيحا، ليس هناك أجمل من حب المجانين.*

ضحك وقال:

- *ياسمين، لقد رأيتي ردة فعل الخادم، لقد كذَّب أذنيه في سماعه لفظة مقبرة، ولم يستوعب الأمر إلا مزاحًا، فهل من الممكن أن أتحدث إلى أحد عن عرس في مقبرة ولا يظنني مجنونا! حسنا فليقولوا إنني مجنون، ولكن هل من الممكن أن يتبعوا مجنونا؟!*

فقالت:

- *جرِّب أولا، صدقني يا فارس إنها سهلة جدا، وإن أردت ستجد مخرجًا وستقنعهم.*

ضحك وقال:

- *إن كانت هذه السهلة فأخبريني ما الصعب؟*

هزت رأسها وقالت:

- *الصعب يا فارس أن يقتنعوا بعدها ألا يروا وجهي وألا يحاولوا معرفة من أكون، وألا تنظر خلفك الآن!*

لم تكمل ياسمين الجملة حتى التفت فارس ليرى ما يوجد خلفه متناسيا طلبها، ولم ير شيئا.

- *لا يوجد خلفي شيء، فلماذا أنظر! وماذا كان خلفي؟*
- *لا شيء، في المرة القادمة حينما أطلب منك ألا تنظر إلى الخلف فأرجوك لا تنظر، لقد أخبرتك أن من أصعب الأمور أن تقنعهم بألا يروا وجهي، وألا تنظر خلفك، وفي أقل من ثانية نظرت خلفك، فكيف يمكن أن تقنع عائلتك وأقاربك ألا يروا وجه زوجك؟!*
- *هذه ليست مشكلتنا إن اقتنعوا فليكن، وإن لم يقتنعوا فهي مشكلتهم وحدهم.*
- *ولكن أنت مشكلتي، فإن طلبت منك ألا تنظر خلفك فهل ستقبل؟!*

- *نعم أعدك بألا أنظر خلفي أبدا عندما تطلبين منـي ذلك، ولكن ما علاقة ذلك بما نحن فيه الآن؟*
- *ستعرف قريبا، والآن هيا تحرك وابدأ بإقناع تسعة أشخاص ليحضروا حفل زفافنا.*
- *ولكنك قلت أنك ستساعدينـي فـي إقناعهم.*
- *سأفعل ذلك ولم أنسَ، وأرجو منك ألا تنس وعدك لـي بألا تنظر خلفك إن طلبت منك ذلك.*
- *لن أنظر إلى الخلف أبدا، ولكن يدور فـي رأسـي سؤال يحيرنـي؛ كيف ستظهر جورجيت وهي ميتة؟*
- *زيارة قبر جورجيت لا يعنـي أنها ماتت، وكيف ستظهر هذا ليس شأنك، ربما ستظهر من خلفك، ولهذا لا تنظر إلى الخلف إن طلبت منك ذلك، لا يحق لابن الدهري أن يرى وجه جورجيت.*

خرجا من المطعم واستقلا السيارة إلى الناصرة ودار بينهما حوار طويل حول الزفاف وشروطه، وسأل فارس ياسمين إلى أين تريد أن تذهب، فأخبرته:

- *فـي أقرب مكان من جبل الطور.*

وغيَّر وجهته حتى وصل بالقرب من جبل الطور، وفي مكان ما طلبت منه أن يتركها ويكمل طريقه إلى البيت.

فسألها:

- *إلى أين ستذهبين يا ياسمين؟*
- *لا تسأل، وأرجوك سِر إلى الأمام ولا تنظر خلفك، ولا تتطلع في مرآة السيارة.*

قاد سيارته وتجنب النظر إلى الخلف، وأخذ يفكر طوال الطريق كيف يستطيع أن يقنع عائلته بحضور زفافه داخل مقبرة وبم سيبرر ذلك...

فارس والدعوة للزفاف...

لم ينسَ فارس ما حدث لأمه عندما تحدث معها عن عائلة الدهري وحكاية جورجيت، لقد وعدها ألا يتحدث في هذا الأمر ثانيةً، وهو الآن يفكر في أن يحدِّثها عن أمر زواجه من حفيدة جورجيت، عزم ولكنه تحيَّر في كيفية بدء حديثه معها. إن أمه تدرك جيدًا أمر "لعنة جورجيت"، ولكنه لم يجد بُدًا من حديثه، فتوجه إليها قائلا:

- *أمي الحبيبة، أرغب في أن أتحدث إليك، وأعي جيدًا أنك لا تحبين الخوض فيما أريد الحديث بشأنه، وقد وعدتك سلفًا ألا أتحدث فيه ولكن اعذريني يا أمي.*

احتدت أم فارس وقالت:

- *أترغب في الحديث عن جورجيت، لقد أخبرتك كلَّ ما أعرفه بشأنها، وأنت عنيد ولا تريد أن تصدق، وستقول ثانية أنها "تخاريف عجائز"*

ربت فارس على كتف أمه وقال لها:

- *أصدق كل شيء عن قصة جورجيت.*
- *طالما أنك تصدق فافعل كما أمرتك، وارتحل إلى أقصى الأرض إن استطعت، واحذر أن تدرك جورجيت لك أثرًا، وسأتضرع إلى الله –عز وجل– أن يعميها عنك، وينجيك منها.*

أمسك بيدها وقال:

- *لا تخافي يا أمي لقد ماتت جورجيت، وستنتهي اللعنة قريبًا.*

قاطعته قائلة:

- *الآن عُدتَ إلى حديثك القديم، ومَنْ الجميلة التي أعطتك صورة أبيك وجدك؟! أليست هي؟! لماذا تصرُّ على عدم تصديقي! أخبرتك أن جورجيت لم تمُتْ، ولن تموتَ أبدًا.*

- *ليس على ظهر الأرض مخلوق لا يذوق الموت، وليس من المعقول أن تظل جورجيت على قيد الحياة بعد مئة عام، والجميلة التي أخبرتك عنها ليست جورجيت إنما هي حفيدتها ياسمين.*

قاطعته:

- *صدقني يا فارس، إنها جورجيت عينُها.*
- *صرتُ عارفًا بالقصة أكثر منك يا أمي، وهي حفيدتها، وقد أحببتها وسأتزوجها.*

الأم وهي تبكي:

- *تتزوجها! يا ويلتنا! إنها عازمةُ على الانتقام منك لأنك من أبناء الدهري، لا تجاريها، واختف بعيدًا عنها يا ولدي، أتوسل إليك يا فارس.*
- *أمي، أعلم أنك تخافين عليَّ كثيرًا، انظري في عيني واستمعي إليَّ جيدًا، هذه الفتاة لو أرادت بي شرًا لفعلته منذ زمن، وما كان لأحد يستطيع منعها، وأنا أشعر بصدق عاطفتها نحوي، وبعدما سنتزوج ستنتهي اللعنة إلى الأبد، فهل تعلمين أن اللعنة أضرت ببنات جورجيت كما أضرت بأبناء الدهري! أشياء كثيرة لا تعرفيها، ولن أستطيع الإفصاح أكثر من ذلك، وكل ما أرجوه منك أن تطمئني، ولا تخافي، فأنا ما عدتُ صغيرًا.*

صمتت أم فارس ولم تدر ماذا تقول أو تفعل، وعلمت أن ما خطَّه القدر لا يمكن أن تغيره، وشرد فارس بخياله باحثًا عن مدخل ليخبر أمه أن زواجه من ياسمين لا يكون إلا بشروط، وأحدها أن الزواج سيكون في أحد المقابر ليلاً.

تجرَّأ فارس وأقحم نفسَه مع قلب أمٍّ يرتجفُ خوفًا على ولدها فهامتْ على وجهها في المنزل تصرخ وتبكي حتى كاد تسقط مغشيًا عليها، وعبثًا حاول أن يبعث في قلبها الطمأنينة قائلاً:

- *ماذا حدث يا أمي! ما أردت إلا المزاح لأسري عنك قليلاً، لكنها ظلَّتْ تلطم وتنوح كمَنْ فقدت ولدها بغير رجعة.*

واستسلم فارس لثورتها عاجزًا عن فعل شيء سوى الدعاء في صمت كي تحلَّ الطمأنينة في قلبها، وفي هذه الأجواء المشحونة بالبكاء والصراخ دخل علاء الغرفة وقبل أن يستوضح سبب بكاء أمه وصراخها قالت:

- *أتعلم بمصيبتنا اليوم يا علاء؛ لقد أصاب الجنون أخاك الأكبر، أيرغب عاقل أن يقيم حفل عرسه في مقبرة ليلاً! فارس يريد أن يجعل فرحته الكبرى بين الموتى، لقد ذهبت جورجيت بعقله.*

علاء يهدئ من روع أمه، وهو يزم على شفتيه محاولا حبس ضحكته، وبعدما هدأت قليلا اصطحبها إلى شرفة المنزل لتستنشق قليلا من الهواء وعاد الى فارس ليسأله عما يحدث. فأجابه فارس:

- *لا شيء يا علاء لا شيء.*
- *ما الأمر يا فارس.*
- *لا شيء سوى أني أحببتُ فتاةً وأريد أن أتزوجها، واشترطتْ أن يكون زفافنا في إحدى المقابر.*

لم يفلح علاء في حبس ضحكته هذه المرة فاغتاظ فارس وهمَّ بمغادرة البيت إلا أن أخاه أمسك بيده وقال:

- *لا تغضب، ولا تلومني يا فارس، فإمَّا أن أضحكَ، وإمَّا أن أصرخَ وألطمَ وجهي مثل أمي.*

جلس فارس بعدما أضحكه كلام أخيه، وقال له:

- *حقُّك أن تضحكَ، ولكن افترض أني أعاني مشكلة عويصة ولن أتخلص منها سوى بزواجي في مقبرة، فهل ستساند أخاك وتقف إلى جانبه؟*

صمت علاء قليلا معتقدًا أن ما تفوه به فارس لا يتخطى المزاح، ثم قال:

- *سأذهب معك أينما تذهب، وسأفعل ما ترغب فيه، ولن أتخلى عنك أبدًا، فأنا رجل لا تخيفه المقابر.*

لم يخْفَ على فارس ما فكَّر فيه علاء، وابتسم قائلاً:

- *لا تهتم يا علاء إنها مزحة...مزحة.*

وانطلق بسيارته يتجول ولا يدري وجهته، يفكر فيما يستطيع أن يفعل، لقد أُغلقت الأبوابُ في وجهه، وعجز عن إقناع أقرب الناس إليه فكيف إذا تحدث إلى غيرهم!

ولمَّا تذكر فارس غضب أمه عاد إلى البيت مسرعا خشية أن تحكي لأخيه قصة جورجيت التي ستجر وراءها كشف انتساب فارس إلى عائلة الدهري، وجدها جالسة بجوار علاء ولاتزال باكية، فاقترب منهما داعيًا الله ألاَّ تكون قد أخبرته شيئًا، واطمأن قلبه لأن أمَّه لم تخبرْ أخاه سوى أنه يحب فتاةً غريبة الأطوار ستزج به إلى الجنون.

شاركهما فارس الحديث بعدما شعر أن أمه حريصة على ألا يعرف علاء أن أخاه ينتسب إلى عائلة أخرى.

انطلق بسيارته مجددا ثم تركها على جانب الطريق ليمشي على قدميه حتى ساعات متأخرة من الليل شارد الذهن لا يدري إلى أين ستأخذه قدماه، ولم يقطع شروده إلا صوتٌ فاجأه من الخلف:

- *فارس لا تنظر خلفك.*

لم يمنعْ نفسه من التطلع إلى صوت حبيبته القادمة خلفه ولم يفصلها عنه سوى عدة أقدام، اقتربت منه وسارت بجانبه، وطلبت منه أن يستمر في سيره، ثم قالت غاضبة:

- *وعدتني ألا تنظر خلفك عندما أطلب منك عدم النظر، لماذا أخلفتَ وعدك؟ كيف لي أن أثق بك وأعتمد عليك ونسيتَ وعدي قبل مرور يوم واحد!*

قاطعها:

- *لم يحدث شيئًا يستحق هذه الثورة، نسيتُ ونظرت.*
- *يا فارس لا تستهتر بالأمور، إذا طلبت منك شيئًا افعله ولا تجادلني.*
- *سأفعل، أقسم بالله سأفعل، وستكون هذه المرة الأخيرة.*
- *لا تندهش يا فارس، فمن الممكن أن يحدث لى أو لك مكروهٌ جرَّاء الالتفاتة التي تراها شيئًا يسيرًا.*
- *لن أنسى يا ياسمين.*

فقالت وهي تضحك:

- *هل أخبرتَ حماتي بعرسنا لابد أنها فرحتْ كثيرًا.*
- *فرحتْ حتى كادت الفرحة تنال منها وأشرفتْ على السقوط مغشيًا عليها.*
- *أعلم مدى فرحتها وفرحة أخيك علاء، ولا أحتاج أن تحكي لي ما حدث، فماذا تفعل بعدما أخفقتَ مع أهلك؟*

فقال مستغربا:

- *وكيف عرفت ما حدث بيني وبين عائلتي، وقد تركتك بالقرب من جبل الطور!*

هزَّت رأسَها:

- *أنا لا أعرف شيئًا، اعتبره تخمينًا بارعًا، وما يهمنا الآن هو ماذا تفعل؟*
- *لا أمل في هذه الفكرة المجنونة، ولن يوافقوا عليها إلا بعدما تطير عقولهم.*

ضحكت ياسمين وقالت:

- *أمر يسير، وإذا أردت مساعدتي في خبلِ عقولهم فلن أتأخر عنك يا حبيبي.*
- *ليس لدي شك في مقدرتك على ذلك، عليَّ ترك هذا الأمر فلا أحب أن يحدث لأمي مكروه بسببي.*

- *سلمت حماتي من كل سوء، سأجعلها تنسى ما تعرفه عن حكاية جورجيت منذ اللحظة الأولى التي رأت فيها ابن الدهري حتى اليوم، وليس بالضرورة أن تكون بين التسعة أشخاص الواجب حضورهم في المقبرة لإتمام العرس.*

فكر لبرهة وقال:

- *وأيضًا أخي علاء؟*
- *وأيضًا علاء.*
- *أما يكفي أن أكون بمفردي وتنتهي هذه المشكلة؟*
- *لو كان الأمر بيدي لفعلت ما تريد، لابد أن يرافقك تسعة أشخاص؛ أقاربك، أو أصحابك، أنت حر فيمن تختار.*

لمعتْ في رأس فارس فكرة إغراء بعض الأشخاص بحضور حفل زفافه داخل المقبرة مقابل النقود، ففرح بعدما عزم على استئجار تسعة أفراد، ولكن سرعان ما تلاشت فرحته عندما تذكر سوء حالته المالية في الآونة الأخيرة، وأخبر ياسمين بما طرأ على ذهنه، وأنه سيضطر إلى بيع سيارته ليوفر مبلغا قد يكون كافيا.

- *أستطيع مساعدتك لو أن الأمر يتوقف عند المال.*

وأكملت مازحة:

- *لقد كنت أدَّخر بعض ما تعطني أمي منذ صغري لهذا اليوم.*

ضحك وقال:

- *هذا يعني أن لديك ما يقارب من المائة دولار، وهكذا حُلَّت المشكلة.*

فقالت ياسمين وهي تضحك:

- *قد يزيد بعض الشيء.*
- *أيعني أن ما يزيد يكفي لعشاء في مطعم فاخر.*
- *نعم، وإذا أردت سيزيد عن ثمن العشاء ما يكفي لشراء مطاعم البلد بأسرها.*

ضحك فارس ظنًا منه أنها تمزح، فقالت جادة في قولها:

- *لستُ مازحة؛ فلدي ولدى أختي من الذهب ما يكفي لشراء الناصرة وحيفا وأكثر من ذلك، وما كان له قيمة بالنسبة لكلينا ليقيننا أنه لا يعدل يومًا واحدًا نتمتع فيه بحريتنا كبقية الناس، لا تبعْ سيارتك، وعندما تعود إلى بيتك ستتلاشى المشكلة، ولكن لا تنس أن مَنْ ستستأجرهم لابد أن يعوا جيدًا أن سبب حضورهم عرس حقيقي، ولو أن أحدهم انسحب بإرادته سيفشل كل شيء.*

وتوقفت ياسمين فجأة عن السير بجوار فارس، وبعدما سار عدة خطوات أراد أن يلتفت وراءه ليعرف سبب توقفها، ولكنها قالت له قبل أن يلتفت:

- *فارس، لا تنظر خلفك.*

شد الفضول فارس لينظر إلى الخلف، ولكنه تذكر تحذيرها له فاستمر في السير ومازال حديثه معها مستمرًا، ولمَّا انقطع الحديث فجأة توقف فارس عن السير عدة دقائق ولم يلتفت إلى الخلف، وقال بصوت مرتفع:

- *ياسمين، إن كنتِ ما تزالين خلفي تحدثي.*

لم يتلقَ فارس جوابًا، واستمر في سيره ممتنعًا عن النظر خلفه حتى وصل إلى سيارته، واستقلها عائدًا إلى البيت، ووجد أمه وأخاه نائمين، فدخل غرفته وفوجئ بمجموعة من القطع الذهبية القديمة على سريره، وهمَّ بالذهاب لسؤال والدته، ولكنه تذكر أن ياسمين أخبرته بأن مشكلة النقود ستُحل مع وصوله البيت. أثار دهشته قدرة ياسمين على إدخال قطع الذهب غرفته وقد تركها خلفه. تحسس فارس القطع الذهبية بأصابعه، وفكر كثيرا وحدث لنفسه:

- *لو أن ياسمين صادقة في قولها سأكون أغنى رجلا في البلاد.*

المكان...وردة والأم...

- *لقد فقدت أختك صوابها يا وردة، وسيدمرها حبها لحفيد سالم.*

فردت عليها:

- *امنحيها الفرصة يا أمي، واصبري قليلا.*

فقالت:

- *لا أستطيع الصبر وابن الدهري يسرق ابنتي مني.*
- *لا تخافي يا أمي، لقد سرقته ياسمين ولم يسرقها.*

فقالت بغضب:

- *سرقته بماذا! بالذهب الذي تقدمه لمساعدته؟!*
- *لا قيمة للذهب في عالمنا يا أمي، دعيها تساعده قليلا.*
- *سيستغلها ويدمرها ونحن نراقب يا وردة.*
- *فارس يحبها ولن يؤذيها أبدا، وإن فكر في ذلك فلن أتركه.*
- *الذهب أهم من الحب عند أبناء الدهري، ودمه دهري، فكيف لا يشبههم!*

فارس وبريق الذهب...

توجه فارس إلى أحد صاغة الذهب في مدينة الناصرة، وأطلعه على إحدى القطع، وبعدما تفحصها قال:

– *أعتقد أنها لا تساوي الكثير.*

وعرض مبلغا زهيدًا مقابلها فتركه فارس إلى آخر، ولمَّا زاد في الثمن باعه ما لديه من القطع بما يزيد عن العشرة آلاف دولار.

وعزم فارس على الذهاب إلى أحد أصدقائه القدامى المتمتعين بعلاقات اجتماعية واسعة ليساعده في جلب التسعة أشخاص لحضور زفافه مقابل المال، وعندما التقاه أبدى الاستعداد لمساعدته شريطة أن يقنعه بالسبب الحقيقي وراء هذا الأمر، وحاول فارس إقناعه بأن الأمر لا يزيد عن كونه زفاف عرس مشروط بتمامه في مقبرة، وأن يرافقني تسعة أشخاص.

ظن صديقه أن الأمر أكبر من ذلك، وبعد جدل طويل اتفق الاثنان على أن يبدأ صديقه البحث عن الأشخاص الملائمين، وتركه فارس على أن يعود إليه في الغد بعدما أعطاه ألف دولار دفعة مقدمة.

وفي اليوم التالي طرق صديق فارس بابه ليخبره وهو يضحك بعدم استطاعته إقناع شخص واحد، وأن الطريقة الوحيدة التي تفلح في إقناع الكثيرين هي أن نحضر آلةَ تصوير ونخبرهم بأننا سنصور مقطعا من فيلم أو ما شابه. اقتنع فارس بالفكرة وقال لصديقه:

– *ليكن ذلك.*

ثم غادر صديق فارس لتنفيذ ما اتفقا عليه، وجلس فارس في حديقة المنزل ينتظر والدته لتحضر قهوته، وفي الشارع المحاذي للحديقة توقفت سيارة وترجلت منها ياسمين

ذات الخمار، وقصدت فارس حيث يجلس في الحديقة التي لا تبعد عن الشارع سوى عدة أمتار، ولمَّا انتبه لها فارس زاغت عيناه هنا وهناك خشية أن تراها والدته.

اقتربت منه وقالت له:

- *ماذا بك؟ ولِمَ هذا القلق؟!*

فوقف وقال لها:

- *أسرعي إلى غرفتي قبل أن تنتبه لك أمي.*

لم تأبه بطلب فارس، وجلست هادئة، ثم قالت:

- *تعلم جيدًا جمال صورتي، وأنني لا أخيف أحدًا، أم أن بي عيب يجبرك على أن تخفيني عن أنظار أهلك وجيرانك.*
- *تعلمين أنني ما قصدتُ ذلك، وتدركين قصدي، فأمي تعرفك، وتعرف حكاية جورجيت، ولا أريد أن أثير خوفها.*
- *أنا لا أخيف أحدًا يا فارس.*
- *حسنا، اجلسي حيث تشائين، سأذهب لإحضار القهوة.*
- *أتقصد أن تدخل حتى لا تخرج أمك؟*

حكَّ فارس رأسه بيده واستقر في جلسته بجوار ياسمين، وهو يفكر ماذا سيحدث بعد خروج أمه ورؤيتها لياسمين ذات الخمار.

- *لا تفكر كثيرا يا فارس، أعتقد ولابد أن تواجه الأمور.*
- *إنها أمي يا ياسمين ولا أريد أن...*

فقاطعته:

- *لا تريد ماذا يا فارس؟ ستراني الآن أو لاحقا، أم أنك ستخفيني طوال عمرك؟*
- *ليتها لم تعرف شيئًا.*

ثم قال في لهفة:

- *لقد وعدتني أن تنسيها قصة الدهري وجورجيت.*
- *لم أعدك، ولكني أخبرتك بأنني سأساعدك، كما أننا لا نسعي إلى أن نطمس اسم جورجيت من عقول الناس، بل نسعى لنذكرهم به دائمًا، سأساعدك ولكن لن أحتمل شعوري بأن أمَّك افضل من أمِّي، وبدايةً لابد أن تعرف أمُّك أني ياسمين بنة لعنة بنة جورجيت، وأنني سأكون زوجةً لابنها، وأنني أفتخر بنسبي، ولا أحب أن يجهل حقيقتي أقرب الناس إلى زوجي، لابد أن تعرف أمك المرأة التي اخترتها من بين جميع النساء، وبعدها سأجعلها تنسى كل شيء، حتى أنجبَ ابنتنا الجميلة جورجيت*

صمت قليلا وقال:

- *أنت مُحقة، لابد أن أواجه الأمر، ولابد أن تعرف أمي.*

دخل البيت ووجد أمه تضع يدها على خدها كئيبة حزينة، فقال لها:

- *ماذا بك يا أمي؟ ولِمَ أنتِ حزينة؟ عندنا ضيوف وأرغب أن تتعرفي بهم.*

هزت رأسها:

- *لقد رأيتها يا ولدي، رأيتها من النافذة، وأسأل الله الستر والسلامة.*
- *لا تخافي يا أمي، هذه ياسمين وسأتزوجها خلال الأسبوع القادم، ولابد أن تتعرفي بها.*

أمسك بيدها وخرج معها إلى الحديقة حيث تجلس ياسمين، اقترب منها وقال:

- *إنها أمي يا ياسمين.*

والتفت إلى والدته وقال لها:

- *وهذه ياسمين يا أمي.*

ابتسمت أم فارس وهزت رأسها وقالت:

- *أهلا وسهلا.*

وابتسمت ياسمين بدورها وهزت رأسها مقلدة أم فارس وقالت:

- *شَرُفتُ برؤيتك كثيرًا.*

وبدأ يمهد الأجواء ليتبادلا الحديث. فقالت أم فارس بتلقائية ساذجة:

- *أقسم أن فارس يحبك كثيرًا وليس له ذنب فيما فعله بك جده سالم.*

فارس مقاطعًا أمه:

- *أخبرتك يا أماه أنها ياسمين حفيدة جورجيت، وليست جورجيت.*

قالت ياسمين:

- *أشعر بحبه كما يشعر بحبي ولذا سأتزوجه.*

أم فارس:

- *أقسم أنني سمعت هذا الصوت قبل ذلك، سمعته في صحوي ومنامي ولن أنساه، هذا صوت جورجيت.*

أراد أن يتكلم ولكن ياسمين سبقته قائلة:

- *أفتخر أن صوتي يشبه صوت جدتي جورجيت، وسأكون أكثر فخرًا إذا شابه صوتُ ابنتي صوتَ جدتي.*

فقالت أم فارس:

- *أتوسل إليك أن ترحمي أبني، لا ذنب له بكل ما حدث*
- *وماذا تعتقدين أن أفعل به! هل تعتقدين أنني سآكله حيًا!*

تدخَّل فارس وأنهى النقاش في أجواء متوترة، ودخلت الأم البيت تاركة خلفها ياسمين وفارس في جو مضطرب، فقال محاولاً تهدئتها:

- *لا تغضبي واعذري أمًّا تعلم الكثير عن حكاية جورجيت، وتخاف أن ينال ولدها مكروه بعدما أفنت عمرها في محاولة الحفاظ عليه.*

كان واضحا في صوت ياسمين أن دموعها قد انهمرت من عينيها المختفية خلف الخمار:

- *أنتمي أيضًا إلى البشر، ولستُ مُجبرة على فهم مَنْ لا يفهمني، أرأيت كيف كانت نظراتها إليّ.*

لم يكترث فارس أو ربما نسي أنه في حديقة المنزل واقترب منها وضمها إليه، سرها أنه ضمَّها دون الاكتراث بأحد، واستطاع أن يدفعها لتطلق ضحكة أعادت الأجواء إلى طبيعتها، وقالت مازحة:

- *تعتقد أمك أنك فرخ صغير وأنني سآكلك.*

عَلَتْ ضحكات المُحبَّين، وصفت عيونهما من الحزن، وحلَّقت فوقهما السعادة، وتراقص قلبيهما وأخرجت ياسمين من عباءتها قلادة زرقاء ، وناولتها لفارس وقالت:

- *ضع هذه القلادة في البيت، وطالما أنك تحرص على بقائها فلن تتذكر أمك شيئًا عن القصة، ولو رأتني مرةً ثانية، وسوف تتذكر فيما بعد، ووقتها سنكون قد أنجبنا ابنتنا.*

أخذ القلادة وخبَّأها في البيت وخرج إليها وقال:

- *هل أنت واثقة بأنها لن تتذكر شيئًا.*
- *هل ترغب في التجربة؟ إذا أردت أن تفعل فاذهب وناد عليها ولكن أنصحك ألا تفعل.*
- *سأفعل، وماذا سيحدث أكثر مما حدث!*

دخل البيت مسرعًا واصطحب أمه حتى أوقفها أمام ياسمين، ووقف ينظر لها منتظرًا ردة فعلها، وفي دهشةٍ نظرت الأم إلى ياسمين وكأنها تراها للمرة الأولى، ونظرت إلى فارس وعيناها تتساءلان:

- *مَنْ هذه؟*

فرح فارس وقال:

- *هذه ياسمين يا أمي.*
- *أهلاً ومرحبًا بكِ يا بنيتي، ولِمَ الجلوس في الحديقة؟ هيا تفضلي بالدخول.*

فقالت ياسمين متعمدة:

- *أستميحك عذرًا حماتي؛ فلدينا العديد من الأمور العاجلة، وسأعود غدًا إن شاء الله.*

استغربت أم فارس لفظة "حماتي" وقبل أن تستوضح، أسرعت ياسمين بقولها:

- *لِمَ هذا الاستغراب يا حماتي! ألم يخبرك فارس بأنه تقدم لخطبتي ووافقتُ، وسيكون زفافنا الأسبوع القادم إن شاء الله؟ ومن المُحتمل أن نعيش معك في هذا البيت، ألم تخبرها يا فارس! هيا أخبرها الآن، ولا تنس أن تخبرها أنك بعد رؤية وجهي للمرة الأولى تجادلنا في أمر كشفه حتى أنك أغلظتَ الأيمان ألا ير أحد مني شيئًا ولو كان أمك، فهل من المعقول ألا تراني حماتي، سأسبقك إلى السيارة، وارو لها ما حدث، ولا تتأخر حتى لا يداهمنا الوقت.*

غادرت ياسمين، ووقف فارس أمام والدته متحيرًا لا يدري كيف يجاوز هذه الورطة، وبقيت عينا أم فارس تراقب ياسمين حتى اطمأنت إلى ابتعادها، ونظرت إلى فارس غاضبة وقالت:

- *ماذا تقول هذه المخبولة؟*

ضحك وقال:

- *إنها تمزح سأوصلها ثم أعود لأتحدث إليك.*

أسرع هاربا إلى السيارة قبل رد أمه، وبعدما غادر قالت ياسمين:

- *لقد نصحتك ولم تسمعني.*
- *لا تهتمي، لقد اعتدت جنونك.*

- *حسنا، العرس سيكون يوم الثلاثاء في منتصف الليل؛ أي بعد أربعة أيام، في مقبرة الوادي، هل أنتَ مستعد يا فارس؟*
- *مستعد، والأشخاص التسعة مستعدون أيضًا.*
- *هناك أمر مهم عليك تذكره جيدا، هؤلاء الأشخاص قادمون إلى حفل زفاف حقيقي وليس فيلمًا تصويريًّا، أو مزاحًا، أنا أحذرك، هذه فرصتنا الأخيرة، لا تستهتر بها، والآن توقف هنا، ثم امضِ ولا تنظر خلفك.*

توقفتْ السيارة، فترجلت ياسمين، وتوجه فارس إلى صديقه وأبلغه بأن الأشخاص يجب أن يعوا جيدًا أنهم ذاهبون إلى حفل زفاف حقيقي، وأن عليه أن يلتقي بهم ليبلغهم هذا بنفسه، فكان رد صديقه:

- *هذا مستحيل.*

اضطَّر فارسُ للذهاب إلى نابلس للاستعانة بصديق آخر، وبعد حوار وجدال استمر ليومين استطاع فارس نفسُه أن يقنع تسعة اشخاص بحضور زفافه بعد إغرائهم بمبالغ مالية كبيرة بلغت ثلاثة آلاف دولار للشخص الواحد، وحتى يضمن فارس حضورهم دفع لهم جزءًا من المبلغ، واشترط أن يدفع الباقي بعد الحفل.

وفي طريق عودته شغله التفكير فيما يمتلك من مال لا يغطي النفقات حتى إتمام الزفاف، فتمنى رؤية ياسمين ليطلب منها المزيد من القطع الذهبية، وما كاد يصل إلى البيت حتى لمحها تقف عند ناصية الشارع، وكأنها في انتظاره، توقف فارس بجانبها فاقتربتْ من السيارة وانحنت عليه قائلة:

- *اشتقت لك كثيرًا.*
- *زاد شوقي لك أيضًا، هيا اصعدي.*
- *لا أستطيع فلدي عمل لأنجزه.*
- *وما الذي ترغبين فعله في حارتنا.*

- *لا عليك، ماذا حدث معك؟*
- *كل خير ولكن...*

فقاطعته:

- *المال لا يكفي، لا مشكلة في ذلك، عندما تدخل الدار ستُحل المشكلة، والآن عليك الذهاب ولا تنظر خلفك، ولن تراني إلا على موعد الحفل الاول .*

ابتسم فارس ومضى في طريقه ولاقته أمه عند الباب بنظرات غريبة فضحك وعلم أنه الآن في ورطة، ويجب أن يجيب على أسئلتها حول ياسمين ذات الخمار.

أمسكت أمه ملابسه وجذبته إلى الداخل كطفل صغير وهو يضحك وقالت له:

- *الآن، هل تفسر لي قصة هذه المجنونة وما تلفظت به من هراء؟ لقد عادت ثانيةً وتركت لك هذه القطعة وطلبت مني أن أخبرك "لا تترك الناس يستغفلونك!".*

أمسك فارس بالقطعة الذهبية ووضعها في جيبه، وسألها إن كانت قد تركت له شيئا آخر، فأخبرته بأنها لم تترك له سوى هذه القطعة، وأنها تحدثت وانصرفت على عجل ورفضت الدخول. حاول فارس التهرب من أسئلة أمه، ولكنها استمرت في استجوابه حتى ملَّت.

وفي الصباح توجه فارس إلى الصائغ ذاته لبيع القطعة لعلها تغطي جزءًا من المبلغ المطلوب! وتفحصها الصائغ ليرى إن كانت حقيقية كسابقاتها، وفجأة دخلت ياسمين وسحبت القطعة من يده، وناولتها لفارس وقبل مغادرتها المكان قالت له بصوت مرتفع:

- *أتدري معنى كلمة "حمار"، لا تنظر خلفك؟*

نظر الصائغ إلى فارس وسأله:

- *مَنْ تكون هذه المقنعة؟*
- *سأخبرك بعدما تخبرني قصدها في كوني حمارًا.*

فقال له:

- *اسألها، وهات القطعة.*
- *تركت البيع حتى أفهم السبب في كوني حمارًا.*

وبعد حوار طويل وجولة طويلة في عدة مناطق اكتشف فارس بأن ثمن القطعة يزيد عشرة أضعاف الثمن الذي كان ينوي بيعه به.

وفي صباح يوم الثلاثاء استعد فارس لليوم المنشود، وكلما اقتربت الساعات من الموعد زاد قلقه وخوفه من أية مفاجآت قد تطرأ وتقلب الأمور رأسا على عقب.

وفي تمام الثامنة مساءً توجه إلى مكان اللقاء بالأشخاص التسعة الذين أحضرهم صديقه، ولم يساعد المال في إخفاء ما بدا على وجوههم؛ لقد كانوا أكثر منه قلقًا، وأعظم منه خوفًا؛ فلا يوجد مجنون على ظهر الأرض يفكر في أن يُزفَّ مع عروسه داخل مقبرة! وأي مجنون هذا الذي يستأجر المدعوين! جلس معهم وحاول أن يطمئنهم قائلاً:

- *لن تخسروا شيئاً من وقوفكم بضع دقائق!*

وأخرج النقود من جيبه، وقال لهم:

- *بعدما ينتهي الحفل ستكون هذه النقود ملكًا لكم.*

وحذرهم أن هذا مشروط ببقائهم جميعا، وإن انسحب أحدهم سيلغي ما اتفق عليه الجميع. فبادره أحدهم قائلاً:

- *ماذا تظننا! لو أردتَ أن نحفر القبور لحفرناها، أنت لا تدري مَنْ نكون.*
- *لا أريد منكم حفر القبور، لا أريد سوى أن تقفوا هادئين غير خائفين لا أكثر ولا أقل من ذلك.*

في انتظار مراسم الزفاف...

مازالت الأم لعنة تشعر بعدم الرضا عن تهاون العجوز البيضاء مع ابنتها ياسمين، وتخاف أن ينجح فارس؛ فهي تسأل العجوز:

- *لماذا سمحتِ لها بتجاوز قسم جورجيت يا خالة؟*

ترد عليها العجوز:

- *لأني أستطيع ذلك، ولأن ما بداخلك من غضب يجب أن يتم احتواؤه يا ابنتي، حذرتك أمك من أن يتملكك الشر، وما كانت تسعى إلا لحمايتك حتى لا يؤذيك أحد يوما، ومنحتك الخيار بين الليل والنهار، اللعنة التي أقامتها أمك على الدهري هدفتْ إلى القضاء على شرهم بشرهم، ولم تهدف إلى أن تكوني أداةً للشر، أخذتِ فرصتك، ومن حق ياسمين ووردة أن يأخذا فرصتهما أيضًا.*

الأم لعنة:

- *لقد فتح فارس قبرًا ولابد أن يسكنه.*

العجوز:

- *القبر يكون قبرا عندما يسكنه ميت، وإن سكنه حي لا يكون إلا بيتا، وإذا نظرتِ بعينٍ ثاقبةٍ ستجدين أن كلَّ البشر في زمننا هذا يسكنون القبور، لا تخافي يا لعنة، مَنْ فتح قبرا سيسكنه ويغلقه من الداخل، هذه شروطنا ولن يكون غيرها، كوني صبورة، امنحيه فرصة وانتظري.*

شهود الزفاف...

اقتربت العاشرة مساءً، وتحرك فارس وأصدقاؤه قاصدين المقبرة قبل الوقت المحدد، وفي تمام الحادية عشرة تسللوا إلى المقبرة في هدوء حذرين من إثارة الشكوك حول دخولهم هذا المكان في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

الجميع داخل المقبرة ولم يتبق على موعد الزفاف المتفق عليه سوى عشرون دقيقة، وفارس لم يكف عن التلفت يمينا ويسارا مترقبا حضور ياسمين، وبدأ يسترجع حواره معها ليتأكد من صحة المكان والزمان حتى أيقن أنه على صواب، وأن ياسمين تأخرت عن الموعد عشر دقائق حتى هذه اللحظة، أمَّا الأشخاص التسعة، فكل منهم كان يغتنم التفات فارس ليهمس في أذن مَنْ يجاوره، وبدت الابتسامة والراحة على وجوههم ظنًا بألا شيء مما قاله فارس سيحدث، وسرعان ما تلاشت هذه الابتسامة مع ظهور امرأة مقنعة برداء أسود من بين القبور ليدب الخوف في قلوبهم حتى أن بعضهم بدأ يرتجف، وعلى نقيضهم ابتسم فارس، واقترب من المرأة وقال:

- *لماذا تأخرت يا ياسمين، لقد عبثت بعقلي الظنون، أسرعي قبل هروب هؤلاء الخائفين التسعة.*

واستمر فارس في حديثه وقد أخفض من صوته حتى شعر بيد تمسك به من الخلف وتسحبه عدة أقدام، وإذا بمقنعة أخرى تقول له:

- *هذه أمي أيها المجنون.*

القليل من الراحة بعدما سمع صوت ياسمين، والكثير من الحرج بعدما علم أن التي كلمها أم ياسمين. وقبل ردِّه لكزته ياسمين بطرف يدها هامسة:

- *عد إلى مدعويك حتى أناديك.*

عاد فارس إلى حيث يقف شهود الزفاف ورأى وجوههم مصفرة، وعندما أرادوا سؤاله أشار إليهم أن يبقوا صامتين إلا أن أحدهم أصر على الكلام ولم يستطع فارس منعه، فقال لفارس:

- *لم تصرِّح لنا بأنك ستحضرنا إلى الجن، ومثلما جلبتنا أخرجنا.*

شعر فارس أن أصحابه يفكرون في الانسحاب بعدما تملكهم الخوف فبدأ يقسم لهم بأن المقنعتين إنسيتان ولا علاقة لهما بالجن، وسانده صديقه، وكاد ينجح في إقناعهم لولا أن أحدهم تجمد إصبعه عند إشارته إلى ياسمين وأمها بعدما ظهرت بجانبهم مقنعة أخرى برداء أسود.

نظرات خوف مشتتة يرسلها كل منهم إلى وجه صاحبه، يهدء فارس من روعهم :

- *لا تخافوا، أقسم لكم أنهن إنسيات، وأن هذا عرس حقيقي، ولابد أن يحضره غيرنا، أناشدكم أن تهدؤوا حتى لا تفسدوا عليَّ زفافي.*

قال أحدهم مرعوبا:

- *من هؤلاء؟!*

فارس:

- *هؤلاء قريبات العروس.*

اقترب صديق فارس وهمس بأذنه:

- *كيف يظهرن من العدم؟!*

فلكزه فارس كي يصمت، ومازال الأشخاص التسعة يكثرون من التلفت، وهم على قناعة بأن القبور ستُفتح وسيكتظ المكان بمقنعات الجن، وكل منهم يفكر في طريقة للهرب، ومازال فارس وصديقه يبذلان جهدهما لإقناعهم بأن الأمر سينتهي خلال دقائق، وعلى مقربة من فارس وأصدقائه تقف المقنعات الثلاثة يتهامسن بين القبور حتى ظهرت من طرف المقبرة عجوز بيضاء، ليست مقنعة، تقترب منهن شيئًا فشيئا.

وحيث يقف فارس قال أحد الأشخاص بعد رؤيته العجوز:

- *السلام عليكم، إنها ليلةٌ سوداء!*

وأخذ يركض هاربا، ومع هروبه هرب ما تبقى من الشجاعة داخل الآخرين، فتبعه الجميع جبناء يتسابقون على الفرار من المقبرة، يتعثرون في شواهد القبور وفي بعضهم البعض.

لم يبق بجانب فارس سوى صديقه وقد أصابه الذهول، وطغى الرعب على قلبه، ولكنه فضل البقاء بجوار فارس، جلس فارس على أحد القبور حزينا صامتا بعدما انهدم كل شيء أمام خوف البشر، وصديقه يلكزه ليحذره من اقتراب العجوز البيضاء التي لا تبعد عنه سوى خطوات.

اقتربت منه العجوز كثيرًا ثم أشارت إليه أن يتبعها، واقتربتْ من المقنعات الثلاثة، وأشارت إلى ياسمين أن تتبعها أيضًا، تم توقفتْ بعدما ابتعدت عن الجميع، وقالت:

- *يا فارس، يا ياسمين، أحد الشروط إتمام زواجكما اليوم قد أُخل به، وإن لم تستطيعا القيام بأبسط الأمور فكيف ستواجهان أعقدها؟*

أطرقا رأسيهما، وأرخيا أعينهما إلى الأرض، وامتنعا عن الكلام، فقالت العجوز:

- *يا ياسمين أما زلت مصرة على المضي في هذا الطريق بعد كل ما حدث؟*

بقت ياسمين على حالها، ولم تنطق بكلمة واحدة، فقالت العجوز:

- *لا أدرى الى أين سيوصلك عنادك هذا! لا أشعر بأن زواجك من فارس سينجح، ولكن من حقك الحصول على فرصة، وبالرغم من عدم قناعتي إلا أني سأتمم هذا الزواج، وسأكتفي بصديق فارس الذي لم يهرب ليكون شاهدا عليه.*

ونظرت العجوز لفارس، وقالت له:

- *لا أفعل هذا من أجلك بل من أجلها، ولا أتمنى لكما الفشل في حياتكما أيضا من أجلها، وأتمنى بألا يكون مصيرك كمصير أقربائك، من أجلها فقط.*

عاد الأمل والحياة إلى فارس بعد سماعه كلمات العجوز، ولم يخف عليه كراهيتها له. وفجأة هز المقبرة صوت قوي قادم من خلف فارس، أثار بداخله الرعب، وقبل أن يلتفت صرخت ياسمين قائلة له:

- *لا تنظر خلفك.*

قاوم فارس فضوله قبل خوفه ولم يلتفت استجابة لتحذير ياسمين حرصًا على وعده لها. لم تكترث العجوز للصوت، وسرها طاعة فارس لياسمين، وقالت:

- *والآن سأتمم زفافكما بناءً على شروطي آملةً ألا يُخرق أي منها، وإن حدث فسيبطل كل شيء، والشرط الذي لم يستوف الليلة، سيتم استبداله بشرط آخر وسينفذ الليلة، إن وافقتْ سيتم الزفاف، وإن لم توافق سيلغى كل شيء، شرطي هو...*

قاطعتها ياسمين وقالت:

- *لا يا خالة أتوسل إليك.*

نهرتها العجوز وقالت غاضبة:

- *ياسمين، لا تقاطعيني مرة أخرى.*

أطرقت ياسمين وقالت:

- *أعتذر يا خالة.*

وأكملت العجوز:

- *شرطي هو أن تقضي الليلة داخل قبر مغلق، تخرج منه قبل شروق الشمس، ولديك ثلاث عشرة دقيقة تخرج خلالها قبل الشروق، وإن سبقتك الشمس لن تستطيع الخروج من القبر قبل مضي سبعة أيام، أتمنى لك التوفيق، وأتمنى*

ألا تسبق الشمس بكثير، وألا تجعلها تسبقك، وإن سبقتك فإن حبك لياسمين سينير لك القبر خلال السبعة أيام إن كان حبًّا صادقًا، فحافظ على عقلك ولا تترك الأوهام تقودك، وسأتركك الآن دقائق لتفكر، فالخيار خيارك أنت.

وأمسكت العجوز بيد ياسمين وسارت بها نحو المقنعتين، وبعد وصولهما قالت ياسمين للعجوز:

- *أرجوكِ يا خالة، لن يستطيع.*

فقالت العجوز:

- *إنها مشكلته وليست مشكلتنا، ولا تسمحي لقلبك أن يحكمك، فهذه ليست لعبة لتسير وفق هواك!*

علّقت لعنة وقالت:

- *بنيتي، أنصحك بنسيان هذا الأمر، فجميع أبناء الدهري لا فرق بينهم، يكفي ما حدث لي مع أبيك، ولا أحب أن يتكرر معك.*

صمتت ياسمين ولم تجب...

العجوز:

- *لقد نصحتها، ومن حقها أن تأخذ فرصتها.*

خرجت ياسمين من صمتها وقالت:

- *سآخذ فرصتي وسأبذل جهودي لإنجاحها مهما كلفني ذلك.*

فقالت لها العجوز:

- *اصبري لنرى إن كان فارس قد وافق على شرطي أولا.*
- *واثقة أنه موافق، وأتمنى أن يصمد.*

هزت العجوز رأسها وقالت لأم ياسمين:

- *لا أرى أي مانع من إعلان زواجهما، تمني لابنتك التوفيق.*

فقالت لعنة بنبرة حزينة:

- *أتمنى لها أن تحافظ على العهد.*

أشارت العجوز إلى فارس بيدها، فتقدم نحوهما وسألته العجوز:

- *أموافقٌ على شرطي؟*

فأجابها :

- *نعم أنا موافق.*
- *إذًا سأعلن الآن زفافكما، وسأسجله في أحد القبور، فابذل جهدك لإنجاح كل شروط الزواج، حتى لا تراني من جديد، لأن رؤيتك لي مرة أخرى بعد إعلان زواجكما لن يجلب لك السرور.*
- *سيشهد على زواجكما صديقك وأختها وردة وأمها "لعنة"، ولتعلما كلاكما أن زواجكما ما كان ليتم إلا بموافقة جورجيت، هيا أحضر شاهدك.*

توجه فارس إلى حيث يقف صديقه مشدوها خائفا يترقب، وقال له:

- *ستقترب معي لتكون شاهدا على زواجي، وبعد ذلك بإمكانك الذهاب، ولكن أرجوك أن تذهب إلى منزلي في الغد، فإن لم تجدني فأبلغهم أني قد سافرت في عمل، وسأعود بعد سبعة أيام، وعُد بعد مضي الأيام السبعة، فإن لم تجدني، فحاول أن تبلغهم بطريقتك أني قد سافرت بعيدًا ولا أعلم متى أعود.*

تجهَّم وجه صديق فارس وقال له:

- *لن أتركك، ولن أخرج إلا بصحبتك كما أتيت بصحبتك مهما كان الثمن، فإن كان هناك مكروه فليحدث لنا معًا.*

شدَّ فارس على يده وقال له:

- *ما فعلتَه معي اليوم سيظل دينٌ في رقبتي لن أنساه لك أبدًا، والآن أطلب منك أن تثق بي، ولا تقلق فلن يحدث لي مكروه، فأنا أدرك ما أفعله، ولكن*

لا أستطيع الآن أن أخبرك عنه شيئًا، فلا تنس ما طلبته منك، واطمئن فلن يكون –إن شاء الله– إلا الخير.

لم يكن أمام صديقه سوى تنفيذ ما طلبه منه، وسار الاثنان إلى العجوز التي عاينت رهبة صديق فارس حتى كاد يُغمى عليه من الخوف فقالت مبتسمة:

- *لا تخف يا بني فلن يؤذيك أحد، أنت اليوم شاهد على زفاف أخٍ لك بعدما أثبتَ لنا أن أمره يعنيك قولاً وفعلاً، ولذا فقد وافقنا على أن تكون شاهده، فهل توافق أنت على ذلك؟*

هز رأسه وقال:

- *نعم.*

أشعلت العجوز بعض الشموع وتمتمت بكلمات غامضة، وأحنت ياسمين رأسها، وقلدها فارس، ومررت العجوز يدها فوق رأسيهما دون أن تلامسهما، ثم قالت:

- *تستطيع أن تصرف شاهدك يا فارس، إلا إن أحببتَ بقاءه.*

فاقترب من صديقه وصافحه وودعه، وظل ناظرًا إليه حتى غاب في طريقه إلى خارج المقبرة، ثم استدار إلى العجوز فقالت:

- *والآن يا فارس قبل أن نودعك.*

وأشارت بيدها إلى إحدى المقنعتين وقالت:

- *هذه لعنة والدة ياسمين.*

فمدَّ يده ليصافحها لكنها استدارت وتجاهلته، ثم أشارت العجوز إلى الأخرى، وقالت:

- *وهذه وردة أخت ياسمين.*

فمدَّ يده ليصافحها إلا أنها رفضت مصافحته، وقالت له:

- *أتمنى من كل قلبي أن أكون مخطئة من أجل ياسمين، وأتمنى أن يأتي اليوم لأسامحك على رفع يدك على أختي، ولكن ليس الآن يا ابن الدهري،*

فما زلت مصرةٌ على أن أقطع يدك وأطعمك إياها، أو أن تثبت لي أنَّك صادقٌ في حبها، وأنَّ أبناء الدهري ليسوا جميعهم سواء حتى أسامحك من قلبي يوما ما.

فأعاد يده بعدما غمره الحرج، وقال لها:

- *أعدك بذلك*

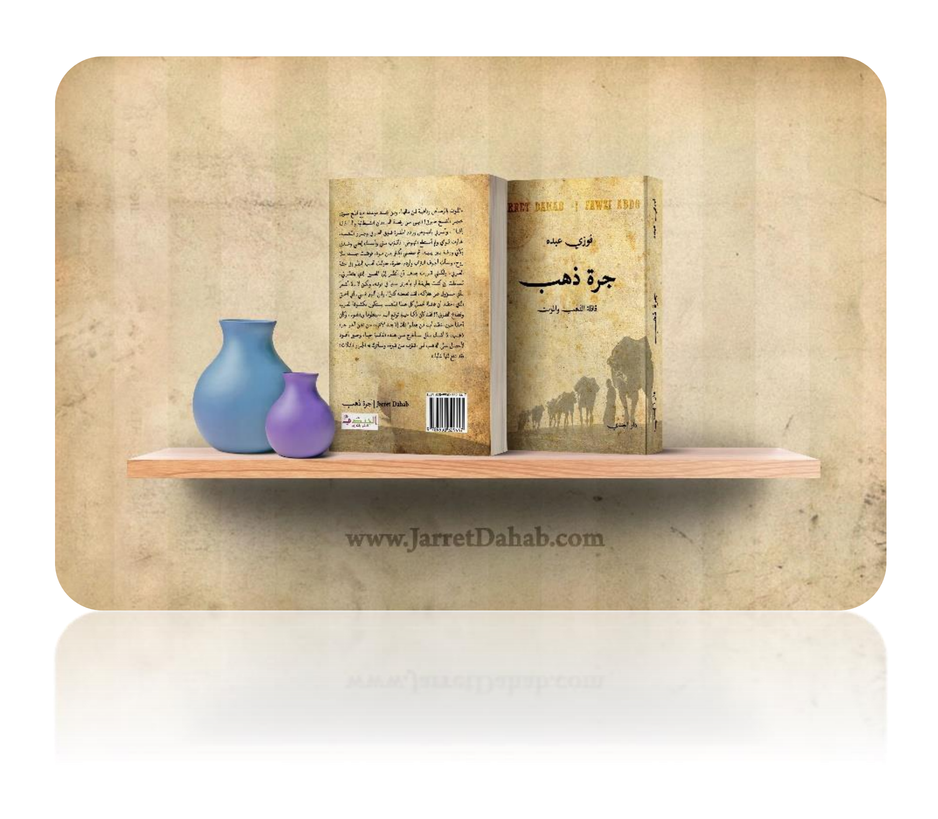
العجوز:

- *والآن يا فارس سأودعك وأتمنى لك أن تلتقي بأم ياسمين وأختها قريبا، وأتمنى ثانيةً ألا تراني مجددا.*

وسار النسوة الأربعة في الاتجاه المعاكس لفارس، وأثناء مرور ياسمين من جانب فارس لكزته بيدها وقالت:

- *لا تنظر خلفك.*





الرواية متوفرة pdf على الانترنت وبالإمكان تحميلها فورا

العثور على القبر...

وقف فارس حائرًا؛ لا يدري ماذا يفعل، ولا يستطيع النظر خلفه، لا يدري إن كانت العجوز والمقنعات مازلن وراءه أم قد اختفين، وهو الآن وحيد بين القبور.
اشترطت العجوز أن يدخل قبرا، ويخرج قبل شروق الشمس خلال ثلاثة عشر دقيقة، وأن يحذر من التبكير أو التأخير، ولكنها لم تخبره شيئًا عن مكان القبر، فهل نسيت العجوز؟ ولو نسيت حقًا فلِمَ لم تخبره ياسمين؟ وما هذا الزواج الذي تترك فيه العروس زوجها وتمضي مع أمها وأختها، وعجوز تشترط عليه أن يسابق الشمس من داخل قبر مظلم؟

اغتاظ فارس، وأخذ يحدث نفسه بصوتٍ عالٍ ساخرًا، ولا يجرؤ على النظر خلفه:

- *فارس...ادخل قبرًا ولا تخرج منه أبدًا، فارس...لا تنظر خلفك، فارس...لا تترك الشمس تسبقك، ولا تسبق الشمس.*

تمالك أعصابه، وبدأ يستعيد هدوءه، وسار بين القبور دون النظر إلى الخلف؛ لعله يهتدي إلى شيء يساعده! وبينما هو في سيره وتفحصه القبور أمامه رأى قبرا قديما تذكر أنه رآه في منطقة بئر السبع في المرة الأولى التي رأى فيها ياسمين، فاقترب منه حتى وجد على شاهده ما قرأه في المرة الأولى:

...افتح القبر فلا مكان للحب والشك معا...

فعزم فارس أن يفتح القبر ليدخله بعدما ظنَّ أنه القبر المقصود الذي يجب أن يمضي فيه ليلته بِناءً على شرط العجوز، ولكن عينا فارس لمحتا قبرا آخر بجانبه، وتذكره أيضا، فقد رآه في مقبرة طبريا، ولمَّا اقترب منه قرأ ما قرأه في المرة الأولى:

...يا زائري لا تخف...

...وأنت تنظر قبري...

احتار فارس، وزادت حيرته عندما رأى قبرا ثالثا كان قد رآه مسبقا في حيفا، اقترب منه وقرأ عليه ما قرأه من قبل:

...في كل قبر سر...

...ولكل سر قبر...

...إذا خرج السر من القبر سار...

...إن كشف القبر عن السر انهار...

...فتعال في الظلمة لتكون سري...

...أو اهرب من خيط نور قادم وأغلقني...

ولمَّا وصل في قراءته إلى عبارة "اهرب من خيط نور قادم" ظن أنه القبر المقصود؛ فالعبارات المنقوشة على شاهده تشير إلى نصيحة العجوز، ولكنه توقف برهة سائلاً نفسه:

- *ولكن هذا القبر رأيته مُسبقًا، في بداية عهدي بياسمين، فلماذا يكون هو المقصود الآن؟!*

وعاد إلى البحث بين القبور حتى وجد قبر عمته ربيحة الذي أخرج منه الصندوق وقد كتب عليه:

...هنا دفنت الحقيقة...

...ومن هنا يجب أن تخرج ...

أيقن فارس بأن كل قبر فتحه مُسبقًا قد انتقل إلى المقبرة التي يقف فيها، فأصابته الحيرة، ثم بدأ الجهر بأسئلته وكأنه يحدث شخصًا معه:

- *هل تسير القبور بموتاها؟! كيف انتقلت هذه القبور من مناطق مختلفة ومتباعدة واجتمعت في مكان واحد؟! أم أنها نسخة عن القبور السابقة؟!*

لم يستطع أن يحسم أمره، فكل العبارات على شواهد القبور تشير إلى أن كل قبر يمكن أن يكون القبر المقصود، فعاد وقرأ ثانيةً كُلَّ ما كُتب على القبور.

أخذ يحلل ما كُتب على كل قبر، ووجد أن لكل قبر قصة، لم يفهمها وقتها، وتذكر أنه كلما دخل مقبرةً كان يقوم بفتح قبرٍ جديدٍ، وأيقن أن هذه المقبرة يدخلها للمرة الأولى، وأن قبرا جديدًا يجب عليه أن يدخله هذه الليلة، فبحث بين كل القبور عن يمينه ويساره، فلم يجد قبرا مناسبا للقصة، وهنا شكَّ في أن القبر المقصود ربما سيكون خلفه، ولكن كيف سيلتفت إلى الخلف وقد حذرته ياسمين ألا ينظر خلفه، فعزم على ألا يلتفت، وبدأ السير إلى الأمام في مسار دائري لعدة دقائق حتى أصبح النصف الثاني للمقبرة أمامه، وعندما نظر إلى القبور فوجئ بأنه يرى عشرات القبور المتشابهة، والتي لا يختلف الواحد فيها عن الآخر.

وبدأ يتنقل من قبر إلى آخر ويقرأ عليه أسماء ساكنيه، وكلها كانت لأبناء الدهري والشامي، وبين القبور وجد قبرًا مكتوب عليه:

...هنا سكن فارس الدهري...

أسرع إلى بلاطة القبر ليرفعها وكانت ثقيلة جدًا، ولم يسترحْ حتى أزاحها واطمأن عند دخوله قبره، وإحكام إغلاق بلاطته، ولكنه لم يعد قادرا على رؤية إصبعه من الظلام.

في الطريق الى المكان....

العجوز البيضاء تطلب من التوأم العودة إلى البيت، لأنها تريد الاختلاء بالأم قليلا، فتسألها لعنة:

- *وإن خرج من القبر في الوقت المناسب ماذا سيحدث يا خالة؟*
- *يكون قد أوفى الشروط، سكن قبرا وأغلقه من الداخل، وحافظ على عهد جورجيت، وهكذا لن يكون لك حجة عليه.*
- *أتمنى ألا ينجح ، ويسكن القبر لسبعة أيام.*
- *لننتظر ونرى، لا تتعجلي الأمور؟*
- *أنت تعرفين أن ياسمين خادعتنا من أجل ابن الدهري، والأدهى من ذلك أنها أعطته قطعا من الذهب، وأخشى أنها تشتري بها حبه.*
- *أعلم كل شيء، كل هذا لا يهم، لقد نلت مرادك وها هو يسكن قبرا، أمّا فيما يخص الذهب فقد أخذت الإذن مني، وأنا سمحت لها أن تفعل به ما تشاء، امنحيها فرصة لتكتشف إن كان يستحق؛ ففي بريق الذهب لعنة أقوى من لعنة القبور.*

في الظلام...

فارس في الظلام يفكر، كيف سيعرف متى يرفع البلاطة ويخرج من القبر قبل شروق الشمس فيما لا يزيد عن ثلاثة عشر دقيقة؟!

حاول أن يحسب الوقت من لحظة حضوره إلى المقبرة حتى لحظة مغادرة العجوز، والوقت الذي أمضاه في البحث عن القبر، ولكن كان من المُحال أن يطمئن إلى نتيجة ثم قال لنفسه:

- *لقد أصاب الارهاق عقلي من هول ما رأيت الليلة حتى أني نسيت الساعة في يدي، فلماذا لا أنظر إليها!*

وأخرج قداحة معدنية من جيبه، ولكن كلما أشعلها تنطفئ قبل رؤيته عقارب الساعة، فأدرك قلة الأكسجين داخل القبر وبدأ في اعتقاد بأنه لو بقي في هذا القبر عدة دقائق أخرى سيموت حتما، دبَّ الرعب في قلبه، وبدأ يتخيل عشرات الصور، وجن جنونه عندما تذكر أنَّه إن لم يخرج من القبر في المدة المحددة، سيضطر إلى سكنه سبعةَ أيامٍ كاملة، وهنا يتساءل عن الدافع الذي يدفعه للقيام بهذا الجنون؟! ثم يتذكر ياسمين فيقول:

- *يجب أن أصمد من أجلها!*

ولكنه يجد أن خروجه في الوقت المحدد من المُحال حدوثه، فيقول:

- *هذه العجوز الخبيثة تعلم أنني لن أخرج.*

تغزو الأوهام رأسه ويقرر الخروج من القبر، وليحدث ما يحدث، ثم يتراجع ويعزم على الصمود، تارة يستعيد هدوءه وتارة أخرى يغضب ويعاتب نفسه:

- *ما الذي يستحق أن أدفن نفسي حيا بين الأموات من أجله!*

ولم يستطع فارس أن يحتمل فكرة بقائه في هذا القبر سبعة أيام بعدما أيقن من عدم خروجه في الوقت المناسب، فيقول:

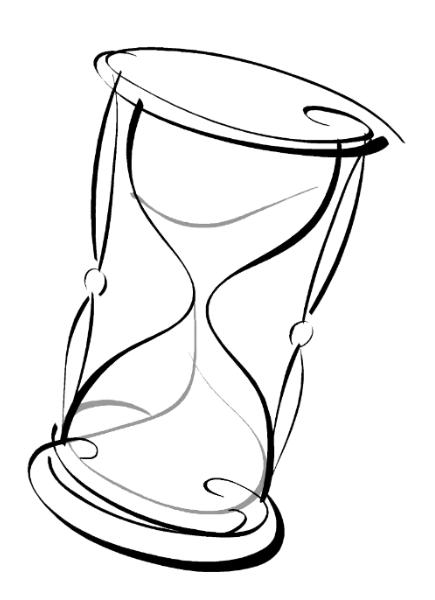
- *أي مجنون أنا؟! وما الذي أفعله؟!*

عزم على الخروج ورفع بقدميه بلاطة القبر، وهو يلعن بداخله كل من حوله، وخرج من القبر واتجه خارج المقبرة، لم يأبه بشيء، فقد كان يفكر فقط في الهروب من هذا الجنون.

يبحث عن سيارته ثم تذكر أنه طلب من صديقه أن يأخذها تحسبًا لاحتمال بقائه سبعة أيام، فيسير بمحاذاة الشارع وحيدًا وبدأ يشعر أنه قد حطَّم وراءه كل شيء، وتوقفت خطاه المتثاقلة عندما شرعت الشمس في الشروق، فوقف متسائلاً:

- *ربما قد نجحت وخرجت في الوقت المناسب! ولكني خرجت بعدما تخلَّيتُ عن كل شيء، وما دخل ما نويت؟! فالشرط أن أخرج في الوقت المناسب وقد نفذتُه.*

وبدأ يحسب الوقت ويدعو الله أن يكون قد خرج في الوقت المناسب حقًا.



بعيدا عن القبور...

سار فارس بمحاذاة الشارع لأكثر من ساعتين، ليجد من يقله إلى منطقة قريبة من مدينة الناصرة، ومنها يسير عائدًا إلى بيته، وفي الطريق تتوقف بجانبه فجأة سيارة بيضاء.

ينظر فارس داخل السيارة ويرى ياسمين خلف المقود، فيصعد إلى جوارها وهو خائف من غضبها، فيجد وجهها يشع فرحًا ويسألها:

- *من أين أنت قادمة؟*

فتجيب ياسمين في مرح:

- *طيلة الليل وأنا قلقة وما هدأت إلا بعدما علمت أنك خرجت في الوقت المناسب فأسرعت للحاق بك حبيبي.*

فرح فارس عندما أيقن نجاحه، ولكنه لم يجرؤ على النظر في باتجاه الخمار، خوفا من أن تعرف أنه فرَّ من القبر هاربًا بعدما تخلَّى عن كل شيء، وقال لها:

- *ياسمين، عندما كنت في القبر فكرتُ كثيرًا، وتخليت عن أشياء كثيرة بغير إرادتي الواعية.*

قاطعته ياسمين:

- *لا أحب سماع سيرة القبور ثانيةً يا فارس، لقد نجحت، والذي يستحق التفكير الآن تنفيذ كل شروط الخالة العجوز حتى نستطيع العيش كبقية الناس، لن تستطيع أن تتخيل فرحتي الآن .*

ابتسم ابتسامة خبيثة وقال في سره:

- *نجحت وليس لأحد دخل فيما فكرت فيه، ولعل الله قدَّر لي هذه الطريقة في التفكير لأخرج في الوقت المناسب!*

وسألها:

- *حبيبتي، لمن هذه السيارة؟*

ضحكت وقالت:

- *أفضِّل ألا تعرف.*
- *لقد أصبحت زوجتي ومن حقي أن أعرف كل شيء.*

فقالت وهي تضحك:

- *أولاً لست زوجتك، وهذا يعني الشرط الثاني للزواج على طريقة الـ"خالة" سأعيش معك ولكن يحظر عليك لمسي أو رؤية وجهي لمدة تسعين يومًا، ثم نتزوج بعد ذلك على طريقتك حبيبي، ثم على طريقة جدتي ووقتها سأصير زوجتك، أنا لست كبقية النساء، أنا حفيدة جورجيت، ولابد أن تتزوجني وتشهر زواجنا أمام الناس.*
- *ماذا أفهم بأنني سأتزوجك مرة أخرى؟!*
- *نعم حبيبي، لقد تزوجنا على طريقة العجوز، وبعد مرور تسعين يومًا ستتزوجني مثل كل البنات، إذا لم يكُن أجمل وافضل مني.*

فقال:

- *لم تنجب حواء أجمل منك.*

وصمت بعدما تعلَّق بصره بها ثم قال:

- *وماذا سنفعل الآن؟*

فقالت:

- *لا أعرف سوى أنني سأعيش معك ولن أخرج أبدًا وأنت مسئولٌ عني؛ تطعمني، وتسقيني، وتكسوني، وتوفر لي هواءً نقيًا.*

فكَّر فارس قليلا وقال:

- *إذًا نستأجر غرفةً في أحد الفنادق كي نستقر ونخطط لما هو آت.*

وما إن نطق فارس بهذه الكلمات، حتى كاد رأسه يخرج من الزجاج الأمامي للسيارة، حينما فرملت ياسمين السيارة في منتصف الشارع، فتوقف السير، وعلت أبواق السيارات تحثها على السير. وقالت غاضبة:

- *ما الأمر يا فارس! أتريدنا أن نكون نزلاء فندق من البداية، أليس لك بيت نسكن فيه، أو أهل نعيش معهم، أتشعر بالخجل مني بدلاً من أن تفتخر بي أمام أهلك!*

توقفت حركة السير تمامًا، ولم تتوقف أبواق السيارات، وعلا صراخ قائديها بعدما تمكَّن منهم الغضب وملل الانتظار، وياسمين لا تكترث بأحد، وفارس يرجوها أن تبعد السيارة عن منتصف الطريق وتتوقف جانبًا كيفما تشاء.

وياسمين تقول بفتور:

- *ليست مشكلتي، لم أطلب منهم المرور في هذا الطريق اليوم، والآن أخبرني أين سنسكن؟*
- *حيثما تشائين، سأفعل ما يرضيك ولكن تنحي بالسيارة جانبًا.*

اقترب أحد السائقين من السيارة غاضبا وقال لفارس:

- *ألا يمكنك أن تبعد السيارة؟ لقد تعطلنا عن أشغالنا!!!*

نظرت إليه ياسمين وقالت باستهزاء:

- *نعم ممكن ولكن ألا يمكنك أن تدفع السيارة حتى يدور المحرك؟ ولولا أن ساق زوجي مكسورة لدفعها وما كانت المشكلة.*
- *الله يشفيه.*

وبدأ دفع السيارة، وتعاون معه مجموعة من السائقين، وأثناء ذلك داست ياسمين فوق دواسة الوقود بقوة وانطلقت ليسقط أحدهم على الشارع فعلا ضحكها، بينما ينظر فارس خلفه غاضبا من جراء فعلتها، وقال:

- *ألم يأنِ لك أن تتركي هذه الحركات الصبيانية.*

فقالت في دلال:

- *سأفعل، ولكن لا أحب أن أراك غاضبًا منـي.*

ابتسم فارس وعاد لسؤالها من جديد:

- *لمْ تخبرينـي حتـى الآن، لِمَن هذه السيارة؟*
- *وكيف أعرف مالكها؟*

فارس مندهشًا:

- *من أين لك هذه السيارة يا ياسمين؟*
- *كانت مصفوفة بجانب الشارع تشتكي فراغها، وكنتُ أتلهف لرؤياك فاتخذتها وسيلةً للحاق بك.*
- *بهذه البساطة؟!*
- *وكيف لـي اللحاق بك ؟ أتريدنـي أن اركض لاهثةً وراءك؟*

فارس ساخرًا:

- *لا أحب أن تغبري قدميك، ولكن اسرقـي سيارة والحقي بي.*
- *هذا ما فعلته.*

تنهد وقال بهدوء:

- *وماذا نفعل لو أمسكت بنا الشرطة الآن؟!*

قالت ساخرة:

- *ولماذا تمسك بنا الشرطة! أممنوعةٌ سرقة السيارات!*
- *الأمر لا يحتمل المزاح، هيا نترك السيارة، ونستأجر أخرى.*

وبعد جدال مرير اقتنعت ياسمين، واستأجرا سيارة نحو الناصرة، وعند وصولهما طلب فارس من السائق أن يتوقف، فسألته:

- *ولِمَ التوقف هنا؟*
- *لنتناول الإفطار في أحد المطاعم.*
- *آسفة ، سنتاول إفطارنا في بيتنا .*

لم يكن أمام فارس خيارا آخر فتوجه إلى البيت، ودخل ومعه ياسمين البيت.

أخذتْ ياسمين تتجول في البيت، وتوقف فارس شارد الذهن يفكِّر في تأليف قصة لتستوعب أمه ما حدث، وتتفهم ضرورة ألا ترى شيئًا من زوجة ابنها بالرغم من أنها ستعيش معها في البيت.

ولمَّا أدرك أن ياسمين تتجول في البيت خاف أن تتفاجأ أمه برؤيتها فأسرع يفتش عنها في كل مكان حتى وجدها جالسة في المطبخ مع أمه فقال فارس:

- *صباح الخير يا أمي.*

الأم وفي عينيها ألف سؤال:

- *صباح الخير يا أستاذ فارس، صباح النور، صباح الياسمين.*

ارتبك ولم يدرِ ماذا يفعل أو يقول فقالت أمه:

- *لماذا تبدو مرهقا؟*

تنهدت ياسمين في قولها بعدما ضربت كفا بكف:

- *مما أصابه من تعب ليلة أمس يا حماتي.*

نظرت أم فارس بطرف عينها إلى ياسمين، وقالت:

- *وما الذي أتعبه؟*

فقالت مصطنعة المفاجأة:

- *ألم يحكِ لك فارس بعد!*

فقالت:

- *لم يحكِ شيئًا وأنتظر أن أسمع منكما معًا .*

فقالت ياسمين:

- *سأذهب أولاً لإعداد الإفطار ثم نجلس لنتبادل أطراف الحديث.*

وبدأت ياسمين تفتح الخزائن وتغلقها وتخرج الأواني وتعد الإفطار، وأم فارس تتابعها بعينيها من زاوية إلى أخرى، مصدومة من هذه الغريبة التي تعبث بممتلكاتها. لم تكف ياسمين عن التنقل من زاوية إلى أخرى، ولم تكف عينا أم فارس عن التنقل بينها وبين فارس وهي تشير إليه وكأنها تسأله:

- *ماذا يحدث هنا؟*

ثم نطقت الأم مستهزئة:

- *تحرري إذًا من الجلباب والخمار وغطاء اليد هذا، ألستِ في بيتك؟!*

فاقتربت ياسمين من أم فارس وبيدها حبة بندورة وسكين وانحنت عليها قائلةً:

- *لا أستطيع يا حماتي كما أني تعودت هذا، بأية طريقة تحبين إعداد البيض؟*

وأدرك فارس أن أمه ستنفجر من الغيظ، فأمسك بيدها وحاول أن يشدها ليتحدث معها في غرفة الضيوف إلا أنها تشبثت بالطاولة مثل الأطفال، ورفضت أن تستوعب ما يدور حولها .

وبدأت ياسمين ترتيب الصحون على الطاولة بسرعة مذهلة، وتعيد كل شيء مكانه وكأنها تعيش في هذا البيت منذ سنين، وفي هذه اللحظات دخل علاء، ففاجأته ياسمين قائلة:

- *صباح الخير يا علاء الفطور جاهز، ولو أنك لم تصحو لذهبت لإيقاظك، لقد أعددت قهوتك كما تحبها.*

جلس علاء بجانب الطاولة وكاد يضحك وهو يراقب نظرات أمه التي كادت تتشنج أعصابها من تصرف هذه الغريبة. وبعد جلوس الجميع قالت ياسمين لأم فارس التي مازالت تنظر إليها باستغراب:

- *ماذا بك يا حماتي؟*

ألقت أم فارس خدها على يدها وقالت:

- *لا شيء، ولكني أتساءل كيف ستأكلين ومازلتِ ترتدين الخمار وغِطاء اليد، أمتدينةٌ أنتِ إلى هذا الحد؟!*
- *لا تقلقي يا حماتي، تناولي إفطارًا شهيًا، وأنا سأتدبر أمري.*

وأخذت ترفع الخمار بيدها اليمنى وتأكل باليسرى، وأم فارس تتابعها حتى أنها كانت تتحني لتلمح وجهها، ولمَّا تكرر الأمر لم يتمالك علاء نفسه من الضحك، وعلى إثره ضحك فارس، وتبعته ياسمين، وجاهدت أم فارس نفسها لتحبس ضحكاتها، ولكنها انهارت في النهاية.

سقط علاء عن الكرسي وهو يضحك، واستمرت نوبة الضحك لدقائق، وكلما توقفتْ ضحك علاء مجددا فيضحك معه الجميع، وساعدت هذه الأجواء في نسيان أم فارس ما حدث في بيتها لبعض الوقت، فاستغل فارس الفرصة، وأخبر أمه وأخاه بأن ياسمين خطيبته، وأنه يعرفها منذ زمن بعيد، وسيتمم زواجه منها بعد فترة من الزمن، وأن هناك ظروفا خاصة –لا يستطيع الحديث بشأنها الآن– تمنعها من أن تخلع العباءة والخمار حتى لا يرى وجهها أحد، وأنها ستقيم معهم في البيت لحين موعد الزفاف.

ولم تجد أم فارس في حديثه الراحة، ولم تتوقف عن التساؤل، ولكنها لم تكن تحصل على أجوبة تشفي غليلها، أمَّا علاء فقد شعر بجو من المرح لم يعهده في بيتهم منذ فترة.

طلبت الأم من ابنها أن تحدثه بمفردها، فخرجا إلى الغرفة الأخرى، وما إن انفردت بفارس، حتى أمطرته بوابل من الأسئلة مهددةً ومتوعدة، فرجاها فارس وتوسل إليها أن تتقبل الواقع، فقالت له:

- *كيف أتقبل هذا الجنون! تقتحم بيتي امرأةٌ لا أعرف عنها شيئًا سوى أنها خطيبتك، وأنت على علاقة بها منذ زمن، وأنها ستقيم معنا ولا أستطيع رؤيتها، وماذا سنقول لجيراننا؟! مَنْ هي؟ ومَنْ أهلها؟ ومِنْ أين أتت؟ أشعر أن وراءها شيء غامض، إذا كنتَ متورطًا معها في أمر ما فلا تخفي عن أمك، كن صريحًا معي يا فارس، ستصبح لنا قصة تدور على ألسنة جيراننا بسببها.*

أمسك فارس بيد والدته وتوسل إليها من جديد لتحتمل الوضع القائم ليومين حتى يجد حلا، وأمام توسلاته رضخت الأم لطلبه بعدما وضعت عشرات الشروط للقبول.

غرفة نوم وخمار...

تنفس فارس الصعداء وعاد إلى المطبخ ليجد علاء وياسمين يتبادلان النكات، وبعدما خرج علاء قال فارس لياسمين:

- *أمي لن تتقبل إقامتنا معها بسهولة، لأن عقلها لم يستوعب الأمر بعد.*
- *لا عليك، غدًا تعتاده.*
- *أرجوك أن تتركي المزاح يا ياسمين.*
- *أنا لا أمزح، وما الخطأ الذي ارتكبته؟*
- *يجب أن تنامي في غرفتي، وسأشارك علاء غرفته كي نرتاح قليلاً، وبعدها نخرج سويًا لنشتري لك بعض الأغراض الازمة لإقامتك.*
- *لا أوافق، لابد أن نتشارك الغرفة نفسها وقت النوم.*
- *ولكن شرط العجوز ألا أرى وجهك مدة تسعين يومًا.*
- *وما المشكلة في ذلك، فلن تري وجهي.*
- *كيف ذلك! أترغبين في أن تهدم أمي سقف البيت فوق رأسي!*

في غضب:

- *تهدم أمك سقف البيت فوق رأسك أفضل من أن اهدمه انا، الشرط واضح ستعيش معي ولن ننام إلا في غرفة واحدة.*

استغرب فارس الطريقة التي تحدثت بها ياسمين، ولكن صوت بوق سيارته دفعه ليقطع الحديث، ويخرج ليجد صديقه قد أحضر السيارة، ووقف عند الباب ليطمئن على عودته بناءً على طلبه في الليلة الفائتة.

فرح صديقه لرؤيته، وأمطره بعشرات الأسئلة، وبطريقة لبقة طلب فارس منه أن يؤجلها، وأن يحتفظ بكل ما حدث سرا على أن يفصِّل له الحديث بعد أيام، وادعى التعب الشديد

ليتحاشى دعوة صديقه لدخول البيت حتى لا تزداد الأمور تعقيدا إذا وقعت عيناه على ياسمين بردائها الأسود، فغادر صديقه ولم يكن راضيًا عن استقبال فارس له.

عاد فارس إلى المطبخ، ولم يجد ياسمين لانتقالها إلى غرفة نومه لترتبها فدخل الغرفة وطلبت منه ياسمين أن يغلق الباب فحاول إقناعها بأن أمه لن تتفهم إغلاق الباب، وستبدأ في تفسير الأمور بشيء مشين. أمالت ياسمين رأسها وقالت:

– *أغلق الباب، ولا تثر جنوني بأمك، لقد فعلت كل ذلك لأتزوجك أنت لا لأتزوج أمك، توقف عن قول أمي أمي كالأطفال، لقد بدأ صبري ينفد؛ أمي لن تستوعب، أمي لن تحتمل، أمي تخاف، أمي ستظن بنا الظنون، وما شأني بأمك، ولا تنس أنني أيضًا لدي أم غير راضية، وغير مستوعبة، وتركتها غاضبةً من أجلك، سأسهر على راحة أمك، ولكن لا تشعرني بأنها أفضل من أمي، ليتك تستوعب كلامي!*

نوبات الغضب التي تمر بها ياسمين بين الحين والآخر تثير قلقه على قدرته بأن يحيا وسط هذه التناقضات؛ أمه بمفاهيمها وأسلوب حياتها الخاص، وياسمين بغموضها ومفاهيمها الخاصة. اقتربت ياسمين من فارس وقالت بلهجة هادئة وكأنها تعتذر عن ثورتها:

– *تعلم جيدًا أنني سأحب أمك كثيرًا، ولكن تذكري لأمي وشقيقتي وعتمة القبور...لم أتمالك نفسي، لا تغضب يا حبيب.*

ظل فارس على صمته، فقالت:

– *سأتركك لتستريح وسنتحدث عند عودتي.*

فسألها:

– *إلى أين ستذهبين؟*

– *سأحضر أغراضي من بيتنا، أترغب في مرافقتي؟*

- *اذهبي وسأنتظر عودتك، ولكن كيف ستذهبين؟*
- *سأستقل سيارتك.*
- *وكيف ستخرجين أمام أعين الجيران هكذا.*

رمقته بنظرة حادة، وقالت:

- *سأرتدي (مايوه سباحة) عند خروجي.*

وسحبت مفاتيح السيارة من يده وخرجت مسرعة، وما هي إلا ثوانٍ حتى ملأت الحارة بصوت بوق السيارة المتواصل فهرع الجيران إلى الشارع، وركضت أم فارس إليه متمتمة:

- *هل يعجبك ما تفعله هذه المجنونة؟*

ولأن فارس عالق بين ياسمين وجنونها، وتساؤلات أمه وحيرتها صرخ قائلا:

- *هذا قدر الله، هذه البنت تنتابها حالات جنون، ولابد أن نحتملها، والآن أرغب في النوم لأستريح ! وسنتحدث لاحقًا.*

ذهب للنوم، ولم يكن مستغربا لو استيقظ ووجد ياسمين قد أحضرت جَرَّافة وبدأت بهدم البيت على رأسه؛ فلا يستطيع أحد أن يتنبأ بما قد تفعله.

الجماجم تغزو البيت...

مرت ساعات، وأفاق فارس على رائحة بخور غريبة، وفتح عينيه ووجد ياسمين ترتب مجموعة من الشموع في غرفة نومه التي انتشرت في أرجائها عباءات وأغطية أيد سوداء، وجماجم صغيرة كتلك التي رآها معها في المرة الأولى للقائهما، لم يتمالك نفسه وأخذ يضحك، حينما تخيل أمه تدخل الغرفة، التي حولتها ياسمين الى مقبرة، وسألها:

- *ما هذا يا ياسمين؟*
- *أغراضي، هل تجد فيها شيئًا غريبًا؟*
- *لا غرابة في شيء.*

اقتربت من فارس كطفلة صغيرة وقالت له هامسة:

- *اخرج لترى ماذا جلبت لك في غرفة الضيوف، شيء لن يتخيله عقل.*

وما كاد يسمع ما قالته حتى قهقه بأعلى صوته؛ فقد تخيل أنها أحضرت قبرا معها ووضعته في غرفة الضيوف، فعلقت:

- *علام تضحك؟*
- *لا شيء، ينتابني بعض السرور.*
- *اخرج لترى، وعد لي برأيك.*

خرج ضاحكًا متوجهًا إلى غرفة الضيوف ليرى المصيبة التي حطتْ على رأسه، ولمَّا دخلها فوجئ بما لم يكن يتوقعه؛ مجموعة من القطع الأثرية النادرة، صُنعت قبل مئات السنين، أخذ يتفحصها، ويلمسها بيديه وشرد بفكره:

- *لابد أنها تساوي ثروة طائلة.*

دخلت خلفه وقالت:

- *ما رأيك إذًا؟ هيًا لأريك ما جلبته لأمك.*

وسحبته إلى الغرفة، وأعطته صندوقا يفيض بقلادات ذهبية وفضية متنوعة، تجلَّى فيها الاحتراف، وأصالة الفن، ودقة الصنع، تدل نقوشها على أنها تعود إلى عصور قديمة. وأشارت ياسمين إلى الطاولة، لينظر فارس إلى سيفٍ ذهبي مُرصَّعٍ بالجواهر، وقالت له:

- *وهذا هدية أخيك علاء، لقد رأيت سيوفًا معلَّقةً بجدران غرفته فبحثت كثيرًا حتى وقع اختياري على هذا السيف الجميل وهو أفضل السيوف التي نقتنيها.*

تلعثم فارس ولم يدرِ ماذا يقول، وتساءل:

- *هل تدرك ياسمين قيمة هذه الأشياء أم تجهلها؟ لابد أنها تدركها، لقد أدركت قيمة القطع الذهبية من قبل.*

فسألها:

- *من أين أحضرت كل هذه الأشياء؟*
- *لدينا منها الكثير في بيتنا، ولو أردنا أن نحصيها لما استطعنا، وكانت أمي تقول لنا دومًا "قد يأتي يوم ونستفيد منها"، ولم نستخدم منها في حياتنا سوى قطعًا ذهبيةً صغيرةً؛ عندما كنت أخرج مع شقيقتي ونصادف شخصا نشعر بأنه نقي القلب كنَّا نعطيه قطعة أو قطعتين.*

فسأل:

- *وكم لديكم من هذه القطع؟*
- *لم نفكر في عدِّها يوما.*
- *أتدركين أنكِ تتحدثين عن ثروة طائلة.*
- *نعرف ذلك جيدا، ولقد أخبرتك أن لدينا من الذهب ما يشتري بلادكم، ولكنه بالنسبة لنا لا قيمة له، ولا نحتاجه، وأظن أننا لن نحتاجه أبدا.*

- *حسنًا، ألم تعارض والدتك والعجوز إخراج هذه الأغراض من المقابر؟ لا أدري! من بيتكم؟ أو من حيث أحضرتها؟*
- *كلا، ولماذا يعارضون! هذه أمور لا قيمة لها، وإن كانت تفيدني خارج القبور، فلمَ لا أُخرجُها؟*

ياسمين تتحدث مع فارس وترتِّبُ أغراضَها التي أحضرتها في غرفة نومه، فتضع جمجمةً هنا، وجمجمة هناك، وتصف الشموع والبخور وبعض القطع الفريدة التي ملأت الغرفة، وغيَّرتْ شكلها، وأخفتْ النوافذ بستائر قماشية سوداء حتى لا يتسلل النور إليها. وفارس تارة يبتسم، وتارة يحك رأسه، وهو يراقب، ولم يكن ليتخيل نفسه يستطيع قضاء ليلة واحدة وسط هذا الجو الغريب الذي صنعته ياسمين، ودعا الله أن تكتفي ياسمين بتغيير هذه الغرفة فقط، وتمنى لو يستطيع إقناعها بإخفاء الجماجم الصغيرة عن الأنظار؛ حتى لا يراها أحد وبخاصةٍ أمه، فقال مُحاولا إخفاء اهتمامه بوجود الجماجم:

- *أتدرين يا ياسمين، كل شيء في الغرفة أصبح جميلاً إلا هذه الجماجم ليست في مكانها، لا أدري، ربما ترينها جميلة، ولكن ما رأيك لو وضعناها في الخزانة؟*

ضحكتْ وقالت:

- *أعرف أنك لا ترتاح لوجودها، أولاً لقد أخبرتُك من البداية أنها ليست جماجم إنما هي مجرد أحجار أتفاءل بها، وهي أغلى ما لدي، والوحيدة التي لها قيمة عندي، لماذا تظن أنها جماجم؟*
- *لأنها جماجم، شكلها جماجم، لونها جماجم، أتريدين أن أسميها أحجارًا وهي جماجم!*

أمسكتْ ياسمين بيدها جمجمةً وقالت:

- *انظر إليها جيدا، أرأيت في حياتك جمجمةً بهذا الحجم؟*

- *من الممكن أن تكون جمجمة لشخص برأسٍ صغيرة جدا، أو ربما لطفل.*
- *من الواضح أنك لن تقتنع، وأنا لا أكذب، هي ليست جماجم، ولو كانت كذلك لأخبرتك.*

أعادت الجمجمة مكانها، وأخذت ترتب ملابسها في الخزانة، وفارس يراقب لعله يرى لونًا خلاف الأسود! ولكنه يتفاجأ بأن ياسمين تقوم بإخراج عشرات العباءات، وأغطية اليد، والأخْمِرة، وبالرغم من أن جميعها سوداء اللون إلا أنها لا تضعها في مكان واحد، فيسألها:

- *هل من الممكن أن توضحي لي الفرق بين هذه العباءة وتلك؟*

تضحك قائلة:

- *الفرق كبير جدا؛ هذه عباءة للمناسبات، وتلك للبيت، وهذه للنوم.*
- *ولكني لا أرى أية فروق ولا أستطيع التمييز بينهم.*
- *ربما لا تستطيع أنت التمييز، ولكن كل قطعة مصنوعة من قماش يميزها عن غيرها.*

سمع صوتا خارج الغرفة يناديه فخرج، فوجد والدته ترمقه بنظرات غريبة، وقالت له:

- *تفضلا لتتناولا الطعام، أنت والشيخة...!*

اصطحب فارس ياسمين إلى المائدة، ولم يكن لديها رغبةً في الطعام ولم تأكل إلا مجاملة لأم فارس، وبعد الانتهاء أسرعتْ لإعداد القهوة وعادت بها على عجل.

كان الجو أقل توترا بين أم فارس وياسمين، فسألتها :

- *من أين أنت يا ابنتي؟ ألم ترغبي في أن تخبريني عن أهلك لنزداد قربًا؟*

صمتت ياسمين قليلا، ثم قالت في شجن:

- *كنت صغيرة عندما مات أبي، تركني وأختي بصحبة أمي، وكانت أمي تحبه كثيرًا وتعلق عليه آمالاً، ولمَّا قست علينا الحياة نذرتْ أن نرتدي الأسود الذي*

يحجبنا عن أعين الشر حتى نتزوج ونتجب، ولأني وأختي نحبها كثيرًا، وليس لنا في الحياة سواها فإننا نفضل الموت عن مخالفتها، وهذا هو سبب ما أرتديه، أمَّا عن مسقط رأسي فقد ولدتُ في الشام، وبعد موت أبي ارتحلنا بين البلدان بحثًا عن الراحة حتى حَلَلْنا في فلسطين قبل أعوام.

فقالت أم فارس بصوت حانٍ:

- *تشقين على نفسك يا بنيتي، ولمَ المبالغة في تسترك خلف هذا السواد أمام أعين الرجال والنساء أيضًا، كيف تستطيعين احتمال هذا كله؟*

تنهدت ياسمين وقالت:

- *النذر نذر يا خالة، ولو كان الأمر بيدي لما فعلتُ.*

شعر فارس براحة لما رآه من تقاربٍ وانسجامٍ بين أمه وياسمين، وأفرحه قدرة ياسمين على المحاورة والإقناع، واستمر الحوار لساعات ولم تمل إحداهن الحديث، أو ربما هذا ما خُيِّل لفارس؛ فقد كان يخرج ويعود ومازال حديثهما مستمرًا حتى جاوز شخصية ياسمين الغامضة وامتد إلى أمور شتى، بِدءا من البيت ووصولا إلى الجيران.

تسارعت عقارب الساعة حتى حلَّ الليل، ولم يجد فارس مبررًا عندما تعلم أمه أنه سينام بصحبة ياسمين في غرفة نومه، أو عندما تدخل الغرفة وترى الأجواء الغريبة التي صنعتها من جماجم وشموع.

ابتهل فارس داعيًا الله أن يصيبها النعاس وتذهب للنوم حتى انتصف الليل وقصدت غرفتها بعدما سألت ياسمين إن كان ينقصها شيء، وأخبرت فارس بأنها أعدت له فراشًا في غرفة أخيه، وبدأ فارس في محاورة نفسه:

- *كيف تستطيع ياسمين النوم بملابسها التي تخفي كل شيء فيها! وإلى أين ستأخذ الظنون عقل أخي الذي سيعلم حتما أنني أمضيت الليلة بصحبتها في غرفة نومي؟*

وبينما هو في قلقه أشارت ياسمين إليه أن يرافقها إلى الغرفة فتبعها وبادرتْ بإغلاق الباب فور دخولهما، وقالت:

- *ليست لدي أدنى مشكلة في سهري حتى الصباح، ولكني أخشى على صحتك، وعليك أن تنام حالا.*

أشعلت الشموع، وبعض أعواد البخور، ومازال فارس واقفًا لا يعلم ماذا يفعل وكأنه ينتظر أوامرها فالتفتت إليه وقالت مستغربة:

- *هل ستظل واقفا! استبدل ملابسك واخلد إلى النوم.*

استبدل ملابسه أمامها في ارتباك، وتمدد في سريره على استحياء، وبقتْ عيناه مفتوحتان تراقبان ما تفعله.

أخرجت إحدى العباءات وخمارا، فأرادت عيناه التلصص لعله يرى شيئا غير هذا السواد! ولكنها خيبت أمله قائلةً:

- *يا حبيبي، أدر ظهرك حتى أتمكن من تغيير ملابسي.*

فأدار ظهره، وما هي إلا لحظات حتى استلقت بجانبه، وطلبت منه أن يحضنها فطوقها بذراعيه وهو مرتبك، وقالت له:

- *تصبح على خير.*

يحتضنها، وتطوف في مخيلته عشرات الصور، فيكاد يعتصرها بين ذراعيه ثم يطلقها برقة، ويراوده عقله في كشف الرداء الأسود، ثم يعدل عمَّا راوده خوفًا من غضبها، ويحاول جاهدًا التحايل على النوم وطرد الصور التي ألهبت شهوته، ولكنه لم يقو على ذلك، ففكر في ترك الغرفة، أو الابتعاد عنها قليلا، ولكنه خشى أن يتحرك حتى لا يوقظها.

تمنى لو يستطيع أن يقبلها ولو قبلة صغيرة، أو أن يتحسس جسدها بلا حجاب، ولكن هيهات هيهات؛ فالقماش الأسود لم يترك له ثغرة واحدة.

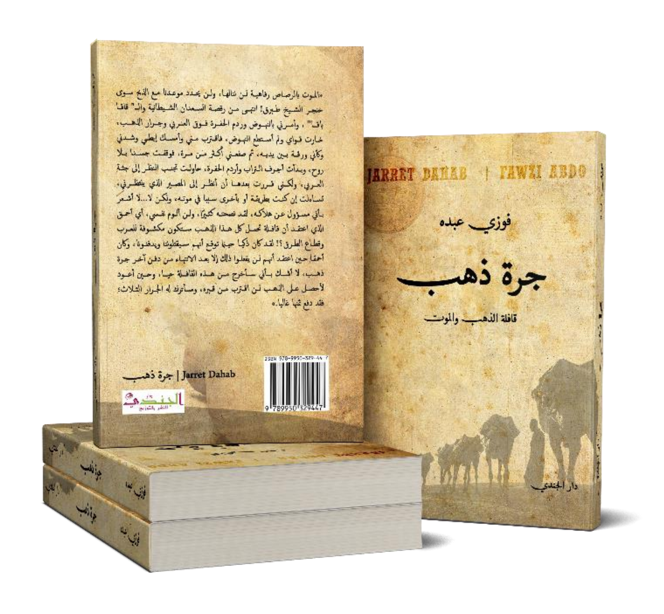
يفتح عينيه ويتذكر أن الليلة الفائتة هي أول ليلة تنام فيها امرأة على فراشه، لم يدر كيف نام! ولم يجد ياسمين بجانبه فيجلس على سريره ويجول بعينيه في أنحاء الغرفة بحثًا عنها بعدما ترك وسادةً كان يحتضنها، ثم يغادر غرفته المعتمة فيرى الشمس قد تسللت إلى البيت، وأدرك أنها التاسعة صباحا، ثم يتوجه إلى المطبخ ليراها تشرب القهوة وتضاحك أمه. يغسل وجهه ويستبدل ملابسه ويتساءل:

– *هل عرفت أمي أين قضيت ليلتي؟*

ثم يعود إلى المطبخ من جديد، فتقدم له ياسمين إفطاره وتخبره بأنها أفطرت مع أمه قبل ساعات، ولم تشأ إيقاظه، وينظر إلى عيني والدته؛ لعله يعرف شيئًا! التاسعة صباحًا ولابد أنها تجولت في جميع غرف البيت كعادتها كل صباح، لا يدري ماذا يفعل، أو إلى أين يذهب، فهو ينتظر أوامر ياسمين.

فتقول ياسمين:

– *أظن أن عليك العودة لعملك، أم أنك ستبقى جالسا في المنزل؟!*



[الرواية متوفرة pdf على الانترنت وبالإمكان تحميلها فورا]

بين الحلم والواقع...

يغادر البيت، ويجدها فرصة للتوجه إلى نابلس لرؤية صديقه الذي يدين له بالكثير، ولمَّا آتاه شكره واعتذر ورجاه أن يبقي ما حدث في المقبرة سرا، وأن يحاول اختلاق أية حكاية لهؤلاء الجبناء الذين هربوا، حتى لا تتحول حكاية المقبرة إلى قصة تتناقلها الألسنة. فطمأنه صديقه بقوله:

- *لقد فعلتُ ذلك وأخبرتهم بأن ما حدث في المقبرة ما هو إلا محاولة لسرقة القبور، والمقنعات اللواتي خافوا منهن رجالٌ تخفوا حتى لا يكشف أمرهم أحد.*

اختلق صديقه قصةً للهاربين، ولم يقتنع بأن مَنْ رآهم ليسوا من الجن.

عاد فارس إلى البيت مساءً، ووجد ياسمين في انتظاره وسألته إلى أين ذهب فأخبرها، وسألته متى سيعود لعمله؟ فأجابها بأنه لم يعد لديه عمل يقوم به. فقالت له:

- *أمك أخبرتني أنك لم تعد تعمل، وأنك لا تنام في البيت أياما كثيرة.*

فضحك وقال:

- *ولكنك تعرفين السبب.*
- *حسنًا، عليك الآن العودة إلى العمل، حتى نبدأ في التخطيط لمستقبلنا.*

حديث ياسمين أضحكه؛ فكل الذهب والثروة التي تملكها، وتطلب منه العمل من أجل المستقبل.

- *وماذا يمكن أن أعمل؟ أجر عملي لمدة عام يساوي قطعة ذهبية صغيرة من تلك التي لديك.*

هزَّت رأسَها وقالت:

- *هل تعرف ماذا خطر ببالي؟ لدينا الكثير من الصناديق الملآنة بالذهب وأشياء ثمينة كثيرة لا حصر لها، هذا ما أملكه أنا وأختي وأمي، ولكني أعلم*

أسرارًا تحت الأرض لا يمكن لعقلك تصورها، فماذا تظن بوسعنا أن نفعل بها؟

- *أشياء كثيرة ، من الممكن أن نعيش أفضل من ملوك الأرض.*

شرع فارس في حديثه لها عما يمكن فعله، وياسمين تهز رأسها وتصغي باهتمام كبير، ومرَّ أكثر من ساعتين وفارس يسهب في حديثه، وقد شغفها قولاً، فهي تنصت بلا ملل، ولم تقاطعه إلا لتشاركه بعض المقترحات مثل شكل القصر، وموقعه، ونوع الحديقة، وعدد الخدم والطباخين. وقفت ياسمين وقالت في سرور:

- *علينا الاحتفال الليلة خارج البيت، هيا بنا وسأخبر حماتي بأننا سنتأخر.*

خرجا واستقلا السيارة، وطلبت ياسمين من فارس أن يتوجه إلى نابلس، فقال:

- *لا تخبريني أننا ذاهبون إلى المقابر.*

- *أبدا يا حبيبي، أخبرتك أننا ذاهبون للاحتفال بمستقبلنا السعيد المُنتظر.*

حاول فارس أن يثنيها عن الذهاب إلى نابلس مدعيًا عدم جواز الخروج بعد تأخر الوقت، ولكنها أصرت على ذلك، وحين وصولهما طلبت منه أن يتوجه إلى صديقه الذي شهد على زواجهما.

استغرب فارس الأمر وعارضه بشدة، محاولا استيضاح السبب، فأخبرته أنها تريد أن تكافئه، فقال لها:

- *لقد فعلتُ وأعطيتُه الكثيرَ من النقود، ولكنها أصرَّت على أن تكافئه بنفسها.*

وأمام إصرار ياسمين وعنادها، توجه فارس وبحث عن صديقه حتى وجده، وطلب منه أن يصعد إلى مقعد السيارة الخلفي، وما إن رأى صديقه ذات الخمار تجلس بجانبه حتى تجهم وجهه، وتردد في بادئ الأمر ثم صعد وهو يتمتم سرًا:

- *يبدو أنها ليلة سوداء منذ البداية.*

ولكن ياسمين أخرجت من تحت عباءتها مجموعة من الدولارات وقالت له:

- *هذه هدية صغيرة من أخيك فارس.*

وطلبت منه أن يردد عدة كلمات، رددها وهو سعيد، ثم قالت له:

- *تصحبك السلامة.*

وطلبت من فارس أن يعود إلى الناصرة، فسألها فارس:

- *ماذا عن الكلمات التي طلبتِ منه أن يرددها؟*
- *شعرت أن صديقك يحبك كثيرًا، ورغبت في مساعدته كي ينسى ما حدث برمته، حتى أنه لن يتذكر مكافأته مني ومنك أيضًا، وهو يستحق كل الخير.*
- *ومن أين لك هذا المال؟*
- *من خزانتك يا حبيبي.*
- *وهل أعطيتيه كلَّ ما في الخزانة؟*
- *لا أعطيته جزءًا، وأبقيت معي جزءًا من أجل احتفالنا، وأبقيت في الخزانة جزءًا.*
- *والآن ما الذي تنوين فعله؟*
- *ادخل هذا الشارع.*

فدخله ببطء، ثم طلبت منه أن يسرع، ففعل وفتحت نافذة السيارة وألقت الدولارات هنا وهناك، حتى نفد كل ما تحمله، وهو لا يدري أيضحك أم يبكي! ولكنه ضحك لأنه رآها تفعل هذا بسعادة بالغة، وقالت له:

- *غدًا عندما يستيقظون ستغمرهم السعادة، وهكذا أنهينا احتفالنا، هيَّا نعد إلى البيت.*

عاد فارس إلى البيت وطوال الطريق أخذ يفكر:

- *أي احتفال مجنون هذا!*

دخلا البيت وعلاء وأمه نائمان، فتوجها إلى الغرفة وحدث ما حدث في الليلة السابقة.

إعلان الإفلاس...

حينما استيقظ فارس في الصباح وجد أمه وياسمين في المطبخ، وبعد أن أنهى فطوره، قالت له ياسمين:

- *فارس، لقد تأخرت، لابد أن تذهب لعملك.*

وناولته ورقة وقالت له:

- *أرغب أن تحضر معك هذه الأغراض عند عودتك.*

هز فارس رأسه واستدار إلى الغرفة، وفتح الخزانة ولكنه لم يجد فيها سوى مئة دولار، وبحث هنا وهناك ولم يجد شيئا، فخرج من غرفته بعدما ابتسم إلى الجماجم المصفوفة. خرج واستقل سيارته وزار مجموعة من الأصدقاء وقام بشراء الأغراض وعاد الى البيت واستقبلته ياسمين عند الباب، وقالت له:

- *ألم تذهب إلى عملك؟*

فابتسم فارس، فقالت:

- *نعم، لقد نسيت.*

فتناولا طعام الغداء وأمضيا بقية النهار في الحديث عن مخططات المستقبل.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ فارس مبكرًا ولم يجد ياسمين بجانبه، وكما اعتاد توجه إلى المطبخ فوجد أمه وياسمين منسجمين يعدان معا طعام الإفطار، وقف صامتًا وشعر بسعادة أمه وتعلقها بياسمين، ولم يعتد أن يراها سعيدة كما رآها في اليومين السابقين، تساءل ولم يزحزح بصره عنها:

- *هل تعلم أنني أنام في غرفة ياسمين ولم تهتم؟ أم أنها لا تعرف حتى الآن؟*

لا يجرؤ أن يسألها ولا يدري كيف يعرف، جلس وتناول معهما طعام الإفطار وبعدها قالت ياسمين:

- *ألم تتأخر عن عملك؟*

فرد ساخرا مبتسمًا:

- *لدي إجازة اليوم.*

جاوبته بابتسامة خبيثة، وطلبت منه أن يجلس ويتحدث طالما أنه لن يعمل، ضحك فارس واصطحبها إلى شرفة البيت، فسألته:

- *لقد أخبرتني أمك عن جارتكم التي تُوفي عنها زوجها، وعن سوء حالها، يجب عليك مساعدتها، فالنقود لا قيمة لها، وسيارتك المرسيدس هذه لا أحبها، لا أريد رؤيتها هنا اليوم، اذهب ولا تعد إلا بعدما تجد لها حلا.*

خرج فارس وهو يضحك إرضاءً لياسمين، وقصد أحد معارفه، وباع سيارته بثمن زهيد لا يساوي قيمتها، واستأجر سيارة وعاد إلى البيت بعد الظهر.

استقبلته ياسمين وقالت له:

- *هل ذهبت إلى عملك اليوم؟ وضربت يدها على رأسها وقالت: ماذا حدث لذاكرتي، نسيت أن إجازتك اليوم.*

فأخبرها أنه باع السيارة وقبض ثمنها ففرحت وقبلته من خلف الخمار، فقال لها:

- *قبلة زائفة لا تفيد.*

ضحكت وقالت:

- *اصبر، لم يتبق الكثير، والآن سأذهب لأستريح.*
- *أتقصدين الغرفة الآن؟*
- *لا، سأذهب لأعط جارتنا بعض المال، فلديها ثلاث بنات، وحالهم متعثرة.*

أخرج فارس من حافظته بعض النقود، فهرعت إلى الغرفة غاضبة ولحق بها لا يعلم سر غضبها، فقالت له:

- *ألا تفهم؟ عندها ثلاث بنات، وتعلم أننا نحب البنات كثيرًا، وكل بنات الدنيا أخواتي، وأنت تبخل عليَّ ببعض النقود التي لا قيمة لها.*

ضحك فارس وقال:

- *سمعًا وطاعةً حبيبتـي، لو أردتِ أن نعطيهم النقود جميعها فلا بأس.*

تدللت ياسمين في قولها:

- *لم أرد ذلك، ولكن أعد لأخيك علاء 1500 دولار، أم نسيت أنك اقترضتهم منه منذ زمن؟*

ابتسم فارس وأخرج من النقود 1500 دولار، وغلَّف بقيتها وهمَّ بالخروج، ولكنها استوقفته وطلبت منه أن يرسل للجارة النقود بحيلةٍ لا تشعرها بأنه يمُنُّ عليها.

خرج وتحير في طلب الحيلة حتى أنجز ما طلبته حبيبته، وعاد بعد مضي ساعتين فطلبت منه أن يعطي علاء نقوده ففعل، وأمضيا بقية النهار فرحين بما فعلاه من الخير، وفي صباح اليوم التالي استيقظت ياسمين باكرا، فقام وتناول طعام الإفطار، وأخبرته أنها تنتظره بعد عودته من العمل، ليشتريا بقية الأغراض.

خرج فارس من المنزل وهو يفكر فيما تفعله ياسمين؛ لم يعد لديه مال استجابةً لرغباتها فقصد البنك واستدان ثلاثة آلاف شيكل، وعاد إلى المنزل فاستقبلته قائلةً:

- *لماذا عدت مبكرًا من عملك اليوم؟*

فضحك فارس وقال:

- *أنسيتـي يا ياسمين؟*

فقالت ضاحكة:

- *أمزح فقط.*

وخرجا معًا للتسوق، وجاوزت ياسمين الحد في شراء الأغراض المنزلية، ولمَّا لم تكفِ نقوده اضطر إلى الاستدانة من أحد المحلات بناءً على معرفة سابقة، وعادا إلى البيت مساءً.

ومرت الايام، ولم تغادر ياسمين البيت إلا إذا أرادت شراء أغراض المنزل الضرورية. أحبَّتها أمُّ فارس والجارات والقريبات حبًا لا مثيل له، وكانتْ حكايةُ النذرِ مقنعةً للجميع، فاعتدن على ألا يرين وجهها، بِناءً على وعدها لهن بأنهن سيرونها قريبًا، وبعد مضي أسابيع من مكوث ياسمين في بيت فارس، استيقظ فارس وتناول إفطاره كعادته، ورفضت ياسمين أن تأكل شيئا، وخرج وهو يتساءل لماذا تصر ياسمين أن تكلمني بالطريقة نفسها كل صباح عند خروجي وعودتي! ولكنه ظنَّ أن الأمر يتعلق بأمه. وحينما عاد استقبلته ياسمين، وسألته عن عمله فأجابها الجواب نفسه، فضحكت وقالت له:

- *أنا أمزح.*

أعدت له غداءه ورفضت تناول الطعام، وكذلك مع العشاء، فأمسكت أم فارس بابنها، وتنحتْ به جانبا وسألته:

- *ما لها ياسمين ترفض الطعام منذ أيام؟*
- *لا شيء، كل شيء كالمعتاد.*

وفي اليوم التالي تكرر الأمر، فجلس فارس إلى ياسمين وسألها:

- *ماذا بك؟ أهناك من أغضبك؟*

فضحكت ياسمين وقالت:

- *هل يبدو عليَّ الغضب! وهل هناك ما يُحزن!*
- *ولِمَ لا تأكلين؟*
- *وماذا آكل إن كان البيت خاليًا من الطعام!*

فضحك فارس وقال:

- *إن لم يعجبك الطعام أذهب الآن وأحضر لك كلَّ ألوان الطعام.*

فضحكت ياسمين، وخرج فارس وأحضر من الطعام ما تشتهيه الأنفس، ورفضت ياسمين أن تأكل شيئا. جُن جنون أم فارس، وصرخت في ولدها قائلة:

- *ألم ترد إخباري بحقيقة الأمر بعد؟ لقد مضى عليها يومان بلا طعام.*

تحيَّر فارس في أمرها وأقنعها بأن يخرجا معا، وفي المساء دخلا أحد المطاعم الفاخرة، وياسمين سعيدة تضحك كعادتها.

طلب فارس الطعام ورفضت ياسمين أن تأكل شيئا، فلم يأكل فارس أيضا، وعادا إلى السيارة، ونظر إلى ياسمين قائلا:

- *أمي تحبك وتعنفني من أجلك، وقد عجز عقلي عن التفكير، وأنتِ لمْ تكوني كذلك من قبل، فما الأمر إذًا؟*

فضحكت ياسمين وقالت:

- *لا شيء يا حبيبي، عزمتُ على ألا آكل إلا مما تحضره.*

فاستغرب وقال:

- *لقد أحضرت من الطعام ما لَذَّ وطاب، ولم يعجبك، فاذكري لي نوعًا تحبينه وسآتيك به حالاً.*

- *ما تستطيع أن تجلبه يكفيني.*

لم يفهم ما قصدته، وشعر أنها تحاول إثارته فقال:

- *ما القصة؟ أتريدين أن تثيري جنوني مثلما كان فيما مضى؟*

فقالت ساخرة:

- *لا يا حبيبي، وأنا لا أطلب المُحال، إنما أريد أن أكون مثل أية زوجة، أشعر أن زوجي مسئول عني، وألا آكل إلا من كدِّه وعَرقه، وليس من طعام تأت به أمُّه أو يجلبه أخوه، تقترض من غيرك لتأخذني إلى أحد المطاعم الفاخرة، وتعلم جيدًا أن لدي ما يكفي لشراء جميع مطاعم البلد بأسرها، كما أني مللتُ*

حكونا كل يوم عن أحلامنا بالقصور والسيارات والخدم والرفاهية التي لا حدود لها، وأنت لا تستطيع أن تجلب طعام زوجتك، لن آكل إلا بعدما تترك أحلامك عن الكنوز والذهب، وتفكر في عمل يوفر لي ولك لُقمةَ العيش، وحتى تستطيع لن آكل كسرة خبز ولو أدى الأمر إلى موتي وعودتي إلى القبور التي جئتُ منها بلا رجعة.

وعند نطقها لفظة "قبور"، اختنق صوتها، وأسبلت عيناها دموعًا ، فأوجعت قلبه العاشق، وأذهلته بفكرٍ لم يخطر بباله قط، وشعر بأن أشياء كثيرة كانت تخفى عليه من شخصية حبيبته، كما شعر بأن كل أحلامه قد انهارت في لحظات، ولم يفهم لماذا دفعته لينفق كلَّ ما يملك ويستدين، فسألها:

- *لماذا يا ياسمين؟*
- *لأنني أريد إنسانا يحبني وأحبه، ولا تنس أنه لن يخرجني من العتمة إلى النور إلا حبٌّ حقيقي، أنا لا أريد قصورًا ولا خدمًا.*

فقال بهدوء:

- *ولكن يا حبيبتي، إن كان المال متوفرًا فمن المنطق أن نستغله، وأنت تعرفين طبيعة عملي، والصفقات التجارية تحتاج وقتا حتى تثمر.*
- *صفقات الاحتيال وسرقة الناس ليست عملا، والمال ليس له قيمة لدي، والذي عاش مثل حياتنا يعرف معنى كلامي، والسعادة لا تُشترى بالمال، والقرار يعود إليك الآن، هيا بنا إلى البيت.*

عادا إلى البيت، وكلما حاول أن يقنعها بتناول الطعام، تصدت له ومنعته الحديث. وفي اليوم التالي أيقن فارس أن ياسمين لن تأكل إلا إذا اشترى طعامًا حلالاً من كدِّه، ويعلم أنها عنيدة صُلبة ولن تتنازل أبدًا، فخرج من البيت وعاد بعد الظهر سعيدا، فاستقبلته كعادتها، وسألته فأخبرها أنه استطاع عقد صفقة تجارية صغيرة، لا احتيال

فيها، حصل منها على بعض النقود وأحضر منها طعامًا، ابتسمت ياسمين، وتابع فارس حديثه:

– *والآن سنتناول الطعام معا.*

أعدت ياسمين الطعام، وجلس وبدأ بتناوله وهي جالسة تبتسم ولم تمد يدها.

ترك ما في يده من طعام وسألها:

– *لِمَ لا تأكلين إذًا؟ ألديك عذرُ جديد؟*

فابتسمت وقالت له:

– *كُلْ يا حبيبي، هنيئًا مريئًا.*

علم أنه لن يستطيع خداعها، ووخزه ضميرُه، فترك الطعام وخرج من البيت، وأصرَّ أن يعمل هذه الليلة أي عمل ولو كان مُمتهنًا حتى يحضر الطعام.

حالفه الحظ ووجد عملا مقابل أجر زهيد، استغرقه ساعات حتى أنهاه، ولم يتخيل فارس أنه سيمتهن مثل هذا العمل قط، وبعد منتصف الليل عاد ومعه القليل من الطعام فقابلته ياسمين بالترحاب، وسبقته إلى الطعام، وأكلا سويًا، وفي اليوم التالي فعل الشيء نفسه، وأخذ فارس يصارع الوقت ويسابقه؛ فهو مجبر على توفير الطعام لعدة أيام بأي ثمن يكلفه من جهده وعرقه كي يرضى حبيبته ياسمين، ومازالت نفسُه تراوده في العودة إلى عمله القديم المريح؛ يعقد الصفقات التجارية التي تحتاج إلى الوقت لتثمر، وسيحاول جعلها أكثر شرعية وأقل احتيالا حتى لا تكشفه ياسمين، وهكذا بدأ يعمل ليل نهار، ويبذل جهده ليجد سبيل الخلاص من ديونه التي بدأت تلاحقه إلى أعتاب بيته.

بلغ فارس من الإرهاق ما لم يعهده من قبل، وكانت ياسمين تترقبه عند عودته مُتعبًا لا يقوى على الحراك، وتلح عليه أن يحدثها عن عمله، وتضحكُ أحيانًا بصوت عالٍ، وبخاصةٍ حينما يحدِّثها فارس بأنه يمارس أعمالاً لا تتناسب مع شخصيته، وهكذا

استمرت ياسمين توقظ فارس في الصباح الباكر كُلَّ يوم، وهو مجبرٌ وليس مخيرًا في الذهاب إلى العمل.

يتنقل من عمل إلى آخر، وبعدما كاد ينجح في عقد صفقة أرهقته في الترتيب لها عدة أيام ضاع أمله بعد فشلها، وكان يتمنى نجاحها حتى تغنيه عن الأعمال الجسدية في المطاعم، وغيرها ذات الأجور اليومية المتدنية.



المكان...وردة وياسمين...

وردة:

- *لقد انتظرتك طويلا! لِمَ تأخرتِ؟*

ياسمين:

- *كنت أبني قصورًا لفارس وأشاركه أحلامه في التمتع بالذهب.*

وردة تضحك:

- *أخشى أنه يخطط لأكبر عملية احتيال في تاريخه، وأمك تتمنى أن يحدث هذا، أنتِ عروس إذا وزنت بالذهب لرجحته.*
- *ليس لنا أن نلومه على ما يدور في عقله، لا يهمني سوى النتيجة التي سيصل إليها، وأنا أسير وفق نصائح الخالة.*
- *أتمنى ألا تخادعين في هذا من أجل الحب يا ياسمين.*
- *لا يمكن أن أخدع نفسي، ساعدته فيما لا طاقة له به، ولكن في أمر الذهب وطمع الدنيا لن أساعده أبدًا. وها أنا أسابق الوقت، وكلُّ ما أخشاه أن ينفجر غضب أمِّنا وتفعل ما لا نتوقعه.*
- *لا تقلقي، أنا أراقبها جيدًا، ربما تستسلم للأمر الواقع إن ظهرت جورجيت كما تنبأت العجوز.*
- *وإن لم تظهر؟*
- *لن ترحمك ولن ترحمني، وستجد سبيلاً لتحقيق حلمها في استمرار اللعنة إلى الأبد.*

نفقاتُ العُرس...

في أحد المطاعم بالجليل حيث يعمل فارس منذ أيام، وفي ساعة متأخرة من الليل، لمح فارس على طاولة في زاوية المطعم امرأة ترتدي العباءة والخمار فخفق قلبه وارتبك أثناء اقترابه منها ليتأكد إن كانت ياسمين أم غيرها.

يقارب الخطو حتى أدرك أنها ياسمين، ومَنْ سواها تجرؤ على ارتداء هذه الملابس، ودخول هذا المكان وحدَها في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل لتدخن وتمسك السيجارة بهذه الطريقة المناقضة لما ترتديه. اقترب من الطاولة وحرص ألا يثير الانتباه فانحنى عليها في أدب، وقال بصوتٍ خافت:

- *ياسمين، هل أصابك الجنون! ما الذي أتى بك إلى هنا؟!*

قالت آمرةً:

- *إذا سمحت، هل لي بكأس من (الويسكي) مع الثلج؟*

فقال لها:

- *اتركي المزاح فليس هنا محله.*
- *أتريد أن أستدعي خادمًا آخر؟*

أصابته في مقتل، ولكنه يعي جنونها جيدًا فآثر تجنب الحرج وانصرف في صمت ليحضر كأس (الويسكي)، ثم عاد ووضع الكأس أمامها ولم ينس الثلج، وقال:

- *لا تخبريني أنك ستشربينه!*

فأمسكت الكأس بيدها وألقتْه في حلقها دفعةً واحدةً وقالت:

- *لستَ أفضل مني في هذا يا حبيبي.*

يكثر فارس من التلفت حوله في خجل، وتعرَّق جبينه بعدما عاين أنَّ كلَّ مَنْ في المطعم ينظر إلى ياسمين، فقال لها:

- *أتدركين نظرات السخرية والاندهاش من حولك.*

فانتفضت عن المقعد واقفةً، وقالت له:

- *إذًا لنترك الحرج بتركنا هذا المكان.*

خرج فارس معها دون أن يستأذن أحدا، وسارا بضع خطوات، ثم قالت:

- *سأقلك في سيارتي الجميلة إلى البيت.*

اندهش فارس مع انتباهه إلى سيارته (المرسيدس) التي باعها قبل مدة بِناء على رغبتها، وانعقد لسانه وصعد إلى جوارها، وبدأت تقود السيارة –كعادتها– في جنون فطلب منها أن تتمهل، فقالت له:

- *(سيارتي وأنا حرة فيها).*

فابتسم فارس قائلاً:

- *أراكِ سعيدةً بها، وكانت نذير شؤم لك منذ مدة.*
- *ليس كذلك، لقد كان وجودها لا يريحني قليلاً، ولكن كيف تكون نذير شؤم لي، وكان فيها لقاؤنا الأول! أنسيت أنك أوصلتني بها إلى كفر كنا؟*
- *لا ينبغي لي نسيان لقائنا الأول، ولكن أخبريني، كيف تمكنتِ من استعادتها؟*
- *لا عجب في هذا، عرفت المعرض الذي بعتَها فيه بثمنٍ بخسٍ وهاتفتُ صاحبه، واشتريتها من جديد.*

فقال مُستاءً:

- *ولِمَ الطريق الملتوية! ألم يكن من الأفضل ألا تجبريني على بيعها، وتحتفظي بها لنفسك!*
- *لم أجبرك على بيعها، لقد بعتها بإرادتك.*
- *ولِمَ تأتيني في ساعة متأخرة من الليل؟*
- *اشتقت إليك، وأردتُ تذكيرك باقتراب عُرسنا ولم تواتني الفرصة، لم يتبق سوى عشرة أيام، وسيكون عقد القران مساء اليوم السابق للزفاف، وأنت تتركني منذ*

الصباح حتى منتصف الليل، وتعود مرهقًا، وقبل حديثي معك تغطُّ في نومِك، فعزمتُ أنْ آتيك مكان عملك لأفرحك، وكنت أعتقد أن الفرحة ستغمرك لرؤيتي، ومفاجأة السيارة، فأين أخطأت!

- *وماذا تريدين مني لأفعله؟*
- *يحق لك أن تسأل، فقد أخذني النسيان ولم أخبرك أننا سنتزوج بعد عشرة أيام، ولابد أن أخطط لك ما ينبغي عليك فعله، ألم تدرك حتي الآن أنك ستصير زوجي، وأن الأمر بيدك أنت إلا إذا أردتَ أن أتمم الزواج على طريقتي. وانا أتيت للاطمئنان على استعدادك لنفقات الزواج؛ العرس، والبدلة، والحفل، أم أنك تركن إلى أمك لتتكفل بنفقات عُرسك؟*

تأوه فارس آهةً مكتومة، وضحك ضحكة مقهور، وهو ينظر إلى ياسمين؛ إنه يدرك أنها لا تتنازل عمَّا تتلفظ به، وإن كانت تنوي حقًا ما نطقتْ به حول الحفل فهذه ستكون نهايته، وقال:

- *حبيبتي، أتفرحين عندما تعبثين بي! أتدركين أنني من البشر ولن أستطيع أن أفعل ما لا طاقة لي به! أمارس أعمالاً لم أُخلق لها، وإن لم أفعل تضربين عن الطعام، أنتِ أكثر الناس علمًا بإفلاسي، وترغبين أن أعمل عشرة أيام لأجني نفقات عُرس! وعن أي حفل تتحدثين، وأنت لا ترغبين أن يرى وجهك أحد! أنيري عقلي بما تخططين له، فأنا أدرك جيدًا أنه لن يحدث إلا ما ترغبين في حدوثه، وأتوسل إليك لا تفكري في الوقوف بالسيارة في منتصف الطريق.*

فقالت ياسمين:

- *أصبت؛ لقد فكرتُ في إيقاف السيارة في منتصف الطريق لأن كلامك أثار غضبي، ولكني لن أفعل من أجلك، فأخبرني فيمَ أخطأتُ في قولي؟ وما اعتقادك عن كيفية زواجك مني؟!*

فقال بهدوء خشية أن يغضبها:

- *يا حبيبتي، كيفما تشائين... سأكون مستعدًا، أتريدين حفلاً؟ سنقيم حفلاً، أترغبين في بدلة عُرس؟ سمعًا وطاعةً، ولكن شرط العجوز بألا يرى وجهك أحد جعلني أعتقد أننا سنكتفي باحتفال صغير في بيتنا.*

فاحتدت ياسمين قائلةً:

- *ماذا تريد يا ابن الدهري؟ أتريد أن تفعل مثلما فعل جدك سالم الدهري وتكتفي بورقة تحل لك زواجي لأني من بنات جورجيت! وإذا رأيت أن الورقة تفوق قدري عندك فاكتف بأن تتخذني جارية لخدمتك!*
- *هذا ليس صحيحًا، أنت في عيني أجمل بنات الدنيا، ويفوقُ قدرُك كلَّ ثمين، ومن حقك أن تطلبي وعليَّ التنفيذ.*
- *أعلم أنني أجمل بنات الدنيا، وأحلم مثلما تحلم أية فتاة في عرسها؛ أحلم بحفل عظيم يضج بالحاضرين، أحلم بأحلى فستان عرس، وكلِّ ما يمكن أن تحلم به عروس يوم عُرسها، والأهم من ذلك يا زوجي المُنتظر أن يكون لدي وثيقتا زواج؛ الأولى يوثقها شيخ، والثانية يوثقها خوري.*

قال:

- *وماذا عن زواج المقبرة؟!*
- *يا حبيبي، اترك المقابر لأهلها، ونحن الآن خارجها، ولابد أن نتزوج حسب ديانتك، وحسب ديانة جدتي جورجيت في الكنيسة.*

شعر فارس أن الأمور تتأزم، ولا يملك خيارا، ويجب أن يسير كل شيء كما خططت له ياسمين، وهي لن تتنازل عن أي تفصيل مهما كان صغيرا، فقال لها:

- *ياسمين، لابد أنك تعرفين كيف يسير كل أمر، فأخبريني عن طريقة أدبر بها كل هذه النفقات في عشرة أيام.*
- *اطلب مساعدتي فأساعدك.*

شعر فارس بانفراج الأزمة، ودبيب الأمل، فقال فرحانًا:

- *ساعديني يا حبيبتي.*
- *استمعْ يا فارس، أعلم أنك لن تستطيع تحمل نفقاتِ نفسك لذا فقد فكرتُ في طريقةٍ تُغطي بها نفقاتِ الزَّواج ألا وهي أن تبيع البيت، وأرى أن ثمنَه سيكونُ غاليًا لاتساعِ مساحتِه، ولا عقبات في ذلك لأن عقده مسجل باسمك، لقد أخبرتني ذات مرة أنك مستعد لبيع الدنيا كلها من أجلي، وأنا لا أرضى أن تبيع الدنيا لأنك لا تمتلكها، بعْ البيت فقط.*

شبك فارس أصابعه وابتسم ابتسامة صفراء، وهزَّ رأسه وأغلق عينيه، وشعر بأنه في سفينة تغرق وكاد يبتلعها الموج، وهو ينظر إليها ولا يستطيع فعل شيء، ولم ينطق بكلمة طوال الطريق.

لم يدرِ كيف وصلت السيارة إلى البيت وكيف استلقى على سريره ونام لتطارده كوابيس مزعجة تلك الليلة.

حفل زفاف ملكي...

استيقظ في الصباح بائسًا يائسًا، يحملُ همومَ الدنيا فوق رأسه، اكتفى بشرب القهوة ولم يتناول إفطاره، قالت له ياسمين:

- *لم يتبق سوى تسعة أيام يا فارس.*

وأعطته مفاتيح السيارة، وقالت:

- *يمكنك استخدام سيارتي اليوم واستغل الوقت جيدا لإتمام التحضير للحفل.*

خرج فارس تائهًا، هائمًا على وجهه يدور في الشوارع، يفكر في أمه وأخيه، كيف سيجرؤ على بيع البيت! وماذا سيحدث لو علم أحد بذلك؟ ثم شردت ظنونه في نيةِ ياسمين؛ لعلها تفكر في تدميري انتقامًا لعائلتها! لعله الثأر القديم الذي يخص عائلة الدهري! لعل لعنة جورجيت لم تنته! ربما أمي على حق!

وأخذ يطوف فارس في أرجاء المدينة حتى أيقن أنه لا يملك قرارًا، وأن التراجع أصبح مستحيلاً؛ فهو يعشقها، ولا يتخيلُ حياته بدونها لحظةً واحدةً.

تذكر أن أحد أقربائه يعمل في تجارة العقارات فأسرع إليه، ولم يكن قريبه هذا ليتردد لحظةً في شراء بيت فارس، فعرض عليه إنهاء البيع في هذا المجلس إذا أراد، فقال فارس:

- *أمهلني حتى أحضر الأوراق اللازمة لإتمام البيع.*

وفي أقل من خمس ساعات قبض فارس الثمن، وعند المساء عاد إلى البيت، وألقى النقود في حِجر ياسمين وقال لها:

- *ليس لدي أغلى منكِ في دنياي.*

فقفزت من الفرح وحضنته، ونام تلك الليلة وهو يشعر بتأنيب الضمير لبيعه مأوى أمه وأخيه، وفي صباح اليوم التالي خرجا بناءً على طلبها للبحث عن مكان لإقامة الحفل يتسع لأكثر من ألف شخص، ولم يكن من السهولة إيجاد مكان فسيح إلا في المناطق

الإسرائيلية البعيدة عن الناصرة، وأمام إصرارها استطاعا الوصول إلى إحدى القاعات الكبيرة، وأصرت ياسمين على دخول القاعة ومعاينتها فأثارت الفضول والتساؤلات حول شخصها ولباسها الغريب، تجولا برفقة مدير القاعة بعدما تأكدا أن القاعة متاحة في موعد عُرسهما، وحدثهما عمَّا يستطيع توفيره ليلة العُرس، وفارس يترجم لياسمين كلَّ كلمة يقولها وهي تهز رأسها.

وبعدما أنهيا جولتهما، توجها إلى المكتب لإنهاء إجراءات الحجز، ودفع عربونًا مبدئيًا لما اتفق عليه واستلم إيصالاً، وياسمين جالسة على المقعد لا تكترث بما يحدث ولم تبد أية معارضة، فنظر إليها مدير القاعة وابتسم، وقال بلهجة عربية ركيكة:

- *(إنشالله مبسوط انتا؟ وإذا بدك شي قول خبيبي).*

اعتدلت ياسمين على المقعد، وضعت ساقا على ساق ونطقت بلسان طلق لغةً عبريةً سليمةً لا خطأ فيها:

- *أريد بضعة أمور صغيرة إن أمكن.*

اندهش الرجل لطلاقة لسانها في نطق العبرية؛ فقد كان يترجم لها عريسها ما يقوله قبل ساعة، وساورته الشكوك حول الشخصية التي يخفيها الخمار، فأكَّد لها أنه سيوفر كل ما تطلبه.

فقالت آمرةً:

- *أولاً، أريد أن تقطع التيار الكهربائي عن مبنى القاعة بأسره وما يحيط به بدءا من موقف السيارات، ومرورًا بالمدخل، وانتهاءً بالمطبخ والحمام، وأن يكون ذلك مع بَدء غروب الشمس حتى نهاية الحفل، وخروج آخر شخص.*
- *ثانيًا، عليك استبدال كل ستائر النوافذ بأخرى قاتمة اللون قادرة على حجب النور عن داخل القاعة، ولو كان ضوء سيارة قادمة من الخارج.*

- *ثالثًا، أريد إشعال الشموع في جميع أنحاء القاعة ومرافقها، بدءًا من مدخل القاعة وانتهاءً بكل زاوية فيها.*
- *رابعًا، أريد تزيين القاعة وجميع مرافقها بالورود مهما تطلب ذلك من كميات.*
- *خامسًا، ألا يتواجد بالقاعة أحد في تلك الليلة، وإذا لزم الأمر لتأمين المكان فليكنْ وقوف أول شخص بعيدًا عن القاعة بما يزيد عن العشرة أمتار، وهذا يعني أن يتم تحضير الطعام والمشروبات والحلوى بكافة الأنواع ليكفي ألف شخص مسبقا.*

استمرَّت ياسمين في عرض ما تريد، وبدا فارس مندهشًا، أمَّا مدير القاعة فلا يصدق ما يتبادر إلى مسامعه، ولم يكن ليراوده شك في أن محدثته تعاني من لوثة عقلية، ولكن ثقتها وجرأتها في عرض ما تريد سلبت جرأته عن مقاطعتها.

أنهت ياسمين كلامها ثم وقفت واقتربت من فارس، وتناولت الحقيبة التي حملها بناء على طلبها، وفتحتها وأخرجت منها سبعين ألف دولار، وضعتهم على الطاولة أمام مدير القاعة. وقالت بالعبرية:

- *أعتقد أن هذا المبلغ يغطي نفقات ما أردت ويزيد، ولكي تحصل على مثله بعد الحفل كن حريصًا على توفير ما طلبته منك بلا أخطاء، فالخطأ الواحد يلغي ما اتفقنا عليه، وتذكر جيدا إن فكر أحدهم في الاقتراب للتلصص، فلن يخسر غيرك، واعلم أنني سأجري اختبارًا لإنارة المصابيح، وإذا أضاء مصباح واحد فلن يخسر غيرك أيضًا، وإن كنت حقا تريد جني المبلغ نفسه بعد الحفل فابدأ من اليوم، ولا داعي لتخبر أحدا بالقصة، لمصلحتك أنت، ولإغماض عيون الضرائب عمَّا تجنيه، وكي لا يكون هناك فضوليين يتسببون في خسارتك سنذهب الآن ولا نحتاج إيصالاً بالمبلغ.*

لم تنتظر ياسمين ردًا وخرجت، وفارس يسير خلفها، ومدير القاعة لم يستطع الوقوف أو التحدث؛ فما حصل أمامه أشبه بقصص الخيال، والمبلغ الكبير الذي قبضه توًا جعله يظن أنه يحلم، أو أن النقود مزيفة.

ظل فارس صامتا حتى استقلا السيارة وقال لياسمين:

- *هل تدركين أنك دفعت ثلث ثمن البيت من أجل القاعة؟!*

قالت ساخرة:

- *ليس كثيرًا، ولولا أنني أضع ظروفك المالية في حسباني لطلبت أن يضيء الشارع بأكمله بالشموع، ولكني أخشى أن أحملك ما لا تطيق، وبعد يجب علينا الذهاب للتفتيش عن أحلى فستان عُرس، ولو لم نوفق في العثور عليه سنضطر إلى تفصيله، وأنت تعلم أننا نسابق الوقت.*
- *فستان فرح أبيض اللون؟!*
- *نعم لابد أن يكون أبيض اللون، أريد الفرح لا الحداد.*

فقال فارس وأخذ يشير بيديه ليعبر عما يريد قوله:

- *أتقصدين فستانًا! ليس عباءة بيضاء وخمارًا أبيض.*

ضحكت ياسمين وقالت:

- *حبيبي، لقد رأيتني مرة أو مرتين منذ فترة، ولكن أيعقل أنك نسيت جمالي، ليس لدي ما أخجل منه فأواريه، أم لك رأي خلاف ذلك؟*
- *لا لا، إنما قصدت شروط العجوز، ومنها ألا يرى وجهك أحد.*
- *لا تشغل عقلك بالتفكير في شروط العجوز، ولكن اهتم بتوفير ما نحتاجه من نفقات.*
- *ولِمَ أفكر أنا! أخبريني إن كان لدي شيء يمكنني بيعه؟*
- *هذه هي المشكلة الحقيقة؛ ليس لديك ما تبيعه إلا إذا كنت تخفي شيئًا عني.*

اليوم المنشود...

وفي اليوم التالي خرجا للبحث عن فستان زفاف، وبعد حيرة ياسمين اشترت عشرة فساتين لتفكر لاحقا في اختيار أحدهم، واستمرت في جولتها لشراء بقية الأغراض، وكلما أخذتها الحيرة تشتري عشرة أنواع من الغرض الواحد لتفكر في الاختيار لاحقًا. ولم تترك شيئا يتعلق بالزفاف إلا واشترت منه عشرة أضعاف حتى اكتمل لديها ما يكفي لزفاف عشرة فتيات جميلات ومدللات، ثم طلبت من فارس أن يعد قائمة بأسماء المدعوين شريطة ألا تقل عن ألف شخص، وأن تدعوهم بنفسها لتتأكد من حضورهم جميعًا.

لم يستوعب فارس دعوة ياسمين ما يزيد عن ألف شخص خلال هذا الوقت القصير، فسألها عن ذلك فأجابته بأن لديها طرقها الخاصة، وأمرته بعدم التدخل تجنبًا لتعقد الأمور، وأن يسرع بإعداد القائمة، وإن عجز عن توفير العدد، فستقوم هي بإنجاز الدعوة برمتها.

بدأ فارس في إعداد قائمة المدعوين، يسجل أسماء من يعرف ومن لا يعرف، ولولا ذلك لاستحال عليه بلوغ نصف العدد.

ولم تكتف ياسمين بذلك بل طلبت منه استئجار سيارات فاخرة تقلُّ المدعوين من بيوتهم حتى لا يتقاعس أحدهم عن الحضور، وأصرت على شراء هدايا لعدد كبير من القريبات بِناءً على عاداتٍ قد اندثرتْ منذ عشرات السنين، ولم يكن أمام فارس إلا تنفيذ أوامرها بدقة حتي أفلس من جديد بعدما أنفق ثمن البيت في ملاحقة طلباتها التي لا نهاية لها.

لم يتبقَ على الزفاف سوى يوم واحد، ولابد أن يُعقد القران مساء اليوم، وقد أحضر فارس المأذون وشاهدين، وبناءً على طلب ياسمين، لم يحضر عقد القران إلا صديق فارس الذي أبَى أن يتركه في المقبرة، ومعه مَنْ كان حضوره ضروريا من أجل الأوراق الرسمية.

وقبل عقد القران بساعة قالت ياسمين لفارس:

- *لا تنس أن تسجل اسمك الحقيقي في وثيقة الزواج؛ اسمك واسم أبيك واسم جدك حتى ينتهي نسبك إلى الدهري، إياك وتسجيل الاسم المزيف المدون في هويتك.*

فقال فارس محاولا أن يثنيها عن هذا القرار الذي سيسبب له الكثير من الإحراج:

- *وكيف لي أن أقص حكايتي الآن أمام الناس! وماذا أقول لأخي الذي تربى معي! أأخبره أني بعت بيتنا، وأنني أخوه لأمه فقط! أتريدين أن أخبرهم أن أصل أبي من الشام، وأنني ابن الدهري، وأن أبي المُتوفَّى ليس أبي الحقيقي، وأنه خدعهم جميعًا ونسب إليهم مَنْ ليس منهم! وماذا أفعل في الهوية! وماذا أقول لأمي التي نست القصة بأسرها! كيف يا ياسمين! وبأي منطق يكون!*

فقالت:

- *بمنطقي أنا، والهوية تستطيع أن تزورها، أقصد تصحح ما بها من تزوير، أمَّا عن أمك سأعيد لها ذاكرتها -إن أردت- حتى لا تتفاجأ أنها كانت زوجة منير الدهري عندما أنجبتك.*

صمت فارس ولم يدرِ ماذا يفعل، وياسمين لم تكتفِ بذلك، وقالت:

- *ولابد أيضًا أن تسجل اسمي في وثيقة الزواج "ياسمين بنة لعنة بنة جورجيت"، ولن يُذكر فيه اسم ذكر.*
- *وعندما يسألك المأذون عن اسم أبيك، فماذا ستقولين له؟*

فردت:

- *سأخبره بأن أبي وجميع أهلي اسمهم جورجيت، أو لا داعي لسؤاله.*

فقال فارس:

- *حبيبتي، قاربنا على أن نكون زوجين، وكاد حلمنا يتحقق، فاتركي هذا الأمر لأجلي أنا، فلن يدخل هذا الحديث عقل أحد.*
- *حبيبي، أستطيع التنازل عن أي شيء سوي هذا الأمر، وثيقة زواجنا، لن يُكتب فيها إلا الحقيقة؛ اسمك "فارس منير سالم الدهري"، واسمي "ياسمين لعنة جورجيت"، أنا لا ألومك على رغبتك في إخفاء نسبك الحقيقي؛ لأنه لا يشرِّف أحدًا، أمَّا أنا فأشْرُف بأهلي ولي كل الفخر في انتسابي إليهم، ووثيقة الزواج لابد أن تكون حقيقية خالية من الزيف، أتريد أن تكتشف بناتنا بعد مرور سنوات أن وثيقة زواجنا كانت مزورة، وأنهن ينتسبن إلى أبوين يحملان اسمين مُستعارين! آن أوان تصحيح مسار هذا الأمر يا فارس، لقد عشنا في الظلام طويلاً، ولا أحب أن يعيش بناتي إلا في النور مهما كان الثمن.*

ضحك فارس ضحكة المغلوب على أمره، ومع حلول المساء حضر المأذون وشرب القهوة، وتعرف بالحضور، وأخرج الأوراق استعدادًا لعقد القران، وبدأ بطلب هويات العروسين ووكيل العريس، وولي العروس والشاهدين، وناوله الشاهدان هويتيهما، وارتبك فارس قليلا، ثم ابتسم وتوجه إلى الغرفة حيث تنتظر ياسمين، وقال لها:

- *أخبريني ماذا أفعل الآن! لقد حضر المأذون ويطلب هويتي وهويتك، وهويات وكيلي ووليك، والشاهدين، ولم يحصل إلا على هويتي الشاهدين حتى الآن.*

فقالت ياسمين:

- *هذه مشكلتك، جِدْ لها حلاً بنفسك.*

عاد فارس وجلس بجوار المأذون وقال له:

- *العروس ليست من هذه البلاد، وقد فقدت هويتها ولا تحمل أية وثيقة.*

فقال له المأذون:

- *لا بأس، مادام هناك مَنْ يعرفها، ولكن لابد من إحضار أية وثيقة حتى يتم تسجيل هذا الزواج في الدوائر الرسمية، والآن قل لي ما اسم العروس؟*

فقال له فارس مرتبكا:

- *اسمها ياسمين لعنة جورجيت.*

فقال له المأذون:

- *أريد اسم الوالد والعائلة.*

فقال فارس:

- *هذا هو اسمها كاملاً، ولا يوجد اسمٌ آخر لأضيفه.*

ابتسم المأذون ابتسامة ساخرة، وهو ينظر في وجوه الحضور لعله يجد مَنْ يعطيه تفسيرا! ولمَّا كان حاله كحال المحيطين به سأل فارس ولم يبد عليه الرضا:

- *وما اسمك أنت؟*

التفتَ فارس إلى أمه وأخيه وبقية الحضور، وصمت قليلا فأعاد المأذون سؤاله مرة أخرى، فقال فارس:

- *سجل في دفترك؛ اسمي فارس منير سالم الدهري.*

ذُهل الحضور مما يقوله فارس، ولم يفهموا لماذا غيَّر فارس اسم عائلته الحقيقية، ومن أين أتى بهذا الاسم! ولاحظ المأذون الذهول والاستغراب والتساؤل الظاهر على جميع الوجوه، وانتابه القلق في أمر هذا العقد، وطلب هوية فارس، فقال له:

- *سأحضرها فيما بعد.*

توقف المأذون عن تدوين بيانات العقد وقال ساخرا:

- *وهل يُوجد عروس! أقصد أين ياسمين لعنة جورجيت؟*

فقال فارس:

- *إنها في الداخل.*

فقال المأذون:

- *وهل من الممكن رؤيتها؟*

فرد فارس بعفوية:

- *من المُحال.*

فرمقه المأذون بنظرة تعجب، ولكن فارس أدرك ما أراده، وأسرع بقول:

- *نعم، ولمَ لا! سأناديها.*

توجَّه فارس إليها وقال:

- *تعقدت الأمور، ويبدو أن المأذون سيرفض عقد القران، والآن تفضلي لأنه يرغب في رؤية العروس، وأحسبه يشك في وجودها.*

فضحكت وقالت ساخرة:

- *لماذا أراك مرتبكًا؟ أقترفتَ جُرمًا؟ هل كذبتَ في شيء؟ ألست تقول الحقيقة؟ أم أن الحقيقة تخيف الناس حتى أصحابها!*
- *أتوسل إليك يا ياسمين ألا تزيدي الأمور تعقيدًا، لن يقتنع المأذون بشيء، ولن يقتنع أحد، لو ترين وجوههم لما كان هذا قولك.*

فقاطعته وقالت:

- *لمْ تخبرهم إلا الصدقَ، ومَنْ يهتم بالناس دومًا سيخسرُ الكثيرَ في حياتِه، وإذا عجزتَ عن تسيير الأمور اطلب مساعدتي لأساعدك.*

فابتسم فارس بمرارة وقال:

- *أطلب المساعدة والعون يا ياسمين.*

فقالت:

- *اذهب إلى صديقك الذي لم يتركك في المقبرة وأخبره أننا اخترناه ليكون وليًا لي في جلسة عقد القران، واختر لك وكيلاً من أعمام أخيك وأخبره أنك آثرته ليحل محل أبيك في يوم فرحتك.*

فعل فارس ما طلبته ياسمين، ولمَّا دخل المأذون الغرفة ارتبك من رؤية ذات الخمار، وزاد ارتباكه عندما حدثته آمرةً تملي عليه ما يفعل بعدما أخبرته باسمي وكيل فارس، ووليِّها في الزواج، ولم تمر دقائق حتى خرج المأذون وهو يبتسم ويقول:

- *زيجةٌ مباركةٌ إن شاء الله.*

ونادى على وكيل العريس، وولي العروس والشاهدين، وأخذ توقيعاتهم على الوثيقة، وطلب من ولي العروس أن يردد ما يقول، ثم جاء دور وكيل فارس وردد ما قاله المأذون، ولم يتلفظ المأذون في عقد القران ولم يدوِّن في وثيقة الزواج –فيما يخص العروسين– سوى ما أرادت ياسمين؛ فارس منير سالم الدهري، وياسمين لعنة جورجيت، وانعقد القران، وتصافح الجميع، ولم يستغرب أحدٌ اسمي العروسين، وانهالت التهاني القلبية على فارس، وخرج المأذون من المنزل وهو يبتسم.

وفي صباح يوم الزفاف لم توقظ ياسمين فارس كعادتها كل يوم حتى استيقظ بنفسه، وجن جنونه لأن الساعة تجاوزت الحادية عشرة ولم توقظه ياسمين وهي تعلم أنه في أمس الحاجة لاستغلال كل دقيقة في هذا اليوم، ترك غرفته فوجد ياسمين وأمه يتبادلان الحديث والمزاح بصحبة إحدى قريباته.

نظر إليهن، وقال بصوت خافت:

- *سبحان الله! كيف صارتْ ياسمين أغلى شيء في حياة أمي! فكلُّ ما تقوله أو تفعله ياسمين لا تراه أمي إلا صوابًا، سبحان مقلِّب القلوب!*

رأته ياسمين واقفا، فاقتربت منه وقالت:

- *لِمَ استيقظت مبكرًا يا حبيبي؟ سأذهب لأعد لك الإفطار.*

توجه إلى الحمام، وهو يتمتم بصوت يكاد يكون مسموعا:

- *لقد عادت إلى إثارة جنوني، هل عرسنا اليوم أم خُيِّل لي! ولماذا لا تهتم! أعدلتْ عن رأيها! أم أعتقد أنني أعيش اليوم، ومازلتُ بالأمس!*

وعاد إليها وقال:

- *أنحن الآن نهارًا أم ليلاً؟*
- *لقد طلع صبح يوم جديد، وأنا أعد إفطارك الآن.*
- *شكرًا لكِ.*

وعاد فارس ليستبدل ملابسه ومازال يحدث نفسه، ثم توجه لتناول الإفطار، ولم يكن لديه رغبة في الطعام، ولكن ياسمين أرادت ذلك، وبعدما انتهت قال لها:

- *أخبريني...هل عُرسنا اليوم، أم أنني فقدت الشعور بالزمن؟*
- *ما هذا الكلام يا فارس! أينسى أحدٌ يوم عرسه! إنه اليوم يا حبيبي.*
- *ولِمَ لا تكترثين؟! ولِمَ لمْ توقظيني مُبكرًا كما تجري العادة كل يوم!*

فقالت بدلال:

- *أيُعقل أن أتسبب في إزعاجك يا حبيبي؟ ومن أجل ماذا! من أجل عُرسنا!*
- *يمر الوقت سريعًا، ولدينا الكثير لفعله.*
- *إذًا هيَّا نذهب.*

فسألها:

- *إلى أين؟*
- *نذهب لنتزوج، أم نسيت يا حبيبي.*
- *ألم يُعقد قرانُنا أمس!*
- *بلى، ولكن كان زواجنا أمس حسب ديانتك، ولابد أن نتزوج اليوم حسب ديانة جدتي، بالأمس كان مأذونًا، واليوم سنذهب إلى الخوري.*

خرجت ياسمين بصحبة فارس وتوجها إلى إحدى الكنائس، ولم يتوقع فارس أن يسير الأمر بهذه البساطة، وهو يعلم أنه غايةً في التعقيد، ولا يخلو من الشكليات، ولكن يبدو أن ياسمين تدبرت أمورها، أو أنها أعدَّتها مُسبقًا بطرقٍ غامضةٍ، وتمَّت مراسمُ الزواج، وخرجَا من الكنيسةِ بعدمَا قاربتْ الساعةُ الرابعةَ عصرًا، واستقلا السيارة وقالت ياسمين:

- *فارس حبيبي أنت عريس اليوم، ولا تزعج نفسك بأي شيء، اذهب إلى صالون الحِلاقة، وملابسُك في صندوق السيارة، وليس هناك داعٍ لأن تعود إلى البيت، وسأتدبر بنفسي ما يخصُّ الحفل؛ المواصلات، وكيفية وصول المدعوين، وحتى أهلك سأتدبر أمرهم، وسأتفقد أمور القاعة وأستقبل الحضور، وحقيقةً لقد رتبتُ كل شيء ولكن عليَّ التأكد مرة أخرى.*

فقال فارس مُحتجًا:

- *لا يجوز! أنتِ العروس، كيف تستقبلين المدعوين! ليس من اللائق أن تعدَّ العروس ترتيباتِ حفلِ عُرسها، واعلمي أنه لم يتبقَ على الحفل إلا ساعات قليلة.*

فأرادت ياسمين أن تحسم الأمر فقالت في حزم:

- *انتهى الجدل، ولا مجال لمحاورة، اذهب واستبدل ملابسك في أي مكان، ولا تفعل شيئًا، ولا تشغل بالك بشيء، وفي تمام التاسعة نلتقي عند الباب الذي اتفقنا على الدخول منه سويا، وتذكر أنه الباب الخلفي للقاعة، واحرص على ألا يراك أحد عند قدومك، سأنتظرك في تمام السابعة، وإياك أن تفكر في الذهاب إلى بيتكم أو مجرد المرور بحارتكم.*

وطلبت منه ياسمين أن يوقف السيارة، وأن يأخذ حقيبة ملابسه التي أعدَّتها بنفسها، ويستقل سيارة أجرة، وقالت له:

- *آسفة حبيبي، لن أتركَ لك السيارةَ لتسعفني في التأكد من أن كافةَ الاستعدادات تسيرُ كما رتبتُ لها.*

غادر فارس السيارة وأخرج حقيبته من الصندوق الخلفي، وهو ينظر إلى انعكاس صورة خمار ياسمين في المرآة، وقد جلست خلف المقود وهي تلوح له بيدها، ثم انطلقت تسابق الريح بعدما زمجرت عجلات السيارة على الطريق عند انطلاقها، وتوجهت مباشرةً إلى القاعة لتجد مديرها في الانتظار، وما إن رآها حتى هرع مبالغًا في استقبالها ومجاملتها، وكان على استعداد لأن يفعل المستحيل لينال رضاها، وبعد جولة تفقدية معها في أنحاء القاعة أبدت بعض الملاحظات الطفيفة، ووعدها بأنه سينفذها توًا، ورافقها حتى باب السيارة، ثم تراجع خمس خطوات إلى الخلف ينتظر ذهابها قبل دخوله...أدارت محرك السيارة ونادت عليه من نافذة السيارة فاقترب منها مهرولا، ونظرت إليه بخمارها الأسود، وقالت له باللغة العبرية:

- *استمع إليّ يا راقي، إذا أردت أن ترى بعينيك هاتين طلوعَ شمسِ الغد فأخرج الفكرة التي في رأسك، ولا تفكر فيما لا يخصك.*

ثم تحركت السيارة في هدوء، وتركت راقي مدير القاعة متجمدًا في مكانه وهو يتمتم:

- *كيف استطاعت أن تعرف ما أفكر فيه!*

اصفَّر وجهه، واعتراه خوف شديد نفذ إلى أعماقه وأخذ يتلو بعض الصلوات بالعبرية، ويدعو الله أن تمر هذه الليلة بخير.



الرواية متوفرة pdf على الانترنت وبالإمكان تحميلها فورا

فرح ودموع...

وبعد ساعات، وفي تمام التاسعة مساءً وصل فارس إلى الباب الخلفي للقاعة، وكان مزينًا لمرور العروسين في طريقهما إلى القاعة.

اقترب فارس من الستارة السوداء التي أُعدَّت لتحجب النور المنبعث من خارج القاعة وأزاحها بيده، ووجد نفسه أمام ستارة سوداء أخرى، وأعاد الأولى مكانها ووقف بين الستارتين لحين حضور ياسمين بِناءً على طلبها، وما هي إلا دقائق حتى سمع صوتها تناديه ليخرج إليها فأزاح الستارة لتتبعث عبر الممر روائح عطور وبخور، ويرى نور الشموع المتراصفة على جانبي المدخل.

وما كادت عينا فارس تتأقلما مع نور الشموع الباهت حتى رأى ياسمين تقف في ثوب ملائكي أبيض وكأنها حورية تنتظر عند بداية المدخل، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة، فوقف فارس مشدوها بما يرى، ولم يعد قادرا على إصدار الأوامر لقدميه لتسيرا نحو ياسمين التي فتحت ذراعيها لاستقباله.

لم يتحرك فارس وتعلق بصره بها، وقلبه العاشق يدق، فأشارت إليه مرات، وهيهات لمتيم غاب في سحرها أن يفيق! اقتربت منه وهزّته قائلة:

- *هل ثملت ؟ أفق يا حبيبي.*

فنظر إليها وقال:

- *ألستُ في حلم يا ياسمين؟*

فقالت:

- *لقد تحقق حلمك يا فارس.*
- *ولكن كيف سندخل ليرى الجميع وجهك وقد حذرتك العجوز ألا يراه أحد حتى تنجبي جميلة مثلك!*
- *لا تفكر في شيء لقد أعددتُ لكل أمر عدته.*

تشبثت ياسمين بذراع فارس ومالت برأسها على أذنه وهمست:

– *كن طبيعيًّا ولا تهتم بوجود أحد، لا ترى سواي.*

همَّ فارس بدخول القاعة، فقالت له:

– *انتظر سندخل بعد دقيقة واحدة.*

دقيقة مرت، ودقت موسيقى تعلن دخولهما وصاحبتها أغنية ذات كلمات جميلة متناسقة تأسر الآذان ولا تكاد تُفهم، وسار فارس بخطوات تحاكي دقات الموسيقى وعروسه تتأبط ذراعه حتى وصلا مكان جلوسهما وسط القاعة الملآنة بآلاف الشموع المضاءة، والورود اليانعة، والأجواء العبقة بأطيب الروائح.

أحس فارس بروعة المكان ولم ير منه شيئًا؛ فسحر عروسه خلب عقله فتعلَّق بصره بها. هدأت الموسيقى داعيةً العروسين لرقصة ناعمة، ووضع فارس يده على خصر ياسمين، وطوَّقها بالأخرى، وذابا يتمايلان في أنغام العشق قبل أنغام الألحان، وهام فارس فيما يظنه خيالاً، تدور به الدنيا كلما دارت ساحرته بين يديه.

وهمست العروس في أذن حبيبها لاحتساء كأسين أُعدا على الطاولة، وناول فارس عروسه كأسًا وأمسك بالثاني وبقي مشدوها مبهورا يراقب شفتيها والكأس الذي كاد يحترق إثر ملامستهما، ترتشف فاتنته وتعلوه بنظرة من عينيها فتحول بصره هاربًا من وطأة عذابهما اللذيذ، وإذا بالموائد مزينة بأضواء الشموع مملوءة بألوان المشروبات والأطعمة والحلويات، وحولها مقاعد خالية لا جلوس عليها، كانت نظرة عابرة ولكنها أخرجته من سكره وهيامه وتبعتها تحديقات والتفاتات تائهة تبحث في القاعة الواسعة الخالية من البشر، ينحني لينظر تحت الموائد لعل عيناه تقع على مدعو واحد فلم يجد أحدًا!

أفاق على ضحكات عروسه تجلجل ويتردد صداها في أنحاء القاعة المغلقة، وأدرك ألا يوجد سواهما، وأن أجهزة موسيقية تعمل آليًا، ووقف فارس ينظر إليها ولا يدري أيضحك معها أم يبكي!

- *ماذا يحدث يا ياسمين؟*
- *ماذا حبيبي ؟*
- *أين الناس، أين المدعوين؟!*

فقاطعته وقالت:

- *ألا تغار حبيبي! أتحب أن يرى وجهي غيرك، أم أردت أن أرتدي خمارًا وعباءةً ليقول الناس "إن عروسه دميمة فأخفاها عن الأنظار".*
- *ألم يكن ما أنفقناه لأجل حفل يحضره ألف مدعو! أكل هذه النفقات ولا نفرح سويًا بين أهلي!*
- *طف بعينيك وانظر جيدًا هل تجد أمي جالسة إلى طاولة؟*

تلفت وكأنه يتوقع رؤية أم ياسمين ثم قال:

- *لا أراها.*
- *هل أختي وردة موجودة؟*

فنظر بسرعة وقال:

- *لا أراها.*
- *وإذا لم تحضر أمي وأختي عُرسي فبمن أهتم بعدهما! الجميع لا يساوي لدي بسمة فرح من أمي، ولكنها لن تستطيع الابتسام في هذا اليوم.*
- *ولِمَ كل هذه الضجة؛ النفقات والقاعة والدعوات!*
- *لم أدع أحدًا، أتعتقد أن لدي وقت لأنشغل بهذا، لا يعرف أحد عن حفلنا مادمتَ لم تخبر أحدًا، أمَّا عن النفقات والقاعة فمن أجل فرحتي يوم عرسي،*

ألا أستحق أن أفرح!! انظر حولك أكنت تحلم بهذا؟ لن تنسى هذا اليوم أبدًا إلا إذا حزن قلبك على ما أنفقت.

نظر إليها وابتسم قائلاً:

- *مجنونةٌ أنت، ولكني أعشق هذا الجنون.*

اقتربت ياسمين وحضنت فارس وقبلته وهي تضحك سعيدة، واستمر عناقهما دقائق، وفجأة فرتْ عدة دمعات من عينيها، وسارت عدة خطوات، وحملت إحدى الشموع بكلتا يديها، ووضعتها وسط القاعة، وجثت على ركبتيها أمام الشمعة، وأخرجت وثيقة الزواج ووضعتها بجانب الشمعة، وبدا الحزن على وجهها، وانهمرتْ دموعها، ولامس شعرها الطويل الأرض، كانت تمسح بكفيها الدموع، وهي تنظر إلى آلاف الشموع المضاءة في أرجاء القاعة وقد انطفأ بعضها.

فقالت بصوت عالٍ تخاطب الشموع، والدموع تنهمر من عينيها:

نورنا... وعهدنا...

طريقنا أنت يا جورجيت...

أضأتُ الشموع من أجلك وليس من أجلي...

كل شمعة تذكرنا بدمعتك...

وجهك ما رأيناه... ألمك عايشناه...

أنا حفيدتك وهذا حفيد عدوك...

وعاد الزمن وضمَّتْ الوثيقة اسمك واسم عدوك...

والتاريخُ نفسه يشهد...

اسمك فخرنا واسم عدوك ما عاد يذكره أحد...

أوفينا بقسمك... أذقناهم مرارة دموعك وحسرتك...

ستحفظ ابنتي عهدك وتحمل اسمك...

وأثناء حديث ياسمين بدأت الشموع تتطفئ الواحدة تلو الأخرى بغرابة حتى انطفأ نصفها، وحل نصف الظلام، فاختلط بكاء ياسمين بقولها:

- *أنا منك يا جورجيت، وابن الدهري أحبني ولم ير وجهي، واكتمل النذر، وصان الجميع العهد.*
- *أشعر بوجودك وأعجز عن رؤياك، وأتمنى رؤية وجهك ولو لن أرى بعده النور أبدًا.*

الشموع مازالت تنطفيء، وامتقع لون ياسمين وألقت وجهها في كفيها، وأجهشت بالبكاء، وبحسرة مقهورة وضعت رأسها على الأرض ولم يظهر منها إلا ثوب عرسها الأبيض، وسكتت ولم تعد تنطق بكلمة.

لم يحتمل فارس حرقة بكاء ياسمين، ولم يتمالك نفسه، فبكي معها حتى علا نحيبه، واقترب منها محاولاً رفع رأسها إلا أنها بقيت ملتصقة بالأرض مجهشة بالبكاء.

وشعر أن ما يحدث لياسمين بسبب انطفاء الشموع، وفيه إشارة إلى عدم رضا جورجيت، وقف والدموع في عينيه متأثرا بشدة ما ألمَّ بياسمين، وبدأ يدور وسط القاعة مناديًا ما تبقى مشتعلا من الشموع:

- *يا جورجيت ما عرفتك صغيرا ولا كبيرا... وما عرفت أنني سأحمل ذنب أب وجد وقريب... كرهتُ جذوري وأحببت حفيدتك وأحببتك... الدنيا كلها ظلمة إن لم تكن فيها... وإن أردتِ أعيش معها في عتمة القبور... ولا أرى دموعها في النور... يا جورجيت، إن كُتب عليّ أن أحمل ذنب غيري سأحمله؛ سأدفع ثمن جُرم ما عرفت صاحبه، سأحتمل أي شيء ولكني لا أحتمل رؤية الدموع في عينيها...!*

وتعب فارس من مخاطبة الشموع، وألقى جسده بجانب ياسمين، واستطاع أن يرفع رأسها عن الأرض، ويضمها إلى صدره بقوة، لتمتزج دموعهما، وعيونهما ناظرة إلى

الشموع... وبسرعة برق خاطف عادت الشموع تشتعل الواحدة تلو الأخرى وانكشف جمال القاعة من جديد بعدما خبأه نصف الظلام...

ووقفت ياسمين تحدق إلى الشموع، ومازالت آثار دموعها في عينيها، ووقف فارس إلى جوارها، وطلبت منه أن يغمض عينيه وألا يلتفت خلفه، ومن خلف الشموع البعيدة أطلت فتاة في ثياب أبيض، ويشع النور من وجهها، واسترسل شعرها فوق كتفيها...

الفرحة الممزوجة بالخوف بدت على وجه ياسمين، ولم تبرح مكانها إلا عندما ارتسمت على شفتي الفتاة ابتسامة، وكأنها دعوة ياسمين إلى الاقتراب منها، وانطلقت ياسمين نحوها، وانحنت ولمست قدمها بيدها، وهمت أن تحضنها إلا أنها أحجمتْ وعادت إلى الخلف، وكأن أحدا طلب منها ذلك، أو أنها أدركتْ ألا يمكنها ذلك، وشبكت أصابع يديها، وضمتهم إلى صدرها بقوة، وعادت ووقفت بجوار فارس، ولم تزح نظرها عنها لحظة، ثم نطقت والدموع تترقرق في عينيها:

- *جدتي جورجيت أنا...*

لم تكمل كلمتها، فقد ابتسمت جورجيت وأشارت إليها أن تصمت ففعلت... خيم الهدوء دقائق، لم يتكلم أحد، ولكن الابتسامة الممزوجة بدموع ياسمين، والابتسامة الممزوجة بنور وجه جورجيت؛ كلُّ هذا الجمال الصامت أفعم المكان بنوع من الدفء، وأرسلت إليها جورجيت نظرة حب أخيرة مصحوبة بابتسامة حانية، واستدارت وسارت بخطى واثقة مبتعدة إلى حيث أتت، وبقيت عيون ياسمين تتبعها حتى توارت عن الأنظار.

وقفزت ياسمين وتعلقت بفارس، وهي تضحك وتبكي في آن واحد، ومدت يدها إلى وثيقة الزواج وضمتها إلى صدرها، ثم أمسكت بيد فارس كطفلة صغيرة، وركضت نحو مدخل القاعة الأمامي، ثم توقفت لحظة وكأنها تتذكر شيئا، ثم ركضت إلى المدخل الخلفي، وعادت تركض إلى فارس حاملةً حقيبة صغيرة، وأمسكت بيده وركضت مسرعةً إلى المدخل الأمامي.

تركت المدخل بخطوات ونظرت إلى الخارج فانهمرت الدموع من عينيها، وعانقت فارس بقوة وسحبته إلى السيارة في سرور، ولمحت مدير القاعة رافي، يقف بعد أكثر من ثلاثين مترا يحدق هو ومَن حوله مِن عاملي القاعة، وكأنهم يرون ملاكا في ثوبٍ أبيض هبط من السماء.

ضحكتْ وتركتْ يد فارس وأخرجت من الحقيبة مغلفًا، وركضت نحو مدير القاعة وناولته إياه، وابتسمت له في خجل عندما شعرت أنه يتساءل:

- *أليست هي؟!*

وركضت عائدةً ، وصعدا السيارة، وأوقعت المفاتيح على الأرض أكثر من مرة من شدة ارتباكها، وأسرعت بالسيارة، تنظر إلى فارس، وهي تبكي، وتمسح دموعها فتضحك، وتعود الدموع لتنهمر من جديد.

ساعة من الارتباك والصمت حتى أوقفت ياسمين السيارة بجوار هضبة، وأمسكت بيد فارس وأسرعت بتسلقها وهي تجرُّه خلفها.

وقفت تنادي بأعلى صوتها:

- *وردة...وردة... وردة...*

يتردد صدى صوتها وهي تنظر في كل ناحية، وبعد عشر دقائق عادت وصعدت إلى السيارة، وقادتها مئات الأمتار وأوقفتها، وخرجت منها ووقفت بجوارها تنتظر، وبعد مرور وقت ظهرت امرأة مقنعة بالخمار والعباءة واقتربت منهما وهي تنادي:

- *ياسمين!*

فركضت نحوها وهي تنادي:

- *وردة!*

وكان لقاء الأختين مفعمًا بمشاعر حارة، فقالت ياسمين لأختها:

- *لقد رأيت جدتي جورجيت يا وردة، رأيتها.*

- *لقد عرفت.*

وقالت ياسمين وكأنها تود أن تحكي لوردة كل شيء بكلمة واحدة:

- *لمَّا رأيتها اعتقدتها أنت، وعندما اقتربت علمت أنها جدتي جورجيت، وهي كما وصفت أمي؛ عند رؤيتك لها يأسر جمالُها عينيك، وفي النهاية لن تصدقي ما ترين، كنت أفصح عمَّا في قلبي لأن اليوم ذكراها، وما توقعت أن تأتي لأراها، اعتقدتها غاضبة مني في البداية، ولعها كانت غاضبة ثم ذهب غضبها، لا ...لا، لم تكن غاضبة، أتعرفين لماذا يا وردة؟*

فقالت وردة مسرعةً حتى تتوقف ياسمين عن الحديث:

- *أعرف، أعرف.*

فقالت باستغراب:

- *كيف عرفتي يا وردة؟*
- *وكيف لي الحديث، ولم تتوقفي عنه مذ رأيتك!*

ضحكت ياسمين وحضنت وردة بقوة وقالت:

- *أخبريني بسرعة.*

فقالت وردة:

- *لقد رأيتها اليوم أيضًا للمرة الأولى.*

فقاطعتها ياسمين مسرعة:

- *ألم تكن كما أخبرتك تمامًا؟ هل تخيلتي جمالها يا وردة؟*

ضحكت وردة بصوت عالٍ، فضكحت ياسمين وقالت:

- *تحدثي ولن أتفوه بكلمة سألتزم الصمت، هيَّا.*

فقالت وردة:

- *أضأت الشموع اليوم إحياءً لذكراها، وتحدثتُ إليها وأنا على يقين بأن حديثي سيصلها، وتوسلت إليها أن تساعدك، وبكيت كثيرًا، وخالجني شعور بأنك حزينة، وأردت الخروج للبحث عنك، وكاد يصيبني الجنون خشية أن يصيبك مكروه، ونذرت ألا أخرج طوال عمري إذا علمت أنك بخير، ولمَّا تراءتْ لي من بعيد دلني قلبي سريعًا وعلمتُ أنها جدتي جورجيت، وأسرعتُ بقولي "يا جدتي جورجيت..."، وقبل أن أتم كلامي ضحكتْ وشعرتُ أنها راضيةً عنك.*

حضنت ياسمين وردة بقوة، وانتابتهما نوبة بكاء شديدة، وفارس يراقب ما يحدث، وبين الفينة والأخرى تسقط من عينيه دمعة رُغمًا عنه تأثرا بما يرى.

ومن بين الظلام ظهرت مقنعة أخرى تسير بخطى مترددة نحوهم، وما كادت تقترب حتى أجهشت ياسمين بالبكاء، واقتربت الأم لعنة، وحضنت ابنتيها؛ وردة بملابسها السوداء، وياسمين بثوب زفافها الأبيض.

وبعد دقائق من الدموع والضحك، قالت ياسمين لأمها:

- *جدتي جورجيت راضية، فهل أنت راضية عني يا أمي؟*

ابتسمت لعنة وقالت:

- *سنرحل إلى الشام لزيارة قبر جدتك جورجيت، وسنتحدث كثيرًا بعد عودتنا، انتبهي لعيون البشر وشرورهم، كان الخمار نذرًا بل كان خير حافظ لكِ من عيونهم، لا تنسي أن جمال جورجيت كان سر شقائها.*

والتفتت لعنة إلى فارس واقتربت منه وقالت له:

- *أنا لا أكرهك، ولن يكون سهلا عليّ أن أتقبل حفيد سالم الدهري زوجا لابنتي، ربما أنا في حاجة لبعض الوقت لأتقبل هذه الحقيقة، ياسمين وأختها لم يعرفا جورجيت، ولم يرياها إلا اليوم، أما أنا فقد عشت معها وتجرعت آلامها، وأنا الوحيدة التي لا تعرف لها أبًا، وربما جدك سالم هو أبي! وربما*

تكون أنت ابن أخي! كل ما عرفته يا فارس عن جرائم عائلتك هو القليل الذي تعرفه ياسمين، ولكن هناك جرائم كثيرة ارتكبت في حقنا، حتى ياسمين وأختها لا يعلمان عنها شيئًا.

- *لا أعرف إن كانت جورجيت قد سامحت أم لا، وإن سامحت، فأنا لن أسامح يوما، سننتظر ميلاد جورجيت الصغيرة لنعرف. وربما دموع ياسمين ووردة تطفئ النار المشتعلة، وربما أسامح من أجلهما، وربما لأنك أحببت ياسمين حقًا سأحتاج إلى الوقت لأنسى، وسيكون الزمن كفيلاً بإزالة ما في قلبي.*
- *اليوم أنت زوج ابنتي، وأتمنى من كل قلبي لها السعادة، احرص على ياسمين ولا تنسَ أنك زوجها، وأنه يتوجب عليك حمايتها من كل شيء حتى من نفسها، هي مازالت في حاجة إلى من يحبها ويعتني بها ويحميها، واحذر من نار الغضب المدفونة في أعماقها منذ أعوام مضت كي لا تثور من مرقدها ويستحيل عليك إطفاؤها، تعلم كيف تروض عنادها؛ فعنادها جنون، إن عارضته ثار، وإن تجاهلته انقلب إلى إعصار، وأكثر ما أوصيك به أن تحرص عليها ممنْ حولها، وعلى مَنْ حولها منها، فهي قادرة على حب الناس بجنون، ولا تحب أن تبدأ بأذى، ولو آذاها أحد فلن ترتاح حتى ترده إليه، وأذى ياسمين ربما لا يكون بعده أذى.*

ثم التفتت الأم إلى ياسمين وودعتها، وكذلك فعلت وردة.

المكان...حق الاختيار...

عادت لعنة بصحبة ابنتها وردة من حيث أتت، وحينما وصلا جلسا بجانب العجوز البيضاء، وأخذت العجوز تداعب بأصابعها شعر وردة، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ناعمة، وقالت لوردة مازحة:

– *تُرى أية أصابع ستداعب هذا الشَّعر في الغد القريب؟*

فقالت وردة:

– *ألا تعلمين مَنْ سيكون يا خالة؟*

فردت العجوز:

– *كلا يا ابنتي لا أعلم الآن، ولكن ربما علمت في المستقبل بعد أن تقضي مدة في النور، من سيكون زوجا لك.*

فقالت وردة والدموع تترقرق في عينيها:

– *يا خالة، لقد قالت أمي، إذا اخترت العيش في النور فلن أستطيع الحضور إلى هنا من جديد، فكيف سأراكما يا خالة؟ أنا محتارة؛ لا أريد أن أترك أختي وحدها، ولا أريد أن أفقدكما؛ فأنتما كل شيء لنا.*

فقالت بعدما ضمت وردة إليها:

- *نعم يا ابنتي، هذا خيارك، ظهور جورجيت أعاد لكما حرية الاختيار التي حرمتكما منها أمك، وهذا حق لها وما كنت لأنازعها فيه، ويجب أن تكوني سعيدة، وفي الغد ستكتشفين يا وردة بأنك لست في حاجة إلى هذا المكان، وأمكما لن تتركما، وستحضر لزيارتكما بين الحين والآخر، أما أنا فسأكون لكما ذكرى ليس أكثر، يؤلمني فراقكما، ولكن هذه هي الحياة؛ لقاء ووداع، ويجب أن تستمر.*

فقالت لعنة بعدما مسحت دمعات سقطت على وجنتيها وهي تستمع لحديثهما:

- *متى سنذهب لزيارة قبر جورجيت يا خالة؟*

ردت العجوز:

- *في الغد يا ابنتي سأصحبكما إلى هناك، والآن اذهبا للراحة، فغدًا أمامكما رحلة طويلة وشاقة.*



قبر جورجيت...

في صباح اليوم التالي انطلقت لعنة وابنتها وردة بصحبة العجوز نحو الشام، ومرت ساعات طويلة وهن يسرن عبر طرق مشقوقة في جوف الأرض لا يرتادها بشر حتى وصلن قبيل فجر اليوم التالي إلى بقعة جرداء تحتضن المغارة التي دفنت فيها ربيحة أهل جورجيت، ومن وحولها انتشرت مجموعة من القبور القديمة مبعثرة بلا ترتيب، ومن بعيد شاهدن على مدخل المغارة قبرًا أمامه شمعة مضاءة، وبجانبها تجلس امرأة باكية.

- *أليس هذا قبر جدتي يا خالة؟*
- *نعم هو قبر جورجيت، لقد طلبت أن يُسمى هذا القبر باسمها، فهنا دفنتْ ربيحة والديها.*
- *لا أفهم قصدك يا خالة، ألم تُدفن جدتي في هذا القبر!*

قاطعتها أمها وقالت:

- *لا تسألي.*

فقالت العجوز بعدما أمسكت بيد وردة:

- *نعم يا ابنتي من الأفضل ألا تسألي، فهناك أمور كثيرة لن تفهمينها.*

وقالت لعنة:

- *ومن هذه المرأة الجالسة بجانب القبر يا خالة؟*

العجوز:

- *لا أعلم يا ابنتي، فربما هي إحدى زائرات القبر.*

مرت ساعة وهن ينتظرن ذهاب المرأة، ولكنها لم تغادره، فتقدمت وردة ولعنة نحوها، وسألت لعنة تلك المرأة بهدوء:

- *ماذا تفعلين في هذه الساعة المتأخرة من الليل بجانب هذا القبر؟ ولماذا تبكين؟*

رفعت المرأة رأسها ونظرت بعينيها الباكيتين، وبعدما تفحصت لعنة ووردة قالت:

- *جئت أرجو صاحب هذا القبر أن يساعدني في شفاء ابنتي الوحيدة، وأنتما ماذا تفعلان؟ هل جئتما تسألا صاحب القبر شيئًا؟*

فقالت لعنة للمرأة بفضول:

- *وهل تعلمين مَنْ يكون صاحب هذا القبر؟*

فقالت المرأة:

- *نعم، إنه أحد الرجال الصالحين، دُفن هنا منذ فترة طويلة، وكل من عبر الطريق يرى الشموع مضاءة على قبره.*

وردة غاضبة:

- *ومَنْ قال لك هذه الأكاذيب؟!*

المرأة أشد غضبًا:

- *استغفري الله يا ابنتي، ولا تقولي أكاذيب، فهذا القبر قد ساعد الكثيرين.*

فقالت وردة:

- *صدقتِ فيما تقولين، ولكن هلا ترحلين وتتركينا بجانب هذا القبر قليلًا؟*

فقالت المرأة:

- *لن أذهب قبل أن يتحقق طلبي.*

تأففت وردة، وقبل أن تنطق بكلمة سحبتها أمها وعادت بها حيث تجلس العجوز، وقالت الأم للعجوز:

- *إن المرأة ترفض الرحيل عن القبر.*

وردة:

- *وتقول هذه المجنونة إنه قبر رجل!*

نهرتها العجوز وقالت:

- *لا تصفيها بالجنون يا وردة، فقد جاءت تضيء الشموع على قبر جورجيت، وتسأل شيئا، ولا يهم ما تعتقده عن صاحب القبر، وأناس كثيرون يزورون هذا القبر، ولا يعلمون عنه شيئًا، ويتداولون القصص حول صاحبه.*
- *والآن يا خالة إلى متى سنبقى؟ ستشرق الشمس قريبًا ولا يبدو أن المرأة تنتوي الرحيل.*
- *حتى تذهب برغبتها فلا يجوز طرد زائر القبر.*

مرت دقائق وكأنها ساعات، وهن ينتظرن ذهاب المرأة.

وبدأت المرأة تلملم أغراضها، وذهبت بعيدا عن القبر حتى توارت عن الأنظار، وتوجهت وردة وأمها نحو القبر وبقيت العجوز مكانها تنتظر، وحينما وصلا إلى القبر أُضيئت الشموع فبكيا سويًا.

تخاطب لعنة القبر بكلمات مازجتها الدموع:

- *صنتُ أنا وبناتي عهدك يا جورجيت.*

واستمرت لعنة تخاطب القبر والدموع لم تفارق عينيها حتى اقتربت العجوز ووضعت يدها على كتف لعنة وقالت:

- *هيا يا ابنتي يجب أن نعود.*

فقالت وردة للعجوز:

- *ولكن جدتي جورجيت لم تظهر يا خالة.*

فقالت العجوز:

- *لم نأت لرؤية جورجيت، ولكن لزيارة القبر وإضاءة الشموع وفاءً بالنذر.*

تحثهما العجوز على الإسراع:

- *هيا يا بنات يجب أن نعود قبل شروق الشمس.*

فقالت وردة للعجوز:

- *لماذا لم تأت يا خالة؟ أتلهف لرؤيتها.*

فقالت العجوز:

- *سترينها يا وردة، والآن هيا بنا.*

وعادت العجوز بصحبة وردة ولعنة من الطريق نفسها حتى عدن، وبعدما ارتحن قليلا ذهبت العجوز وعادت تحمل صندوقا ووضعته أمام الأم وقالت لها:

- *افتحي الصندوق.*

ففتحته ولمعتْ قلادةٌ صُنعت من الذهب والفضة، ومعادن أخرى مختلفة، لا ينقصها شيء من الدقة والاتقان، وقالت العجوز:

- *هذه القلادة فيها سر العهد وقوته، تردُّ عن حاملها الشرور، لا ينبغي أن يمتلكها اثنان، يرثها مَنْ استحقها وحافظ على عهدها، وُجدت مع أهل هذا المكان منذ مئات السنين، تناقلوها وغادرتْ المكان ثم عادت إليه، وحينما جاءتنا جورجيت قبل عشرات السنين تفاجأنا جميعا من نورها، ولم يشكّ أحد في أنها ستكون مالكة هذه القلادة، استحققتها وأقسمت أمام صاحبتها أن تصونها وتحافظ عليها. وهي الوحيدة صاحبة الحق في التصرف فيها، ولمن تورثها في أي وقت تشاء وقد تركتها لك.*

مدت لعنة يدها لتمسك القلادة، ولكن يد ابنتها وردة سبقتها، وأمسكت بها وأخذت تتفحصها مبهورة بجمالها، رمقتها لعنة بنظرات عدم الرضى واستاءت مما فعلت، والتقطت القلادة من يدها، وأعادتها إلى الصندوق وأغلقته، ثم قالت للعجوز:

- *لقد حلمت بهذه القلادة منذ صغري، حينما كنت أراها معلَّقة في عنق أمي جورجيت، وفي إحدى المرات أبهرتني مثلما أبهرت ابنتي، وطلبتُ من أمي جورجيت أن أرتديها، فقالت لي:*
- *أخشى يا ابنتي أن تخسري إحدى عينيك حينما ترتدينها!*
- *فقلت لها:*
- *لا شيء في حياتي لأخسره.*
- *إذا لم يكن لي شأنٌ في حياتك، ربما سيكون هناك ما تخافين من خسارته يوما ما. خجلت من نفسي واعتذرت، وأقسمت لها أني لا أريد هذه القلادة، ولن أرتديها ما حييت.*
- *والآن يا خالة، لقد مرت السنوات، والعنق الذي كان يزين هذه القلادة لم يعد موجودًا، وياسمين تركتني ووردة ستلحق بها، ومع هذه القلادة يعتريني شعور بالخوف بأن أفقد شيء آخر في حياتي، فأرجوكِ يا خالة لا تفتحي هذا الصندوق مجددا...!*

ابتسمت العجوز وقالت:

- *الصندوق وما فيه لكِ يا لعنة، هو ميراثك عن أمك جورجيت، وواجبي أن أسلمه لكِ، فإن أردتِ تركه مغلقا على القلادة، فلن يمنعك أحد، وإن أردت ارتداءها أو إعطاءها إحدى بناتك فالخيار خيارك.*

فقالت لعنة:

- *خياري أن تبقى القلادة في الصندوق ولا تخرج منه، ولا خيار آخر لدي، وأنتِ يا خالة لطالما كنتِ وصية علينا وعلى أمي جورجيت من قبلنا، اتركي الصندوق كما هو، وإن رحلت عن هذا العالم قبل اختياري صاحب القلادة،*

اختاري أنتِ مَنْ يستحقها وامنحيها له، أنا وبناتي يكفينا شرف العهد، وما مُنحنا من حماية وقوة، لا حاجة لنا في هذه القلادة.

- *يا ابنتي تعرفين جيدا أن ياسمين ووردة ستنقطع علاقتهما بهذا المكان في المستقبل القريب، والقوة التي امتلكاها ستتلاشى كلما اندمجا في حياتهما الجديدة.*
- *ولكن إن منحتي القلادة لإحداهن فستبقى معهما إلى الأبد لتنتقل من صاحبتها إلى وريثتها ولهذا السبب أطلب منك التأني في اتخاذ القرار.*

فقالت وردة تأييدا لكلام العجوز:

- *نعم يا أمي تأني ولا تتسرعي.*

فأجابتها:

- *أفكر! وفيم أفكر يا وردة! وأي قرار يجب أن أتخذ! أأمنحك القلادة أم أمنحها لأختك ياسمين؟*
- *لا فرق بيني وبين ياسمين يا أمي.*
- *لقد اتخذت قراري، لن تخرج هذه القلادة من الصندوق مادمت حية، والآن يا وردة، أمامك قرار يجب أن تتخذيه قريبا سيحزنني فراقك أيضًا، ولكني لن أعارض رغبة جدتك بالرغم من ألمي.*

العجوز:

- *نعم يا وردة لقد حان الوقت لتستعدي لاتخاذ القرار والبدء في حياة جديدة.*

قالت وردة:

- *لست على عجلة من أمري يا خالة، وأحتاج إلى التفكير طويلاً قبل خروجي وحرماني من العودة، فلستُ أدري هل سأرى أمي بعدها أم لن أراها؟*

الزواج...عهد جديد...

في الطريق إلى بيت فارس تضحك ياسمين تارة وتبكي تارة أخرى في ثوب زفافها الأبيض، وفارس مازال مذهولا لا يصدق أن زمن الخمار الأسود قد ولىّ، وأن ياسمين الآن زوجته بلا قيود.

توقفت السيارة بجانب البيت في ساعة متأخرة من الليل، ودخل فارس وزوجته البيت، وكانت أم فارس وأخوه نائمين فتعمد فارس أن يحدث ضجيجا.

فقالت ياسمين:

- *دعها نائمة فستراني في الصباح.*

ولكن فارس أصر على إيقاظ أمه، ولمَّا أفاقت وخرجت من غرفتها لتكشف سر هذا الضجيج في بيتها فوجئت بفارس يقف مبتسما وياسمين إلى جانبه في ثوبها الأبيض. وقفت أم فارس مشدوهة لا تتكلم، وعيناها متسمرة نحو ياسمين، فاقترب منها فارس وهزَّها برفق، فنظرت إليه وقالت:

- *أنا...أنا أحلم...أليس كذلك؟*
- *لا يا أمي، ما ترينه حقيقة.*

ضحكت أم فارس ولم تنطق بكلمة، وعادت إلى غرفتها، وضحك فارس وقال لياسمين مازحا:

- *لقد جُنَّت أمي.*

دخل العروسين غرفتهما، ودقائق مرت وفارس مرتبك يخاف الاقتراب من ياسمين، ولكن نظرة واحدة خبيثة منها أنسته كل شيء سواها...

لم يكن ذلك الصبح كأي صبح، أضاء بيت فارس والمنطقة بأسرها؛ صحت أم فارس فَرِحة ولم يبرحِ مخيلتها ذلك الحلم الجميل، وقد علمت بعودة ابنها لرؤيتها سيارته مركونة بجوار البيت... تعد الإفطار وتنتظر في شوق أن يستيقظ لتروي له حلمها... مازالت منشغلة بإعداد الإفطار ودخل ابنها علاء وجلس إلى الطاولة ليستمع إلى روايتها عن حلم زواج فارس وإذا بياسمين ترتدي ثوبا زهريا، وتقترب منهما وعيونهما تتساءل من هذه؟! ومن أين أتت؟!

تبتسم ياسمين وتقول:

- *صباح الخير، لماذا الاندهاش؟*

ومن صوتها أدركا أن ياسمين هي هذا الملاك الذي ظهر فجأة.

أم فارس تدق بيدها على الطاولة، وتقول:

- *بسم الله ما شاء الله... بسم الله ما شاء الله!*

علاء يفيق من ذهوله ويمازحها قائلا:

- *هل تعلمين أنك أكثر بهاءً في ردائك الأسود!*

تقترب منه ياسمين وتمسك بأذنه وتشدها، ويصرخ علاء وهو يضحك، ويقول:

- *عندما رأيتك أول مرة مختفية خلف القناع الأسود لم أشغل بالي بسؤالك عن السبب لأني أيقنت أنك إحدى القردة، ولكن بصوت جميل، أمَّا الآن فلن أتنازل عن معرفة السبب.*

فقالت ياسمين:

- *رزقك الله بقردة جميلة تعادل ذوقك الجميل ونيتك النقية.*

واستيقظ فارس من نومه سعيدا، وكأنه لم ير شروق الشمس إلا اليوم، وخرج إليهم طلق الوجه وجلس يستمع لما يدور من حديث بين أمه وزوجته...

- *تعلمين أننا نذرنا ألا يرى وجهي ووجه أختي أحد حتى زواجنا، وبقدر ما قسا علينا البشر بعد موت أبي كانت قسوة النذر الذى شمل ألا يرانا أحد ليلة زواجنا أيضًا، ثم يكون في صباح اليوم التالي عهد جديد برداء جديد.*

وأطرقت ياسمين ثم أكملت:

- *تزوجت سرًا وفاء بالنذر وتحررت من الرداء الأسود، وها أنت ترين زوجة ابنك بردائها الجديد.*

أطرقت الأم قليلاً، وأشفقت على زوجة ابنها من هذا النذر القاس، ثم تأملت جمالها الفتان، وتطرقت إلى عيني فارس فطالعتْ رجاء وسعادة بالغة لم تعهدها في عينيه من قبل فابتسمت واحتضنت العروسين، أمَّا علاء فقد علا ضحكه وتصفيقه، وقال:

- *رائع، رائع، أنا لا أفهم شيئًا، ولن أتزوج بهذه الطريقة.*

وكما تداولت الألسنة حكاية المقنعة السوداء تداولت حكاية ياسمين جميلة الجميلات، وأصبحت حديث كل محدث في المنطقة بأسرها. ومرت الأيام وطلبت ياسمين من فارس أن يبحث عن بيت كي تستقل حياتهما وتنزوي بعيدًا عن الماضي.

فقال فارس ليذكرها ببيعه البيت من أجل نفقات الزفاف:

- *لم يعد هناك بيت قديم ليكون هناك جديد.*

- *لا تخف، لقد استرجعت البيت، ومازلتَ مالكه، ولا داعي لأن تربط كل شيء في حياتنا بالماضي.*
- *إذًا سأبدأ البحث عن بيت من اليوم.*
- *ولكنك لم تسألني في أي المناطق أريد بيتي.*
- *أين تريدينه يا حبيبتي؟*
- *في بيت المقدس.*

استاء فارس لأنه لا يود ترك الناصرة، وقال بحزن:

- *هل أنا مجبر على القبول؟*
- *لستَ مجبرًا، ولكن سأكون سعيدة، ولي أسبابي الخاصة، واعلم أن هذا جزء من عهد قطعته للعجوز، وبه خلعت الخمار قبل ميلاد ابنتنا.*

لم يكن أمامه إلا أن يصطحب ياسمين ويبدأ البحث عن بيت بمواصفات خاصة طلبتها. كانت ياسمين –كعادتها– تعلم ما تريد، وبلا عناء اشتريا بيتًا في أحد الأحياء الهادئة في بيت المقدس، ولم يكن كبيرًا ولا جميلاً، ولكنه كان ذا طابع قديم فاحتاج إلى بعض الترميم قبل انتقالهما إليه.

ميلاد حزن جديد...

انتقل فارس وياسمين للعيش في البيت الجديد الذي لم يرق فارس كثيرا في بداية الأمر، ولكن دفء حبيبته جعل من البيت القديم قصرًا لا مثيل له، وفي إحدى الأمسيات زارت وردة ياسمين في بيتها الجديد فاستقبلتها ياسمين بالضحك والدموع، ثم سألتها:

- *لماذا تأخرتِ؟ لقد تركت لكِ رسالة في المكان المتفق عليه.*

فأخبرتها أنها احتاجت عدة أيام لتفكر قبل أن تتخذ قرارها، ثم سألتها عن فارس فقالت ياسمين:

- *هو نائم.*

ثم أمسكت يد وردة وسحبتها، وقالت:

- *تعالي لأريك غرفتك التي جهزتها لك كما تحبين.*

تجر ياسمين أختها إلى الغرفة فرحانة وأذهب فرحتها أنها تبعتها بلا فرح، فسألتها:

- *ماذا بك يا وردة؟*

صمتت وردة، ثم قالت:

- *لا أدرى يا أختي، أشعر أني مشطورة إلى نصفين، أخشى ألا أستطيع الحياة بعيدا عن أهل المكان الذي تربيت فيه، وألا أستطيع الحياة بعيدا عنك.*
- *حبيبتي وردة، أليس هذا الحلم الذي عشنا من أجله وقد تحقق أخيرا، فلم الخوف إذًا!*
- *لا تكتمل الأحلام دائما يا أختي.*
- *وردة أرجوكِ لا تقتلي السعادة التي عشت أنتظرها طيلة عمري، لقد انتظرنا سويًا أن نولد من جديد ونعيش كبقية البشر.*
- *دعينا من هذا الحديث، سأبقى معكِ عدة أيام، وربما يتبدل رأيي، ولكن لا تحاولي أن تؤثري عليّ بدموعك.*

- *اتفقنا، وسأقنعك بلا دموع، ولكن الآن اذهبي واستبدلي ملابسك.*
- *ولكن لن أخلع الخمار حتى أقررلأني إن فعلت فلن أستطيع العودة إلى المكان من جديد.*
- *لا تخافي، فلن يراك أحد، ولا أريد الحديث معك من خلف الخمار.*

ثلاثة أيام من السعادة قضتها وردة بصحبة ياسمين وفارس، وبذلا جهدهما في إقناعها لتتخذ قرار البقاء، وتبدأ حياتها من جديد في عالم النور، ويبدو أن وردة قد عزمت من البداية على البقاء مع أمها وأهل المكان، ولمَّا لم تستطع ياسمين أن تقنع أختها راودها شعور بأن وراء قرارها هذا أسرار خاصة لا تعلمها.

ودعتها ضاحكة، وأخبرتها بأن سعادتها وحياتها هناك مع أهل المكان، وأنها لن تنقطع عن زيارتها، ولم تنقطع ضحكاتها اللطيفة عند قولها لفارس:

- *وأنت لا تعتقد أني سامحتك، حبك لأختي فقط سيحميك من وعيدي.*

ضحكت ياسمين، وتمنت لها السعادة، وأخبرتها أنها ستكون في انتظارها دائما، وغادرت وهي تبتسم، وكذلك أختها ياسمين، وكلتاهما تعرف جيدًا أنه ليس شعورهما الحقيقي؛ فما إن ابتعدت وردة قليلا حتى بكيا معًا فأسرعت وردة بالرحيل ولم تلتفت.

أدركت ياسمين أن حياتها الجديدة ستخلو من أمها وأختها، وستبقى بانتظار زيارة منهما بين الحين والآخر ولن تكون زائرة قط، وإن شعرت أنها في حاجة ماسة إليهما فيتوجب عليها ترك رسالة في مكان ما، حتى يعلما ويحضرا لزيارتها. وهكذا مرت الأشهر، وظهرت آثار حمل جديد، وعند ظهور علامات اقتراب الولادة أراد فارس أن يأخذها إلى المَشفى حفاظًا على سلامتها ولكنها أصرت على أن تضع مولودها في البيت.

وقضى فارس أيام انتظار الولادة قلقًا يترقب، ومع انتصاف إحدى الليالي كان موعد ولادة ياسمين، وعلا صراخها، وجن جنونه، وبكي أمامها يرجوها أن يأخذها إلى المَشفى أو يحضر طبيبا إلا أن صراخها الشديد صاحب رفضها.

وانفتح الباب فجأة وظهرت امرأة مقنعة لم تلق التحية، ولم تكلمه، وأشارت إليه أن اخرج ولا تنتظر خلفك، فخرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه، وللمرة الأولى يشعر فارس بالراحة والاطمئنان عند رؤيته لمقنعة غير ياسمين.

لم يتوقف صراخ ياسمين عدة دقائق، وبعدها حل الصمت واستمر ساعات وأوشك فارس على الانهيار، وبدأ يحدث نفسه:

- *لابد أن هناك أسباب وراء إصرار ياسمين على الولادة في البيت، ولهذا حضرت المقنعة، ولابد أن أنتظر حتى يُسمح لي بالدخول...*

طاف المنزل مئة مرة، وهو ينتظر أن ينفتح الباب ليطمئن على زوجته، وقد انقطع صراخها فجأة، ولم يسمع تبشيرًا بمولود، أو صراخ طفل، وغزت الأوهام رأسه ولم يجد تبريرًا لهذا الصمت فاقترب من الباب خلسةً ووضع أذنه لعله يسمع شيئا! فلم يظفر بشيء، وكرر مرات ومرات حتى انفلت صبره، وواتته الجرأة وشق الباب بهدوء فوجد ياسمين نائمة كملاك لا تعي شيئا، فطاف برأسه في أنحاء الغرفة، ولكنه لم يجد أحدا. دخل الغرفة يبحث في كل زاوية، وفي الخزانة وتحت السرير لعله يجد شيئا، أو تطالعه إشارة، ولكن عبثا كان بحثه! فجلس بجوار ياسمين ينظر إلى وجهها الملائكي، ويود أن يوقظها ليسألها عما حدث، وعن المقنعة، وعن المولود الذي لم يره، ولكنه أشفق على حالها وفضل ألا يقلقها، وبقى مع ظنونه متسائلاً:

- *اعتقدت أن الألغاز قد انتهت بزواجي منها، ولكن يبدو أن لكل مرحلة ألغاز خاصة.*

وأشرقت الشمس واستيقظت ياسمين، وسألت فارس:

- *ماذا حدث؟*
- *لا أدري.*
- *هل أنجبتُ ذكرا أم أنثى؟*

- *لا أدري.*

وبكت ياسمين بكاء حارًا ولم يتركها فارس حتى هدأت، ثم قص عليها ما حدث، وإثر حكوه عادت إلى النوم ولم تنطق بكلمة، وتركته بعدما زادته حيرة، وحينما استيقظت من جديد سألها فارس:

- *ماذا حدث؟ وماذا سيحدث يا ياسمين؟*

أمسكت ياسمين يد فارس وقالت:

- *لا تخف سنعلم بعد سبعة أيام؛ هذا تقليد متبع عند أهل المكان.*

مر الأسبوع على فارس وياسمين وكأنه عام، ولم يحضر أحد، وانتظرت ياسمين يومًا آخر ولم يحدث شيء فذهبت إلى المكان المتفق عليه، وتركت العلامة، وبعد يوم حضرت مقنعة وقبل اقترابها أسرعت إليها ياسمين وحضنتها وقالت:

- *أختي لماذا تأخرت؟*
- *لم أتأخر لقد جئتك فور ترك الرسالة، ماذا بك ؟ ومالي أراكِ مهمومة؟!*
- *أين ابنتي يا وردة؟ ماذا أنجبت ولد أم بنت ؟*
- *لا أفهم عما تتحدثين يا ياسمين!*
- *أرجوكِ ياوردة، لا تمزحي!*
- *أقسم لكِ أني لا أعلم عما تتحدثين! أخبريني ماذا حدث؟*

وبدأ فارس وياسمين يسردان ما حدث، فقالت وردة:

- *لا تخافوا فربما أمي أخذت المولود لأسباب لا نعرفها.*
- *لقد توقعت ذلك، ولكن لمدة أسبوع، وقد مرَّ أكثر من سبعة أيام.*

وبدأت ياسمين تبكي وتبكي فحضنتها وردة وقالت:

- *أرجوكِ كفاكِ بكاءً، سأذهب الآن وسأعود إليك لأطمئنك.*

المكان...عتاب وقلق...

غادرت وردة وتوجهت إلى أمها وقالت:

- *لماذا يا أمي؟! أختي ياسمين تكاد تموت بكاء، أين مولودها؟*

سكتت الأم لعنة ولم تجب، فتوسلت إليها وردة أن تخبرها افقالت:

- *أختك ياسمين لم تنجب، وإن لفظتِ بكلمة أخرى فسأمنعك الخروج من هنا إلى الأبد.*

لم ينفع بكاء وردة وتوسلاتها في معرفة شيء عن مولود ياسمين، وعادت وردة وجلست مع ياسمين، ولم تجدما تقوله سوى:

- *يبدو أن أمك تخفي عنا شيئا لم نعرفه مُسبقًا، ولن نعرفه الآن، ويجب عليك حبيبتي أن تتقبلي الأمر وأعدك أنى سأبذل قصاري جهدي لأعرف أين مولودك، ولا يوجد أمامك إلا أن تطمئني وتتناسي في الوقت الحاضر.*

بكت ياسمين واختلط صراخها بقولها:

- *يجب أن أرى أمي لأعرف لماذا تقسو عليَّ هكذا!*
- *لا أعتقد أنها ستوافق على رؤيتك.*

أمضت وردة أيامًا بجانب ياسمين تواسيها وتخفف عنها، ولم يكن أمام ياسمين إلا أن تتقبل الواقع المرير، أما فارس فحاول أن يخفي أحزانه وآلامه عن ياسمين، لأنه يعلم أنها أكثر منه معاناةً... ومرت الأشهر والأم لعنة ترفض لقاء ابنتها، وترفض أن تحكي للأخرى ما حدث.

المكان...غضب العجوز...

العجوز غاضبة توبخ لعنة:

- *لماذا؟ لماذا فعلت هذا؟*

لعنة:

- *لأحقق حلم جورجيت.*
- *ما كانت جورجيت لترضى بما تفعلين! عودي إلى رشدك وامنحي ابنتيك حرية الاختيار التي منحتك إياها أمك.*
- *هما ابنتي وأنا أدرى بمصلحتهما، كما أني لا أتجاوز قانون المكان؛ الأم تملك سبعة أجيال من نسلها ولا يحق لأحد أن يتدخل حتى أنت يا خالة.*
- *هذا حقك لن ينافسك عليه أحد، ولكن اعلمي أن ما تفعلينه لن يرضي جورجيت يوما.*

صمتت لعنة، ولم ترد على العجوز...

عودة الأحزان...

حملت ياسمين للمرة الثانية، وقبل موعد الانجاب قال لها فارس:

- *أخاف أن يتكرر ما حدث، ولكني أقسم أني لن أسمح بذلك.*

ردت عليه بحزن:

- *إن كان القدر قد كتبه علينا فلن يرده أحد، وإذا أرادت أمي شيئا فلن تردعها قوة، ولكن لا تخف فمهما كان الأمر لن تؤذي صغارنا.*

وحان موعد الولادة وحضرت المقنعة، واختفت مع المولود، وانتظرت الأم الثكلى وزوجها مرور السبعة أيام، ومرت أشهر وكان مصير المولود الثاني كالأول.

وغرقت ياسمين في أحزانها وألفت عيناها الدموع، وعادت وردة لمواساتها والتسرية عنها.... وكذلك عادت إلى أمها الجالسة بجوار العجوز لترجوها فلم تجد على لسانها سوى كلمة:

- *"أختك لم تنجب، لم تنجب".*

فقالت للعجوز:

- *يا خالة أرجوكِ، لماذا تفعلون هذا بشقيقتي؟!*
- *هي أمك، وتمارس حقها، سواءٌ أرضيتُ أم لم أرضَ...لا تسأليني واسأليها يا بنيتي.*

تركت وردة توسلاتها، وصرخت في وجهي أمها والعجوز وقصدت مخاطبة كل أهل المكان:

- *ألا يوجد في قلوبكم رحمة؟ هل تعاقبونها لأنها أرادت الحياة في النور! ولو أنني اخترت خيارها لما أخذتكم بي رحمة، هل هذا ما تريده جورجيت التي أطعمت الملائكة! ولماذا يعتقد الناس فيها خيرًا ويقصدون قبرها إلى الآن؟ هل أعمى الانتقام قلبها الطيب فساقها إلى الاستمتاع بعذاب حفيداتها! وهل*

تجدون متعكم في تعذيب من أراد أن يخرج من بينكم؟ ارحموا شقيقتي وارحموني، فما عدت أفرق بين الظالم والمظلوم، تركت أختي وفضلت العيش معكم، أخبرتمونا أن سكان عالم النور وحوش في صور البشر، وإن كان الأمر كذلك سأكون سعيدة بترككم والخروج إلى عالم الوحوش.

انتفضت الأم لعنة وصفعت وردة، وحاولت العجوز تصفية أجواء الغضب، ولم تتوقف وردة عن الصراخ والتهديد بقتل نفسها لو حدث لأختها مكروه. فقالت العجوز:

- *اصبري يا ابنتي، لعل أمك تسعى لما فيه خير لكما!*

فقالت وردة وهي تبكي:

- *وعلام أصبر؟ على عذاب أختي! وما ذنبها؟ ألم تنتهِ اللعنة وسمحتم لها بالخروج كما سمحتم لي! ألم تسامح جورجيت! هل أنجبت ذكرين ولهذا أخذتموهما؟! وما ذنبها إن كان حقًا! فهل تختار المرأة أن تنجب ذكرًا أو أنثى؟! ولماذا لم تخبروها بنيتكم المبيتة لإيذائها قبلما تنجب؟ لماذا كذبتم علينا؟ لماذا تحجَّر قلبك يا أمي؟ أشفقي على حال ابنتك.*

ولم تنبس العجوز بحرف وما كان أمام لعنة سوى السكوت...

أما ياسمين، فلم تعد لحياتها قيمة، فهي صامتة شاردة الذهن على الدوام، وزيارة وردة لم تزيدها إلا بكاء، ومر على وجيعتها أكثر من عام، وأيقنت أن الإنجاب لن يجلب لها إلا التعاسة فرفضت أن تخوض التجربة مرة أخرى، ولكن وردة استطاعت أن تقنعها بالعدول عن رأيها، بعدما قالت لها:

- *لعل السبب وراء ما يحدث أنك لم تنجب بنتا!*

وكان الحمل الثالث، وتسابقت الأيام واختفى المولود ولم تبك ياسمين هذه المرة؛ فقد ملت البكاء ويئست من الانتظار، ولم تكترث بمرور السبعة أيام لتعرف ما حدث لوليدها.

وكان الحمل الرابع، واعتادت ياسمين الحزن الهادئ، ولم يعد لديها سوى أن تتجب وتترك وليدها بين يدي القدر، وفقدت وردة طعم السعادة، وغرقت في هموم ياسمين، ودفعها حزنها إلى دخول غرفة أمها لتبحث عن الصندوق، وتفتحه وتخرج القلادة وتخفيها تحت عباءتها، وتسرع إلى ياسمين وتقول لها:

- *خذي هذه القلادة يا ياسمين.*
- *وما هذه يا وردة؟ ومن أين أحضرتها؟*
- *إنها قلادة جدتنا جورجيت، وقد أخفتها أمي ورفضت أن تخرجها وقد سرقتها من أجلك، وما أعرفه عنها أنها ذات قوة خارقة تحمي وتساعد مالكها، ولم يكن أمامي طريقة لأساعدك بها سوى إحضارها.*

بكت الأختان وتعانقا، وقالت لها:

- *أعيدي القلادة إلى أمي فهي ملك لها، وأنا لم يتبق لي من حياتي في عالم النور سوى الأحزان، وسأنتظر ساعتي لأعود إلى عالم الظلمة جثة هامدة أسكن قبرًا مظلمًا وأنام في سبات عميق.*
- *قسا قلب أمي، وخلا من الرحمة، وأنا لم أبق على صلتي بأهل المكان إلا أملاً في معرفة مصير أبنائك، ولولا ذلك لما بقيت هناك لحظة واحدة، ولم يعد يهمني غضب أمي أو غيرها، هيا يا ياسمين يجب أن نعرف سر هذه القلادة، لا يوجد شيء لتخسريه.*

ابتسمت ياسمين وقالت:

- *لا يا وردة، أعيدي القلادة مكانها، لا أريد أن أفتقدك أيضًا وهو ما لا أستطيع احتماله.*

غادرت وردة وهي تقول:

- *لن أعيد القلادة، إنها لك، لن أعيدها.*

ولمَّا وردة التقت بأمها بادرتها قائلة:

- *لماذا فعلت هذا يا وردة؟*

لم تتكلم وردة، فكررتُ الأم سؤالها، فقالت وردة:

- *أعطيتها لياسمين لعلها تساعدها! ألم تحتاري بيني وبين أختي في استحقاقها، لا داعي للحيرة فقد تنازلت عن حقي من أجلها، وإن كانت حياتي كلها ستعيد لها البسمة فلن أبخل عليها.*

فقالت لعنة الأم:

- *لا بأس يا وردة، ، ولكنك لن تخرجي من هنا ما حييت، ولو للحظة واحدة.*

وضعت ياسمين القلادة في الخزانة حتى تعود أختها وردة لتقنعها بأن تعيدها، وانقطعت وردة عن زيارتها فذهبت ياسمين وتركت لها رسالة، ومرت سبعة أيام ولم تعد وردة لزيارة ياسمين، وسبعة أخرى ولم تنقطع ياسمين عن ترك الرسائل بلا فائدة.

وتوالت الأيام وما عادت ياسمين تطيق فراق أختها، وعادت إلى البكاء ليل نهار، تمضي معظم وقتها بجوارالنافذة آملةً أن تلمح وردة قادمة من بعيد، ولكن هيهات لسجين النور أن يرى سجينَ الظلمة! ياسمين في انتظارها، ووردة في بكائها وصراخها بعدما امتنعت عن الطعام والشراب لتستعطف قلب أم جف منه ينبوع الحنان.

وضعفت قوى ياسمين مع اقتراب موعد الولادة الرابعة، ولم تترك إضاءة الشموع – كعادتها– والجلوس أمامها لتخاطب جورجيت قائلة:

- *جدتي جورجيت، أخذتي أطفالي قبل رؤيتي لهم وأنا راضية، ولا أريد من دنياي سوى أختي وردة أعيديها لي، وأعدك أن أنجب طفلاً كل عام وأنذره لك يا جورجيت.*

مولد جورجيت...

واستمرت ياسمين كل يوم تضيء الشموع وتجلس أمامها في خشوع تتوسل إلى جدتها جورجيت كي تعيد أختها، وحضرت المقنعة مع موعد الولادة الرابعة، ودخلت غرفة ياسمين وأوصدت الباب.

أما فارس الذي استسلم لقدره، ولم يكن بوسعه سوى الاطمئنان علي ياسمين بعد كل ولادة، توجه إلى غرفتها وفتح الباب فرآها نائمة ولكن هذه المرة تزين فراشها طفلة صغيرة يشع النور من وجهها كالبدر في ليلة تمامه فقفز قلبه من الفرح، وجلس بجانب السرير ينظر إلى ياسمين ثم ينظرإلى الطفلة، ودموع فرحه تتساقط من عينيه.

وانشغلت ياسمين بالطفلة التي أسمتها "جورجيت"، وذهب عنها اليأس، وعاودتها الحياة، ومع نهاية الأسبوع حملتها وتوجهت بها إلى الجبل حيث اعتادت أن تنادي أمها وأختها وكانت قد منعت من الذهاب إلى هناك بعدما ودعتها أمها ليلة زفافها... جلست ووضعت ابنتها جورجيت إلى جوارها، وأخذت تنادي وتقول:

- *يا أهل المكان، وُلدت جورجيت من جديد... يا أهل هذا المكان تعالوا وخذوها لتعيد لكم النور من جديد، أنا أهبها لكم راضية، ولكن أعيدوا لي نور حياتي، أعيدوا لي روحي، أعيدوا لي أختي وردة.*

ثم جلست تبكي، ومن بعيد ظهرت امرأة مقنعة، وقبل اقترابها عرفت أنها أمها. اقتربت من الطفلة ووقفت أمامها فبكت ياسمين، وقالت:

- *أمي أرجوكِ خذيها، ولكن أعيدي لي وردة، أتوسل إليك يا أمي.*

لعنة الأم لم تتكلم، وحملت الطفلة والقلادة وعادت من حيث أتت، ووقفت ياسمين مكانها تبكي وتنادي على وردة حتى يئست وعادت إلى البيت، ولاقاها فارس واستغرب عودتها بغير الطفلة.

فسألها:

- *أين ابنتنا؟*
- *لقد أخذوها يا فارس، أخذوها.*
- *مَنْ يا ياسمين؟*
- *أهل المكان وأمي يا فارس.*

وصرخ فارس:

- *لماذا تفعل بكِ هذا.*
- *لستُ أدري!*

وأخذت تبكي قائلة:

- *أريد وردة، أريد وردة.*

وبكى فارس لبكائها، ومرت تلك الليلة عليهما ككابوس، وأشرقت الشمس ولم تذق أعينهما طعم النوم أو الراحة.

عودة النور...

ومن نافذة البيت ينظر فارس إلى باب الحديقة الخارجي، فيرى ياسمين في أبهى أثوابها تقصد البيت وتضم إلى صدرها طفلتها الرضيعة وقد انسدل على كتفيها شعرها الناعم تعبث بخصلاته نسمات الهواء.

يفرك عينيه ليتأكد من حقيقة ما يراه، ولم يتلاش هذا المشهد الرائع، فمازالت ياسمين حاملة طفلتها جورجيت وأشرفت على الوقوف أمام الباب، فقفز لاستقبالها... تدخل وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة، وتتاوله الطفلة، فيحملها بين ذراعيه وقبل أن يدرك ما يحدث يسمع صرخة آتية من خلفه:

- *وردة، وردة.*

تقفز الأختان كغزالتين وتلتحمان في عناق وقبلات، بكاء وضحك بلا توقف. ويقف فارس مذهولا يحمل طفلته بين يديه، ويجد نفسه عاجزا عن التمييز بين الأختين.

يدوران في الهواء، وتقول إحداهما للأخرى:

- *ظننت أني سأموت ولا أراك يا ياسمين.*

وتقول الأخرى:

- *ما كنت أسمح للموت أن يفرق بيننا يا حبيبتي.*

وهنا أدرك فارس أنه استقبل وردة مع طفلته جورجيت.

- *أحضرت ابنتكِ جورجيت.*

ولا تهتم ياسمين بما قالته وردة، وتقول:

- *أنت لا ترتدين الخمار، أحقًا ستبقين معي يا وردة؟*
- *ولن أفارقك إلى الأبد يا ياسمين.*

وتعانقا من جديد، عناق وقبلات، بكاء وضحك لم يتوقف لولا بكاء جورجيت الذي دفع أمها إلى حملها.

ثم سألتها:

- *ماذا حدث يا وردة؟ أنا لا أفهم شيئًا.*
- *لا أدري، جاءت أمي تحمل بين يديها الصغيرة جورجيت، وطلبت مني أن أخلع الخمار، وأرتدي أجمل ما لدي، وقالت "انتهى كل شيء، لقد وُلِدت جورجيت من جديد، ثم قالت لي كوني لها أمًّا واحمليها إلى أمها.*
- *وبقية أطفالي، متى ستعيدهم؟*
- *لا تخافي ستعيدهم قريبًا.*
- *ولِمَ كل هذا يا وردة؟!!*

وصمت الجميع وحلقت فوق الأختين وفارس سعادة حقيقية زينتها جورجيت الصغيرة، وتصادف يوم الأربعين لميلاد جورجيت الطفلة مع اليوم الذي اعتادت فيه الأم لعنة وابنتيها إضاءة الشموع ومخاطبة جورجيت الجدة، وأضاء الأختان الشموع مع انتصاف الليل، ووضعا الصغيرة جورجيت أمامهما وقبل نطقهما بحرف ظهرت الجدة جورجيت في ثوبها الأبيض الناعم لا يفصلها عنهن عدة خطوات... نظرت إليهن وابتسمت، وأرسلت إلى الصغيرة جورجيت نظرة حانية وسالت عدة دمعات من عينيها فبكى الجميع، ومن العجب أن أدمعت عينا جورجيت الصغيرة بلا صراخ.

واقتربت ياسمين ولمست قدم الجدة بيدها، وعادت إلى مكانها، وكذلك فعلت وردة، وابتسمت جورجيت ابتسامة عريضة واختفت بهدوء.

فقالت ياسمين لوردة:

- *هل الدموع التي ترقرقت في عينيها دموع فرح؟*
- *آمل أن تكون دموع فرح.*
- *كم أتمنى لو أنني أستطيع أن أحتضنها وأبكي على صدرها.*
- *وكذلك أتمنى، ولكني على يقين بأنه لن يكون.*

وصمت الأختان والتقت أعينهما، ثم قالت:

- *وردة، هل تشعرين بما أشعر به الآن؟*
- *نعم، أمي قريبة، لابد أنها قادمة إلينا.*
- *أتمنى أنها لم تأتِ لتحرمنا من شيء.*
- *وكذلك هي أمنيتي، تعالي لنستقبلها.*

توجها نحو الباب لاستقبال الأم، وظهرت المقنعة وحضنتهما معا، ودخلت معهما الغرفة وأزاحت الخمار عن وجهها، وحملت جورجيت الصغيرة وضمتها إلى صدرها.

ونظرت إلى ابنتيها وابتسمت، ثم قالت:

- *أعلم أنكما كرهتماني في الآونة الأخيرة.*

فأحنتا رأسيهما، وقالت الأم لعنة:

- ابنتي الغاليتين أنا لا ألومكا، أعرف أن السنوات الأخيرة كانت قاسية، وأقسم أنني كنت أعاني أضعاف عذابكما، دموعكما كانت تحرقني ليل نهار، ربما ظننتما أنني لم أتأثر بما حدث، ولم تشعرا بالنار التي كانت مضرمة بداخلي، وأنا مجبرة على إخفائها، أنا لم أكذب عليكما، ولم أخدعكما قط، اليوم رأيتما جدتكما جورجيت، ألا تستحق منا التضحية؟!
- لم تظهر جورجيت ليلة زفافك يا ياسمين بسبب انتهاء اللعنة، وإنما لأنها أرادتها أن تنتهي، وتنازلت عن راحتها وفرحتها من أجلكما، سنوات طويلة انتظرتها جورجيت في انتظار ميلاد جورجيت الصغيرة لتنال حريتها وراحتها، ولأنها شعرت بأنكما لن تقدرا على تحمل المزيد من العناء، تنازلت عن اللعنة وعن راحتها الأبدية من أجلكما قبل ميلاد جورجيت فكان ظهورها ليلة الزفاف.
- أما أنا فقد تقبلت الأمر في البداية، وعلمت أن الحياة تسير هكذا، وأن النبوءات لا تتحقق دائما، ولكن بعد زيارة قبر جورجيت، وبعدما أحضرت لي الخالة العجوز قلادة جورجيت التي لم تتركها لحظة واحدة تذكرت عندما كنت صغيرة وتوسلت إلى جدتكما لأرتدي قلادتها فأخبرتني الكثير عن أسرارها، ومن أصعب ما ذكرته وكاد يتحقق أنني قد أخسر إحدى عينيّ بسبب هذه القلادة.
- وقتها لم أهتم، ولكن عيناي الآن؛ واحدة اسمها ياسمين والأخرى اسمها وردة فأي عين يجب أن أختار! نعم لقد عرفت أنكما إن خرجتما معا إلى النور ولم أستطع منعكما فسأخسر إحداكما، لقد عرفت أنه مع انتقال هذه القلادة دون أن يظهر النور بميلاد جورجيت فسيفرقكما النور، وستخسران بعضكما إلى الأبد، لأن ما يجمعه الظلام يفرقه النور، وأنتما ولدتما في الظلام، ولمَّا

كان حبكما وارتباطكما أقوى من كل شيء لم يعد لدي أدنى شك أن هناك قوة قادرة على تفريقكما.

- *ضحَّت وردة بالنور من أجلك يا ياسمين، لقد اختارت أن تمضي بقية حياتها داخل الخمار المظلم، وألا تخرج إلى النور بعدما علمتْ أنها لو فعلت ستفقدان قوتكما معًا، اختارت أن تبقى لتحميك وتساعدك متى أردت المساعدة لتضمن سعادتك إلى الأبد.*
- *وأنت يا ياسمين لقد أثبتِ أنك ستضحين بأغلى شيء لديك، وبكل شيء من أجل وردة.*
- *أما أنا فما كان أمامي إلا أن أجعل الصندوق مغلقا، وأنتظر ولادة جورجيت من جديد، لقد حرمتك من رؤية أبنائك، لأن النبوءة تقول "إن الوجه الأول الذي سيعكس النور وينهي اللعنة هو وجه أنثى، يطلق عليها اسم جورجيت"، ومولودك البكر ولد ميتا، ولو رأيته لغرقتِ في أحزانك، وما كان لك أن تنجبي من جديد.*
- *وهنا عزمتُ ألا ترى كلاكما أي وجه قبل وجه جورجيت الثانية.*

ياسمين تبكي:

- *وطفليّ الذين لم أرهما يا أمي؟ هل هما أحياء؟ ماذا حدث لهما؟*
- *اطمئني إنهما بخير.*

وبكين جميعا وكانت نوبة بكاء حادة استمرت طويلا، ثم قالت ياسمين:

- *متى سأراهما يا أمي؟*
- *قريبا اطمئني.*

وحاولت وردة قتل أجواء الدموع والحزن فسألت أمها عن القلادة وسرها فمسحت الأم لعنة دموعها وقالت:

- *اسألي صاحبتها عندما تكبر؟ اسألي مَنْ ستنير مئات البيوت المظلمة... اسألي مَنْ ستكون نور المظلومين ونار الظالمين.*

اقترب شروق الشمس، وودَّعت الأم لعنة ابنتيها ووعدتهما بزيارة قريبة. وبعد رحيل الأم لعنة كان حوار بين وردة وياسمين وفارس وبكاء **على مولود اعتقدا انه مات** قبل رؤية الدنيا، وابتسامات لغد أفضل، وأشرقت شمس جديدة ومازالوا في حديثهم، ولم يجرؤ أحدهم أن يسأل أو يلمّح إلى متى ستعيد لعنة الأم الولدين إلى حضن والديهما وخالتهما؟!

وفجأة وصل إلى مسامعهم أصوات ضحك ومرح منبعثة من حديقة البيت، فقفزوا جميعهم مسرعين، وكأن لكل منهم حدسه الخاص لما يتوقع أن يرى، طفلان صغيران يلعبان في الحديقة بسعادة، وكأنهما ألِفا هذا المكان وترعرعا فيه منذ ولادتهما، وتسابق الجميع في الوصول إلى الحديقة وخلفهم تركوا جورجيت الصغيرة صاحبة الوجه الملائكي نائمة يشع من وجهها النور تروي قصة عائلة سعيدة.

خالتها وردة تزوجت ورحلت مع زوجها ليعيشا في سعادة، وأبوها فارس استطاع أن يبني عملا ناجحًا بعيدا عن الاحتيال، وأمها ياسمين عملت متطوعة في روضة أطفال؛ تمنحهم الحب والأمان، وأخوان يكبرانها، يلاعبانها ويحطمان ألعابها، فتبتسم لهما ولا تبكي. وجدة اختفت قبل سبعَ سنوات، اخذت معها القلادة والعهد ومعها اختفت أبواب المكان ولم تظهر حتى قطع الجميع الأمل في أنها ستظهر يوما.

الحاضر... بيت ياسمين

الساعة الواحدة ظهرا...

تعود ياسمين من عملها وتجد ابنتها جورجيت ابنة السبع سنوات وأربعين يوما، قد أخرجت من البيت عدة صحون، ووزعتها في كل زوايا الحديقة، وملأتها بالماء... وعادت وأحضرت الخبز، وأخذت تقسمه وتضعه بجانب الصحون.

ابتسمت ياسمين وسألتها:

- ماذا تفعلين يا جورجيت؟

فأجابتها الصغيرة:

- (بطعمي الملائكة يا ماما...)

الحاضر... المكان

الساعة الواحدة ظهرا...

مازالت المصابيح تضيء القاعة الكبيرة، ومازالت الرسوم تزين الجدران... تجلس امرأة في الثمنينيات من عمرها، اسمها لعنة، وبجانبها تجلس فتاة في الثانية عشرة من عمرها... تسألها:

- متى ستسمحين لي بزيارة أختي وأمي يا جدتي؟

تجيبها الجدة:

- بعد ثلاث سنوات يا جورجيت ستبلغين الخامسة عشرة، وستسكنين النهار والليل....

النهاية...؟

هل حقا تعتقد ذلك؟؟!!



جرة ذهب

(قافلة الذهب والموت)

للكاتب فوزي عبده

لمحة مختصرة عن الرواية

الشاب عزيز حقي يرافق عالم الآثار روهان بيك في رحلة لاكتشاف كهف غامض بالقرب من الناصرة، وبعد أسبوع من المغامرات المذهلة، وفي طريق العودة إلى اسطنبول أُجبرا تحت تهديد السلاح على مرافقة قافلة تحمل كميات ضخمة من الذهب والآثار، يقودها قتلة ومجرمين! ولم تمضِ أيام حتى بدأ كل من رافق القافلة بالتخطيط والتآمر لسرقة الذهب...

عزيز صاحب الذاكرة الخارقة كان أكثرهم طمعا ودهاء، وسرعان ما اكتشف أن الموت سيطال كل من رافق القافلة الملعونة، فبدأ يرسم الخطط للنجاة بحياته والعودة للاستيلاء على الذهب... حَفَر ودَفن جِرار الذهب ومَن تم ذبحهم على يد الشيخ طبرق، واستغل كل من رافقه، وتلاعب بجودت وفاطمة الغجرية وخدع الموت...

تدور أحداث الرواية في بلاد الشام في أواخر العام 1914...

مقتطفات من رواية جرة ذهب

لم أكن يوما شجاعا ولا بطلا، ولكني اليوم قررت أن أتفوق على الجميع بشجاعة كلماتي، سأجرؤ أن أتعرى أمامكم جميعا، لن أستر عورتي، لن أختبأ خلف الكلمات، سأصف لكم ما دار في أعماقي وخيالي، ومن غيري سيجرؤ على فضح عاره! إن وصلتكم هذه القصة يوما اشكروا حفيدتي وابحثوا عن قبري وابصقوا عليه، وبعد ذلك لن يضركم إن تساءلتم: لو كنتم مكاني في هذا الجحيم فماذا سيكون خياركم؟

مقتطفات من رواية جرة ذهب

لم يعد لدي شك في وجود عشرات الأبواب عن يمين الممر ويساره كنت سريع الحركة، أسابق الوقت، أفتح الأبواب، الواحد تلو الآخر، تغزوني شهية لالتهام كل ما أراه دفعة واحدة، الكثير من اللوحات والمنحوتات المزينة بأحجار كريمة، حاولت أن أخلع بعضها بأظافري، لو كنت أحمل سكينا لحملت معي ما يكفي لأكون باشا.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

هذه الجمال تحمل شيئا ثمينا، وكأنه ينقصني المزيد من الغموض والأسرار؛ أرغب في اكتشاف ما تحمله هذه القافلة، وإن كنت أفضل اكتشاف سر صناديق الكهف أولا.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

مريب...مريب...هذا أمر مريب. ندور وندور بلا هدف، هذه القافلة تهرب من شيء ما، ولو كانت الدولة على علم بها لما سارت تحت جنح الظلام.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

لم تكن الخيمة الملكية وما بداخلها هو ما أذهله، وإنما الأندلسية السمراء فائقة الجمال كانت ترتدي ثوبًا من الحرير الأحمر، طُرِّز بورود ذهبية، مشدودا على جسدها ليبرز ثناياه المُثيرة، لكن سرعان ما خاب ظنه عندما طلبت منه الجلوس وارتدت عباءة سوداء مطرزة بالذهب، لتخفي ما استقبلته به من جسدها، وأدرك أن ما حدث لم يتعد الاستعراض... سمع صوتها وسألته عن اسمه سابقا، ولكنه تفاجأ حينما سألته ثانية:

– ما اسمك؟

أغلق عينيه لحظةً وعزم على الخروج سريعا من سطوة سحر جمالها، واسترد ما غادره من غرور بابتسامة ساخرة سرقت نصر جمالها، وقال:

- مازال اسمي حيان ولم يتغير منذ الأمس.

ضحكت وقالت:

- وماذا كان يعمل حيان قبل التحاقه بالقافلة؟

- اعذريني عن هذا السؤال فلست معتادا على الكذب.

فقالت بغنج:

- سأغفر لك إن كذبت.

- أنا سائس دواب.

- لا هذه كذبة ساذجة.

- أنا حمَّال.

- وهذه ساذجة أيضا.

- أنا ملازم أول بالجيش العثماني وقد فررت من الخدمة.

- لماذا هربت من الجيش؟

ضحك وقال:

- صديقي العجوز روهان أقنعني بذلك.

- خيرًا فعل.

- ومن تكونين أنت يا سمو الأميرة.

– أنا ريهان ابنة السلطان

– لا لست ابنة سلطان.

– ألا يليق بي أن أكون ابنة سلطان؟

– الحقيقة أني أرى أنه لا يليق بك أن يكون السلطان والدك.

– وماذا تعتقد أني أكون يا حيان؟

– لا أجد تبريرًا لحسناء ناعمة تضج بالأنوثة كي تكون على رأس قافلة من هذا النوع!

مقتطفات من رواية جرة ذهب

فهمت أنه يسألني عن المسؤول عن هذه الصناديق، ولأول مرة في حياتي لم أجد الرغبة بأن أدعي أني أستاذ كبير أفندي بيك باشا. وقررت أن أثقل ضميره إن فكر في قتلي وأجبته بالعربية:

- أنا مسلم ابن مسلم، عربي ابن عربي أنا أخوك في الإسلام اسمي عزيز من حلب.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

توغلت بين الدواب والبشر بحثا عن صيد سمين ومعلومات ثمينة، ودائمًا ما تكمن الأسرار تحت ثياب الخدم المدللين، فأينما وُجد خادم أنيق مزخرف، فلابد من أنه ترعرع في أرض خصبة أزهرت بها الأسرار، وتنتظر من هو مثلي لقطفها.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

كانت بداية حلمي جرة ذهب واحدة تكفيني لأتحول إلى باشا حقيقي، وقبل أن تغفو عيناي طمعتُ أن أسرق بغلاً مُحمَّلاً بالكثير من الجِرار.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

- أنا أتحدث كل اللغات العربية.

- ابتسم وقال ساخرا:

- وأين تعلمت كل اللغات العربية؟ بالمدرسة أم بالجامعة يا أستاذ عزيز؟

- لا يا سيدي...المدارس أيضا قالت إن ذكائي خارق ولم تقبلني،
- هل تجيد الكتابة والقراءة؟

لا يعقل لأبله مثلي أن يكتب أو يقرأ، وقد لاحظ البعض أثناء رحلتنا أني أجيدهما، وقد يكتشف الأمر يوما، فكان عليَّ أن أعطيه جوابا يكون فيه مخرجا، فأجبته:

- نعم يا سيدي لقد تعلمت كيف أرسم اسمي واقرأه إذا كتب أحدهم لي رسالة عليها اسمي، لأعرف أن الرسالة لي.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

- لن يقتلنا أحد إن التزمنا الصمت ولم نتدخل فيما لا يعنينا، لا نتكلم، لا نسمع، لا نرى، وسنعود سالمين.

رد ساخرا:

- نعم... نعم...سنعود سالمين وسيكافئون كلاً منا بجرة ذهب أيها الأحمق.
- أتمنى أن تلتزم الصمت وتتوقف عن ثرثرتك، احفر، ادفن واخرس حتى تنتهي الرحلة.

فقال ساخرا:

- احفر ادفن يا عزيز أفندي، ومع الجرة الأخيرة ستُكافأ برصاصة في رأسك.

فقلت له في خباثة:

- اهربْ إذًا وانجُ بحياتك إن كان هذا ما تعتقد.

ضحك ببلاهة متوهمًا ذكاءه، وقال:

- لن أهرب وأترك كل هذا الذهب خلفي، اصدقني القول يا عزيز، ألم تفكر في سرقة بعض هذه الجرار؟

مقتطفات من رواية جرة ذهب

– يا عزيز الأحمق إن كان غيرك سيموت مرة، أمّا أنت ستموت مرتين؛ أُولاهما من أجل الذهب الذي دفن في الجبال والأخرى من أجل ما دُفن في الخيمة.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

– اقتلوهم جميعا وادفنوهم في حفرة واحدة، وهذا المسمى عزيز، اقتلوه واحرقوا جثته أمامي حتى لا يعود للحياة مرة أخرى.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

– ماذا فعل طبرق بالعربي؟

لم أتمالك نفسي وأجهشت بالبكاء لمَّا استعادت ذاكرتي مشهد الرعب، وخجلت من بكائي كفتاة صغيرة.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

إذًا الذبح سيتم تدريجيا بِناءً على كمية الذهب المتبقية، والحاجة للحفر والدفن، ، ويبدو لي أن القاسم المشترك بين الجميع هو التأكد من ذبحي...

مقتطفات من رواية جرة ذهب

خرجت ولم يشغل بالي سوى معرفة سارق الذهب، من المُحال أن فردًا واحدًا استطاع ذلك،

مقتطفات من رواية جرة ذهب

– وهل تعتقد أن من الحكمة أن أتركك تهرب وتفسد كل خططي.

– أي خطط أيها الأحمق! ستموتون جميعا، لن ينجُ منكم أحد، اذهب وخطط كما تشاء ودعني وشأني.

– وهل تظن أنك ستنجو؟

– إن لم تفضح أمري وتموت معي سأنجو،

مقتطفات من رواية جرة ذهب

سألته عما يسعى إليه من وراء هذا الحديث، فقال:

– سيقتلوننا جميعا يا عزيز.

– ولماذا يقتلونك وأنت منهم؟

– الآثار التي دفنتها فاطمة والذهب الذي دفنه جودت لا يحتمل وجود شهود، وهل تعتقد أن يسمحوا لنا بالنجاة لكوننا أتراكًا؟ لقد قُتل أتراكٌ أرفعُ نسبًا وشأنًا منا لما هو أقل من ذلك.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

المستحيل ذاته في احتمالية حدوث مثل هذا الشيء؛ مَنْ يصدق أن نقوم باختيار مكانًا في البراري لغاية دفن ذهب وعند الحفر نجد ذهبًا في انتظارنا!

مقتطفات من رواية جرة ذهب

– الخائن يا عزيز دومًا يخشى الخيانة لهذا عزم ألا يترك كنوزه في مكان واحد، وفيما فعله منطق، إخراج هذه الكنوز سيكون سهلاً عليه في أي وقت يشاء، ويصعب ذلك على الآخرين، ولو جمع ما نهبه في مكان واحد لوجدت الخيانة طريقها إلى نفوس البعض.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

استمر الحديث وبالرغم من أني مازلت أسمع صوت يعقوب إلا أن يده أمسكت بكتفي وسحبني إلى داخل الخيمة وطرحني أرضًا، ووضع حذاءه على صدري وقال:

– لماذا تتنصت علينا؟

ووقفت أمامه عاريا كما ولدتني أمي، وتساءلت إن كان ينوي قتلي لمًّا عرّاني؟! وهل يعقل أنه ينتوي بي شيئا آخر؟ وذهب خيالي بعيدا بعيدا، وحين أخذ يتفحص جسدي الهزيل

بعينيه الجليدية وطلب أن أستدير أيقنت أني في ورطة لن يحسدني عليها إلا الملط المُخنث..أدرت وجهي إلى الحائط وانهمرت الدموع من عينيّ، وحلّق خيالي بلا حدود.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

تساءلت كيف استطاعت هذه المصرية اللعينة أن تقنع الفيل بالاستحمام ولم ينجح أحدنا بفعلها، وانتظرت اللحظات القادمة حيث سأشمت بها وبخاصة أن معظم ملابس العملاق قد تمزقت وقلت سرًا:

- والآن أيتها البارعة هل ستتركينه عاريا بعد هذا الحمام المنعش؟!

مقتطفات من رواية جرة ذهب

لم يستوعب عقله أن أربعة صناديق كانت ملآنة بالذهب، وكاد يفقد عقله عندما أخبرته أن عشرات الصناديق الأخرى كانت كذلك قبل إفراغها،

مقتطفات من رواية جرة ذهب

- عزيز، سأعطيك حرية الاختيار بين أن تخبرني بالحقيقة فورا أو أن تقرر أن تمضي بقية عمرك مقيدا برفقة عبيدي، أو أن تُدفن حيا في صندوق.

مقتطفات من رواية جرة ذهب

أراقب مستمتعًا رقةً تنسل من بين شفتي هذه المجنونة السادية، المعاقة، المعتوهة؛ تتلذذ بتعذيبهم ليل نهار، ولا تطيق فراقهم...

- أرجوك لا تقتلهم، ادفنهم أحياء. واحرص على ألا يموتوا وألا يخرجوا من الحفرة أبدا.

ألا يوجد رجل ليصفع هذه المجنونة لعلها تستعيد رشدها وليس من المستبعد أن تطلب ريهم بالماء وتسميدهم ليزهروا المزيد من العبيد.